NIETZSCHE

فريدريك نيتشه

الفجر



ترجمة محمد الناجي



أفريقيا الشرق



تأليف : فريدريك نيتشه
ترجمة وتقديم : محمد الناجي
عنوان الكتاب : الفجر
رقم الإيداع القانوني : 2012MO2895
ردمك : 978-9981-25-871-6
159 مكرر، شارع يعقوب المنصور - الدار البيضاء
• المطبعة : الهاتف : 04 95 25 0522 / 13 98 25 0522
الفاكس : 20 29 25 0522
• النشر والتصفيف الفني : الهاتف : 53 67 29 0522 / 54 67 29 0522
الفاكس : 72 38 48 0522
البريد الإلكتروني : E.mail : africorient@yahoo.fr

NIETZSCHE

فريدريك نيتشه

الفجر

ترجمة محمد الناجي

أفريقيا الشرق

مقدمة المترجم

تشهد بلادنا تدهورا خطيرا في مجال القيم ينذر بانحدارنا نحو هاوية سحيقة. فمنظومة القيم تشهد تحولا خطيرا لم يسبق له مثيل، ومن مظاهر ذلك استخفاف الصغار والشباب بالكبار بكل وقاحة، واعتبار قيم الجيل السابق كلها قيما بالية يجب نبذها وإحلال القيم المستوردة محلها.

وكذلك اعتبار المال المحصل عليه من الرشوة، أو السرقة أو نهب المال العام رزقا حلالا، وعدم الشعور بالذنب مطلقا عند أخذه، بل والاستماتة في الدفاع عن كونه حقا تحت ذريعة كون الكل يفعل ذلك. إنها غريزة القطيع، وإني أخشى أن نتحول فعلا إلى قطيع يأكل القوي فيه الضعيف.

وإذا نظرت إلى القيم التي يرسخها تعليمنا في النشء أصابك الذعر من هول ما ترى من نتائج، وأشفقت على هذا البلد ممن سيتحملون المسؤولية غدا. أسوأ ما نربي في أبنائنا ثقافة الريع، وآثارها الوخيمة على السير العام لشؤون البلاد معروفة لدى الكل.

أضف إلى ذلك طغيان المطالبة بالحق على المسارعة لأداء الواجب، والتذمر من كل شيء. نحن شعب متذمر، وكثير الشكوى، وإنها لآفة محبطة للهمم، ومثبطة للنفوس، وتدمر الطاقات. وإذا أدمنها أحدهم في إطار النفاق الاجتماعي أصبحت ديدنه وقعدت به فأخلد إلى الأرض. فأي سوء اقترفه هذا الوطن حتى نعاقبه كل هذا العقاب؟

ولو سردنا كل أدوائنا لطال بنا المقال: خيانة الأمانة، وإيذاء الجار، ومضايقة النساء والفتيات في كل مكان والسعي لإفساد أخلاقهن، وابتزاز الناس بمختلف الطرق، ومداهنة الفاسق والظالم إن كان ذا مال، وهلم جرا.

وبإلقائنا نظرة على تعاملنا مع بعضنا أثناء السياقة على الطريق نخلص إلى أن أخلاقنا قد ساءت بشكل ينذر بتحول يضعنا على منحدر لا نعلم منتهاه.

مفتاح الإصلاح كله بيد التربية، في البيت، والمدرسة، والشارع، والإعلام، وفي كل شيء.

أقدم للقارئ ترجمة هذا الكتاب لعلها تنير بعض السبل، وتفتح بعض الآفاق. وأنبه إلى كون قراءته تتطلب أسنان قوية ومعدة تجيد الهضم.

محمد الناجي

الرباط في: 2/ 1/ 2013



توطئة

1

الكائن الذي يعمل في هذا الكتاب كائن «تحت أرضي»، يفتح المنافذ، يحفر وينخر. سنرى، إذا كانت لنا عيون تبصر في الأعماق، كيف يتقدم ببطء، بتبصر ومرونة، دون أن نخمن البؤس الذي يصاحب الحرمان لمدة طويلة من الهواء والضوء؛ وربما نوشك على الظن بأنه سعيد بالعمل الذي يقوم به في الظلمات. ألا يبدو أن هناك إيمانا يقوده، وعزاء يواسيه ؟ ولئن أراد أن يكون له ظلامه، وأشياء تكون خاصة به، أشياء غامضة، وخفية، وملغزة، فلأنه يعرف ما سيحصل عليه في المقابل : صباح خاص به، خلاص نفسه، **فجره** ؟... سيعود ولا شك : فلا تسألوه عما يريده هناك تحت الأرض، سيقوله لكم في نهاية المطاف، طروفونيوس، هذا الكائن السردابي، بمجرد ما «يعود إنسانا». والذي كان خُلدا مثله لمدة طويلة، فقط لمدة طويلة مثله، ينسى الصمت.

2

سأقول لكم يا أصدقائي المتحلين بالصبر ما كنت أبحث عنه هناك في الأسفل، سأطلعكم عليه في هاته المقدمة التي جاءت متأخرة، والتي ربما كانت ستتحول بسهولة إلى وداع أخير، إلى خطبة جنائزية : لأنني عدت بعد أن نجوت. لا تعتقدوا أنني سأدعوكم للقيام بمثل ما قمت به فحالفني الحظ ونجوت، أو إلى مثل تلك الوحدة ! لأن الذي يسير في مثل تلك السبل الخاصة لا يلتقي أحدا : فتلك هي «السبل الخاصة». لا أحد يقدم له يدَ المساعدة؛ عليه أن يواجه وحده كل الأخطار، والصُدف، والأذى، ورداءة أحوال الطقس. لأن له سبيلا خاصة به، وهي التي تتسبب له في المرارة، وفي الغيظ أحيانا : يجب أن نضع ضمن مواضع

المرارة والغيظ هاته عجز أصدقائه عن تخمين مكان تواجده، والمكان الذي يذهب إليه؛ إلأى درجة أنهم يتساءلون في بعض الأحيان : «كيف ؟ هل هذا هو ما يسمى المضي قدما ؟ ألا تزال لديه **سبيل** ؟» — لهذا أقدمت على هذا الأمر الذي لا يمكن أن يقوم به أي كان : نزلت إلى الأعماق : أخذت أحفر المنافذ في القعر، بدأت أتفحص يقينا قديما وأزعزعه، يقينا اعتدنا نحن الفلاسفة، منذ آلاف السنين، أن نبني عليه كما على أرض صلبة، — ونعيد البناء باستمرار، رغم انهيار كل ما بنيناه حتى اليوم : بدأت أزعزع يقيننا في الأخلاق. ألا تفهمونني ؟

3

الخير والشر هما اللذان لم نفكر فيهما مليا حتى الآن : لقد كان ذلك على الدوام أمرا خطيرا. فالضمير، والسمعة، والجحيم، والشرطة أحيانا، لم يكونوا يسمحون ولا يسمحون الآن بالنزاهة؛ لأنه لا يُسمح لنا في حضرة الأخلاق، كما في حضرة أي سلطة، بأن نفكر، ناهيك عن الكلام : ثمة يجب علينا أن نطيع ! منذ وجد هذا العالم لم تقبل أية سلطة أن تكون موضع انتقاد؛ الذهاب إلى حد انتقاد الأخلاق، الأخلاق باعتبارها قضية، اعتبار الأخلاق إشكالية : كيف ؟ ألأم يكن ذلك — أليس ذلك — لاأخلاقيا ؟ — ومع ذلك فإن الأخلاق لا تستخدم فقط على مختلف أشكال التخويف لتبقي الانتقادات ووسائل التعذيب بعيدة : بل يقوم أمنها على فن إغراء تتقنه — إنها تتقن «التحميس». أحيانا تنجح من خلال نظرة واحدة في تجميد إرادة النقد، أو جذبها لتقف في صفها، بل إنها تنجح في بعض الحالات في جعلها تعارض نفسها : بحيث تلدغ نفسها كما تفعل العترب. فالأخلاق تتقن منذ زمن بعيد فن الإقناع : ووليس هناك اليوم خطيب واحد لا يستعين بها (حتى الفوضويون يتحدثون بشكل أخلاقي لكي يقنعونا. بل إنهم يسمون أنفسهم في نهاية المطاف «الصالحون العادلون».) لقد أثبتت الأخلاق على مر العصور، منذ بدأ الإنسان يتكلم على وجه الأرض ويُقنع، أنها سيدة الإغراء — أنها، وهذا هو ما يهمنا كفلاسفة، **هي الساحرة التي تمسخ الفلاسفة**. فما سبب فشل كل ما بناه الفلاسفة في

أوربا منذ أفلاطون ؟ ما سبب كون كل ما ظلوا يعتقدونه خالدا بكل جدية وصدق مهددا بالانهيار، إن لم يكن قد انهار بالفعل ؟ وا أسفاه ! كم هو خاطئ ذلك الجواب الجاهز الذي يقدم على هذا السؤال : «لأنهم أهملوا قبول الفرضية، فحص الأساس، انتقاد العقل.» — ذلك هو الجواب الذي قدمه كانط، جواب لم يضعنا نحن الفلاسفة على أرض أكثر صلابة وأقل خداعا ! (أليس من الغريب أن نطلب من أداة أن تنتقد كمالها وأهليتها ؟ ومن العقل «أ، يعرف» قيمته، وقوته وحدوده ؟ أليس ذلك شيئا غير معقول ؟) كان من المفروض أن يكون الجواب الحقيقي، على العكس، هو بأن الفلاسفة كلهم قد شيدوا صروحهم تحت إغراء الأخلاق، كانط والفلاسفة الآخرين، وبأنهم كانوا يتظاهرون بالاهتمام باليقين، ب«الحقيقة»، بينما اهتمامهم الحقيقي كان منصبا على **صروح أخلاقية شامخة** : نستخدم مرة أخرى الكلام البريء لكانط الذي كان يعتبر مهمته والعمل الذي عليه القيام به، وهي مهمة «لا تلفت الأنظار، ولكنها ليست غير ذات قيمة»، «هي تمهيد وتقوية التربة التي ستشيد عليها تلك الصروح الأخلاقية الشامخة» (نقد العقل الخالص، ج2، ص 257). ولكنه لم ينجح في ذلك، مع الأسف ! — يجب أن نقول هذا اليوم. بتلك النوايا المفعمة بالحماس كان كانط الابن الحقيقي قرنه الذي يمكننا أن نسميه، أكثر من أي قرن آخر، قرن الحماس : وقد ظل ابن هذا القرن، لحسن حظه، فيما يخص الجانب الثمين فيه (الشهوانية التي أدخلها في نظرية المعرفة مثلا). هو كذلك عضته تلك الرتيلاء الأخلاقية التي هي روسو، وكان هو كذلك يشعر بعبء التعصب الأخلاقي يثقل روحه، تعصب كلن أحد تلامذة روسو يعتقد أنه هو مطبقه ويدعي ذلك، أعني روبسبيير، الذي كان يريد «إقامة إمبراطورية الحكمة، والعدل والفضيلة على الأرض» (خطاب ألقاه يوم 7 يونيو 1794). والذي أشرب قلبه مثل هذا التعصب الفرنسي لم يكن ليتطرق لذلك بطريقة أقل فرنسية، وأكثر عمقا، وصلابة، وألمانية — إذا كان اليوم كذلك مسموحا لنا باستخدام كلمة «ألماني» بهذا المعنى — مما فعله كانط : لكي يفسح المجال ل«الإمبراطورية الأخلاقية» التي يريدها كان عليه إضافة عالم لا يمكن البرهنة عليه، عالم «ماورائي» معقول، — وهو ما تطلب منه نقد العقل الخالص ! أي : لم

يكن ليحتاجه لو لم يكن هناك ذلك الشيء الذي حظي باهتمامه أكثر من غيره — جعل «العالم الأخلاقي» منيعا، بل غير قابل للإدراك من طرف العقل —، لأنه كان يعرف مدى هشاشة النظام الأخلاقي أمام العقل ! وأمام الطبيعة والتاريخ، أمام لاأخلاقية الطبيعة والتاريخ، كان كانط منذ البداية، كأي ألماني طيب، متشائما؛ كان مؤمنا بالأخلاق، ليس لأن الطبيعة والتاريخ قد برهنا عليها، بل رغم كون الطبيعة والتاريخ يناقضانها باستمرار. ولكي نفهم «رغم» هاته ربما ينفعنا أن نتذكر شيئا قريبا من هذا لدى لوثر، لدى هذا المتشائم الكبير بدوره، الذي أرد يوما، بجرأته المعهودة، أن يجعل أصدقاءه يشعرون بذلك : «لو استطعنا أن ندرك عن طريق العقل كم هو عادل ورحيم هذا الرب الذي يبدي هذا القدر الكبير من الغضب والأذى، ففي أي شيء سيفيدنا الإيمان ؟» لاشيء على الإطلاق أثر في النفس الألمانية تأثيرا كبيرا، و«أغراها» أيما إغراء، أكثر من هذا الاستنتاج، الخطير، الذي يعتبر بالنسبة لكل لاتيني إثما يرتكب في حق العقل : أعتقد أن هذا غير معقول (credo quia absurdum est). معه يدخل المنطق الألماني لأول مرة في تاريخ العقيدة المسيحية؛ ولكننا اليوم، بعد ألف سنة، نحن ألمان الوقت الحاضر، الذين أتينا متأخرين بكل الاعتبارات — نستشعر شيئا من الحقيقة، إمكانية معرفة الحقيقة، في المبدأ الأساسي للجدل، الذي مكن به هيجل العقل الألماني حديثا من التفوق على أوربا — «التناقض هو الذي يحرك العالم، كل الأشياء تناقض نفسها»ـ : لأننا متشائمون حتى في المنطق.

4

ولكن الأحكام المنطقية ليست هي الأحكام الأدنى والأساسية التي يجب أن تكون موضع شجاعة شكنا:الثقة في العقل التي لا تنفصل عن صدقية هاته الأحكام، بما هي ثقة، ظاهرة أخلاقية... رهل يجب على التشاؤم الألماني أن يقوم بخطوة أخيرة ؟ هل يكون عليه أن يضع، وبطريقة جريئة، إيمانه مقابل لامعقوليته؟ وإذا كان هذا الكتاب، حتى في الأخلاق، حتى بعيدا عن ثقته في الأخلاق، كتابا تشاؤميا — أفلا يكون بذلك نفسه كتابا ألمانيا ؟ لأنه يمثل تناقضا ولا يخشى هذا التناقض : نكرس فيه ثقة في الأخلاق — لماذا ؟ بسبب أخلاقيتنا!

أم كيف سنسمي هذا الذي يحدث في هذا الكتاب، الذي يحدث فينا ؟ — فنحن نفضل عبارات أكثر بساطة. مما لا شك فيه أننا نحن كذلك يخاطبنا أمر «يجب عليك»، نحن كذلك نخضع لقانون صارم، — وهذه هي آخر أخلاق تصبح معقولة بالنسبة لنا، آخر أخلاق نعيشها نحن كذلك؛ إذا كان وعينا يتجلى في شيء ففي هذا : لأننا لا نريد العودة على ما نعتبره متجاوزا وقديما، شيء لا نعتبره جديرا بالإيمان، مهما يكن الاسم الذي نطلقه عليه : الإله، الفضيلة، الحقيقة، العدل، محبة القريب؛ لا نريد أن نفتح سبيلا مزيفة تقودنا على مثل أعلى قديم؛ إننا نبغض كل ما يريد فينا أن يلعب دور الوسيط والمذيب للخلافات؛ نحن أعداء الإيمان والمسيحية الحاليين؛ أعداء التسويات التي تقوم بها الرومانسية وأعداء العقل الوطني المتطرف؛ أعداء الرقة الفنية، وقلة الوعي الفنية، التي تريد إقناعنا بأنه علينا أن نعبد ما لم نعد نؤمن به — لأننا فنانون ؛ — باختصار، نحن أعداء الأنثوية الأوربية (أو المثالية، إذا كنتم تفضلون أن أعبر بهاته الكلمة) التي «تأخذنا نحو الأعالي» على الدوام وبذلك نفسه «تنحدر» بنا على الدوام. وباعتبارنا نتحلى بهذا الوعي فإننا نعتقد أننا نمت بصلة للاستقامة والتقوى الألمانيتين القديمتين، وإن لم نكن على يقين بأننا أحفادها، نحن اللاأخلاقيون غير الأتقياء، بل إننا نعتقد أننا ورثة تلك الاستقامة وذلك الورع، بمعنى من المعاني، كمطبقين لإرادتهما الداخلية، إرادة تشاؤمية، مثلما بينت، لا تخشى أن تجحد نفسها، لأنها تجحد بمرح. فينا يبلغ كماله، إن شئتم التعبير عن ذلك بصيغة، التجاوز الذاتي للأخلاق.

5

— لماذا يجب علينا، في نهاية المطاف، أن نقول بصوت عال وبحماس من نحن، وما نريده وما لا نريده ؟ لنتأمل هذا الأمر مليا وبهدوء، لننظر إليه من بعيد وبعمق، لنتحدث عنه كما يجب أن نتحدث عنه فيما بيننا، بصوت منخفض بحيث لا يسمعه الناس، بحيث لا يسمعنا الناس ! لنتحدث عنه مليا قبل كل ذلك... جاءت هاته المقدمة متأخرة، ولكن ليس بعد فوات الأوان؛ فخمسة أو

ستة أعوام ليست بالمدة الطويلة ! هذا الكتاب وهاته القضية ليسا على عجلة من أمرهما؛ ونحن، علاوة على ذلك، أصدقاء التريث، أنا وكتابي. لم أكن فقيه لغة عبثا، وربما لا زلت كذلك حتى الآن. فقيه اللغة يعني سيد القراءة المتأنية : بل ينتهي به الأمر إلى الكتابة بتأن. ولم يعد هذا ديدن عادتي فقط، بل ديدن ذوقي كذلك، — ذوق ماكر على ما يبدو ؟ ألا أكتب أبدا إلا ما يثير اليأس لدى الرجال «المتعجلين». لأن فقه اللغة هو ذلك الفن المبجل الذي يتطلب من معجبيه شيئا واحدا قبل سواه : الوقوف جانبا، عدم التسرع، التزام الصمت، التأني، — التعامل مع الكلمة فن كفن الصياغة، فن يتطلب عملا دقيقا ورقيقا، ولكنه لن يحقق المرجو منه ما لم يقرن ذلك بالتأني. وهذا هو ما يجعله اليوم ضروريا أكثر من أي وقت مضى، ويجعله أكثر إغراء وفتنة، في عصر «العمل» : أعني عصر العجلة، والتسرع غير اللائق الذي يحتدم ويريد «الانتهاء» بسرعة من كل شيء، حتى من الكتاب، جديدا كان أم حديثا. — وهذا الفن لا ينتهي بسهولة من أي شيء كان، فهو يعلمان أن نقرأ جيدا، أي بتأن، وبعمق، ومراعاة وتيقظ، بسلامة طوية، بأبواب مفتوحة، بأنامل وعيون رقيقة... أيها الأصدقاء الصبورون، كل ما يتمناه هذا الكتاب هم قراء وفقهاء لغة جيدين : تعلموا أن تقرؤوني جيدا !

روتا، على مقربة من جنوة، خريف 1886.



الكتاب الأول

1

العقل اللاحق. — كل الأشياء التي تعيش طويلا تصبح شيئا فشيئا مشبعة بالعقل إلى حد يصبح معه الأصل الذي يربطها باللامعقول مستبعدا. ألا نكاد نشعر على الدوام بتاريخ أصل ما بأنه متناقض ومدنِّس للمقدسات ؟ ألا يكون المؤرخ الجيد في تناقض مستمر مع الوسط الذي يعيش فيه ؟

2

أحكام العلماء المسبقة. — يكون العلماء على حق يحكمون بأن الناس على مر العصور قد اعتقدوا أنهم عرفوا الخير من الشر. أما اعتقاد العلماء بأن ما نعلمه اليوم عن الخير والشر أفضل مما عرفه الناس في كل العصور فهو حكم مسبق.

3

لكل شيء أوانه. — لما كان الإنسان يحدد جنس الأشياء لم يكن يعتقد أنه يلعب، بل أنه يوسع مداركه : — ولم يعترف بفداحة الخطأ الذي ارتكبه إلا لاحقا، ولا يعترف بذلك الآن اعترافا كاملا. كما أنه ربط كل الموجودات بالأخلاق، مضفيا على العالم دلالة أخلاقية. ولن يكون لكل هذا يوما من القيمة قدر ما للاعتقاد بأن الشمس ذكر أو أنثى.

4

ضد لاتناغم المجالات المزعوم. — علينا أن نزيل من العالم هذا الكم الهائل من السمو المزيف، لأنه يتناقض مع العدالة التي قد تطالب بها الأشياء ! ولكن يجب ألا نطمح إلى تصور العالم بتناغم أقل من الذي يعرفه الآن.

5

لا تنكروا الجميل. — أفضل نتيجة حققتها الإنسانية حتى اليوم هي كوننا لم نعد نخشى الحيوانات المفترسة، والهمجيين، والآلهة وأحلامنا.

6

المشعوذ ونقيضه. — الشيء الذي يدهشنا في العلم نقيض ذلك الذي يدهشنا في فن المشعوذ. فهذا الأخير يريد إقناعنا بأنه يرى سببية بسيطة هناك حيث توجد سببية معقدة في الواقع. أما العلم فيجبرنا على التخلي عن الإيمان بالسببية البسيطة، في الحالات التي يبدو فيها كل شيء بسيطا للغاية ونكون فيها ضحايا الظاهر. الأشياء «البسيطة» شديدة التعقيد، — إنها مدهشة.

7

تعديل الإحساس بالفضاء. — هل الأشياء الحقيقية هي التي ساهمت بحظ أوفر في سعادة الإنسان أم الأشياء المتخيلة ؟ الشيء الأكيد هو أننا لم ندرك الحجم الحقيقي للمسافة الفاصلة بين السعادة الغامرة والتعاسة المضنية إلا بواسطة الأشياء المتخيلة. وبالتالي لا يفتأ — هذا النوع من الشعور بالمسافة يصبح، تحت تأثير العلم، أصغر فأصغر : مثلما علمنا العلم أن نشعر بأن الأرض صغيرة وبأن المجموعة الشمسية مجرد نقطة.

8

تغير الصورة. — معاناة بلا أمل، تخيلا ملتبس، انخطافا سماويا، — تلك هي المعايير الثلاثة التي على أساسها يقسم رفائيل الإنسانية. لم نعد نحن ننظر إلى العالم بهذا الشكل — ولن يكون لرفائيل نفسه الحق في النظر إليه بهذا الشكل : سيرى فيه بأم عينيه صورة جديدة.

9

فكرة أخلاقية العادات. — لو قارنا طريقة عيشنا مع الطريقة التي عاشت بها الإنسانية طيلة آلاف السنين للاحظنا بأننا نعيش عصرا يتميز باللاأخلاقية : لقد ضعفت سلطة العادات بشكل كبير وأصبح المعنى الأخلاقي دقيقا وضئيلا إلى درجة أنه يمكننا اعتباره قد تبخر. لذلك يصعب علينا، نحن المتأخرين، أن ندرك الأفكار الموجهة التي كانت وراء نشوء الأخلاق، وحتى إن تمكنا من اكتشافها فإننا ننفر من الإعلان عنها بسبب فظاظتها ! ما أشد افتراءها على الأخلاقية ! إليكم القضية الأولى : ما الأخلاقية سوى (أي هي قبل كل شيء، لا غير) التمسك بالعادات، أيا تكن تلك العادات؛ والحالة أن العادات هي الطريقة المعتادة في الفعل وإصدار الأحكام. حيثما لا تكون للعادات سلطة لا تكون هناك أخلاقية؛ وكلما قل تحديد العادات للوجود كلما صغرت دائرة الأخلاقية. الرجل الحر لاأخلاقي بما أنه يريد أن يكون هو المتحكم — في كل أموره وليس العادة المتبعة، أو التقليد : في كل الدول البدائية التي عرفتها الإنسانية كان «الشر» مرادفا لـ«فردي»، «حر»، «اعتباطي»، «غير مألوف»، «غير متوقع»، «غير منتظر». في تلك الدول البدائية، ووفقا لنفس التقييم : إذا قام شخص بعمل ما، ليس استجابة للتقاليد، وإنما لدوافع أخرى (بسبب النفع الذي تعود به على الفرد مثلا)، أو حتى وفق الأسباب التي كانت وراء نشوء العادة، فإنه توصف بكونه لاأخلاقيا ويعتبر كذلك، حتى من طرف الشخص الذي قام به : لأنه لم يفعل ذلك في إطار الخضوع للتقاليد. فما التقاليد ؟ سلطة عليا نخضع لها، ليس لكونها تأمرنا بما هو مفيد لنا، بل لأنها تأمر. ــ بأي شيء يتميز الإحساس بالتقاليد عن الإحساس العام بالخوف ؟ إنه الخوف من ذكاء أعلى يصدر الأوامر، قوة غامضة غير محددة المعالم، شيء أكثر من كونه مجرد شيء شخصي، ــ هناك شيء من الخرافة في هذا الخوف. في البداية كانت التربية، والعلاج الطبي، والزواج، وفن التطبيب، والزراعة، والحرب، والكلام والصمت، والعلاقات بين الناس والعلاقات مع الآلهة، خاضعة للأخلاقية : كانت تتطلب من الشخص مراعاة وصفات محددة، دون التفكير في نفسه كفرد. في الأزمنة البدائية كان كل شيء يتوقف على العادات، والذي يريد أن يسمو على العادات يجب عليه أن يصبح مشرعا، شافيا وما يشبه نصف إله :

أي يكون عليه أن يوجد العادات، ـــ وهو شيء مقزز وخطير ! من هو الإنسان الأخلاقي أكثر ؟ أولا، هو الذي يقوم بكل شيء وفق القانون في أغلب الأحيان؛ الذي يضفي، كالبراهماني، روح القانون على أصغر جزئية في الزمن، بحيث أن عقله يحاول جاهدا بلا كلل أن يعثر على فرص لتطبيق القانون. ثانيا، الذي يطبق القانون حتى في أصعب الحالات. الأخلاقي أكثر هو الذي يضحي كثيرا من أجل العادات : فما هي أكبر التضحيات ؟ بإجابتنا على هذا السؤال نتمكن من بلورة أصناف عديدة من الأخلاق : ولكن الفراق الأساسي بينها يظل هو ما يفرق بين أخلاقية تطبيق القانون في الغالب وبين أخلاقية تطبيقه الأكثر صعوبة. يجب ألا نخطئ بخصوص دوافع تلك الأخلاق التي تتطلب من الناس، كدليل على أخلاقيتهم، تطبيق عادة ما في أصعب الحالات ! لا تتم المطالبة بالانتصار على الذات بسبب الفوائد التي تعود بها على الفرد، بل لتبدو العادات والتقاليد مهيمنة، رغم كل المحاولات الخجولة المضادة وكل الامتيازات الفردية : على الفرد أن يضحي بنفسه — هذا ما تتطلبه أخلاقية العادات. أما هؤلاء الأخلاقيون الذين يوصون الفرد، كما فعل خلفاء سقراط، بالاعتدال والتحكم في الذات، باعتبارهما أفضل امتيازاته، ومفتاح سعادته الشخصية، فهم مجرد استثناء — وإن بدا لنا الأمر بخلاف ذلك فلأننا نشأنا تحت تأثيرهم : إنهم يمضون في طريق جديدة يستهجنها كل ممثلي أخلاقية العادات، — وبما أنهم لاأخلاقيون، أي خبثاء بالمعنى العميق، فإنهم يخرجون أنفسهم من المجتمع . بتلك الطريقة نفسها كان الروماني المنتمي للمدرسة القديمة يعتبر كل مسيحي «يسعى لخلاصه قبل أي شيء آخر» إنسانا خبيثا. — حيثما نجد جماعة من البشر، وبالتالي أخلاقية العادات، تكون فكرة كون العقاب المترتب على مخالفة العادات ينزل بالجماعة كلها : وهو عقاب سماوي، عقاب يصعب على العقل إدراك تجلياته وحدوده، كما أن هذا العقل يقوم بتضخيمها بسبب الخوف الخرافي المسيطر عليه. قد تجبر الجماعة الفرد على تعويض من لحقه الضرر، إما فرد آخر أو الجماعة نفسها، نتيجة الفعل الذي قام به، كما يمكنها الانتقام من الفرد لأنها تعتبره سببا ـــ كنتيجة لما اقترفت يداه ـــ للغضب الرباني الذي سلط على الجماعة، ـــ ولكنها تعتبر ذنب الفرد كذنبها هي، وبالتالي تتحمل العقاب الذي ينجم عنه كما على أنه عقاب لها : «لقد ضعفت

سلطة العادات فتجرأ الناس على ارتكاب مثل هذه الأفعال»، هكذا يقول كل واحد في نفسه وهو يئن. العمل والتفكير الفرديان يجعلان الفرد يرتعش؛ من المستحيل أن نعرف قدر المعاناة الذي تحملته العقول النادرة، المختارة، المندفعة، عبر العصور بسبب اعتبارها خبيثة وخطيرة، بل باعتبارها هي لنفسها كذلك. لقد كانت كل أشكال الأصالة، في ظل هيمنة أخلاقية العادات، تشعر بتأنيب الضمير، وهو ما جعل أفق أفضلها يصبح معتما أكثر مما ينبغي.

10

حركة متبادلة بين معنى الأخلاقية ومعنى السببية. — بقدر ما يتسع معنى السببية يتضاءل مجال الأخلاقية : لأنه بمجرد ما ندرك الآثار الضرورية ونتمكن من تصورها معزولة عن أية صدفة، عن كل التبعات العرضية (post hoc)؛ فإننا نتمكن في نفس الوقت من تدمير عدد هائل من السببيات الوهمية، التي ظل الناس يعتقدون، حتى الآن، بأنها هي أساس الأخلاق، ــ العالم الحقيقي اصغر بكثير من العالم المتخيل، ــ وهكذا تم في كل مرة القضاء في هذا العالم على جزء من الخشية ومن الإكراه، وجزء من السلطة التي تتمتع بها العادات : لقد أصيبت الأخلاقية كلها بخسارة. وعلى الذي يريد، على العكس، أن يزيد من حجم الأخلاقية أن يعرف كيف يحول دون أن تصبح النجاحات خاضعة للتحكم.

11

الأخلاق الشعبية والطب الشعبي. — تخضع الأخلاق التي تسود جماعة ما لعمل مستمر يشارك فيه كل الناس : كلهم يريدون أن يضيفوا للأمثلة السابقة مثالا آخر يبين العلاقة المزعومة بين العلة والمعلول، بين الجريمة والعقاب؛ إنهم يساهمون بذلك في تأكيد صحة تلك العلاقة ويزيدون من حجم الإيمان الذي يضاف إليها : البعض منهم يبدون ملاحظات حول الأفعال وتبعاتها، ويتخرجون من ذلك بخلاصات وقوانين : وقليلون هم من يستاؤون من ذلك هن وهناك

ويضعفون إيمان الناس بهذا الأمر أو ذاك. — ولكنهم جميعا يتشابهون في الطريقة الفظة وغير العلمية التي يتسم بها ما يقومون به؛ سواء تعلق الأمر بإعطاء الأمثلة، أو إبداء الملاحظات أو التحفظات، أو بالبرهنة، أو الإثبات، أو صياغة قانون ما أو دحضه، فإن كل نلك المواد تكون غير ذات قيمة، ويعبرون عنها بتعابير غير ذات قيمة، كالمواد والتعابير التي يستخدما الطب الشعبي. الطب الشعبي والأخلاق الشعبية من طينة واحدة ولا يجب أن يتم تقييمهما، كما هو شائع، بطريقتين مختلفتين : فكلاهما عِلمان خطيران.

12

النتيجة كعامل مساعد. — لم يكن الناس فيما مضى يعتبرون نجاح عمل ما نتيجة ترتبت عن ذلك العمل بل عاملا مساعدا مصدره الإله. هل هناك التباس أشد من هذا ! كان على الناس أن يبذلوا قصارى جهودهم بطريقة تختلف من القيام بالفعل إلى توقع النجاح، بممارسات ووسائل مختلفة تماما!

13

من أجل تربية جديدة للنوع البشري. — ساهموا في إنجاز عمل أيها المساعدون التقاليديون : ساعدوا العالم على التخلص من فكرة العقاب التي اجتاحت كل المناطق ! إنها أخطر نبتة خبيثة على الإطلاق ! لقد تم إدخال هاته الفكرة ليس فقط في طريقة تصرفنا — وأي شيء أوخم وأكثر مخالفة للصواب من تفسير العلة والمعلول على أنهما السبب والعقاب ! — بل لقد فعلوا ما هو أدهى من ذلك، لقد حرموا الأحداث غير المتوقعة من براءتها باستخدامهم ذلك الفن المشئوم الذي هو فن تأويل الأحداث على أنها عقاب. بل لقد دفعوا بتلك الحماقة إلى حد دعوتنا لأن نرى في الوجود نفسه عقابا. — قد نقول بأن الخيال الجامح لسجان وجلاد هو الذي أشرف حتى الآن على تربية الإنسانية!

14

دلالة الجنون في تاريخ الإنسانية. — إذا كانت أفكار جديدة ومختلفة، وملاحظات وأحكام قيمة متناقضة لم تفتأ تظهر رغم نير «أخلاقية العادات»، الذي رزحت تحته كل المجتمعات الإنسانية، طيلة آلاف السنين قبل الميلاد، وحتى يومنا هذا (إننا نعيش في عالم استثنائي صغير وفي المنطقة الرديئة منه)، فإن ظهورها لم يكن ممكنا لو لم تحظ بجواز مرور رهيب : الجنون هو الذي مهد الطريق للفكرة الجديدة في كل مكان تقريبا، وتخلص من العادة، ومن الخرافة المبجلة. هل فهمتم لماذا تطلب الأمر المساعدة التي قدمها الجنون ؟ مساعدة شيء مرعب وجم، من حيث الصوت والموقف، مثل النزوات الشيطانية للبحر والعاصفة، وبالتالي جدير مثلهما بأن يخشاه الناس ويحترموه ؟ شيء يحمل، كتشنجات المصروع وزَبَدِه، دلالة ظاهرة لتجلي شيء لاإرادي ؟ شيء بدا أنه يطبع المعتوه بطابع معبود كان هو قناعَه والناطق باسمه ؟ شيء ألهم حتى مبتكر الفكرة الجديدة تبجيل نفسه وخشيتها وليس الندم، ودفعه لأن يكون النبي الداعي لهاته الفكرة والمضحي من أجلها ؟ — بينما يلمح الناس اليوم إلى أن العبقرية تمتزج بالجنون عوض ذرة من الرشاد نجد الناس فيما مضى أقرب إلى فكرة اقتران الجنون بالعبقرية والحكمة، — بشيء «رباني»، كما كانوا يهمسون في آذان بعضهم البعض. بل كانوا يعبرون عن ذلك بوضوح : «لقد كان الجنون وراء كل النعم التي تمتعت بها اليونان»، قال أفلاطون والناس في عصره. لنتقدم خطوة أخرى : كل هؤلاء الرجال المتفوقين المدفوعين بدافع لا يقاوم إلى التحرر من نير الأخلاقية وإعلان قوانين جديدة لا يبقى أمامهم، حين لا يكونون مجانين بالفعل، إلا أن يصيروا مجانين حقا أو أن يتظاهروا بالجنون. — ينطبق هذا على كل المجددين في جميع الميادين، وليس فقط على المجددين للمؤسسات الكهنوتية والسياسية : — حتى مبتكر البحر الشعري وصف بالجنون (وقد ظل جنون الشعراء، حتى في العصور المعتدلة، أمرا متفقا عليه : وقد استغله الشاعر صولون Solon حين ألهب حماس الأثينيين لاسترجاع سالامين.) «كيف يجعل المرء من نفسه مجنون حين لا يكون مجنونا أو لا يملك شجاعة التظاهر بكونه كذلك ؟» كل الرجال البارزين في الحضارة القديمة تقريبا قد فكروا بهذا المنطق المرعب؛ وقد تم الاحتفاظ بعقيدة سرية أنشئت

لهذا الغرض، قوامها الحيل والتغذية، إلى جانب شعور ببراءة ذلك القصد وذلك الحلم، بل بقداستهما. والطرق التي على المرء اتباعها ليصبح «طبيبا» في الهند، وقديسا لدى المسيحيين في القرون الوسطى، و«أنچيكوك» لدى سكان جزيرة غروينلاند، و«پاجي» لدى البرازيليين، تتشابه عموما؛ المبالغة في الصوم، العفة، التنسك في الصحراء أو في الجبال أو في أعلى عمود، أو «الإقامة في تجويف صفصافة على ضفة بحيرة» وعدم التفكير إلا في ما قد يدخل العقل في عالم الانخطاف والفوضى. من سيجرؤ على النظر إلى جحيم الضيق الأخلاقي، المفعم بالمرارة والذي لا طائل من ورائه، الذي ربما يكون قد هلك فيه أخصب الرجال فكرا عبر كل العصور ! من سيجرؤ على الاستماع لتنهدات المتوحدين والتائهين : «واها ! مني علي بالجنون أيتها القوى الربانية ! الجنون لكي أتمكن في نهاية المطاف من الإيمان بنفسي ! أصيبيني بالهذيان والتشنجات، واجعلي وقتي ينقسم بين الوضوح والظلام الفجائيين، أرعبيني بارتعاشات واحتدامات لن يطيقها أي من بني البشر، بثي من حولي الضجيج والأشباح ! دعيني أصيح وأئن وأزحف كالحيوان : شريطة أن يتحقق لي بذلك الإيمان بنفسي ! الشك يتأكلني، لقد قتلت القانون وإني أشمئز منه اشمئزاز الأحياء من جثة الميت ؛ إن لم أكن فوق القانون فأنا أكثر المنبوذين من بين المنبوذين. من أين أتاني هذا العقل الجديد الذي أصبح لي إن لم يكن منك ؟ أظهري لي أنني ملك يدك أيتها القوى ! — الجنون وحده يبين لي ذلك.» وغالبا ما بلغ هذا الاحتدام هدفه : في الوقت الذي كانت فيه المسيحية تبين عن خصوبتها بإكثارها من أعداد القديسين والنساك، معتقدة أنها بذلك تفرض نفسها، كانت هناك في مدينة القدس مؤسسات للمجانين تؤوي القديسين المنكوبين، الذين ضحوا بآخر ذرة من عقلهم.

15

أقدم وسائل المواساة. — المرتبة الأولى : يرى المرء في كل ضائقة، أو كارثة تحل به، شيئا يدفعه لجعل شخص آخر، أيا يكن، يعاني، — بهذا يتنبه للقوة التي لا يزال يتمتع بها، وهو أمر يواسيه. المرتبة الثانية : يرى المرء في كل ضائقة

أو كارثة عقابا له، أي تكفيرا عما اقترفت يداه ووسيلة للإفلات من السحر السيئ التأثير الذي قد يمارسه عليه انحياز حقيقي أو وهمي للقدر. إذا تنبه لهذا الامتياز الذي تحققه المصيبة التي تحل به فإنه لن يرى جعل شخص آخر يعاني من أجل ذلك أمرا ضروريا، ـ سيتخلى عن ذلك النوع من الترضية لأنه قد حصل على نوع آخر.

16

أول مبادئ الحضارة. — نجد لدى الشعوب الهمجية عادات تريد أن تكون بمثابة عادة عامة : إنها قرارات شاقة، وغير ضرورية في الحقيقة (كالعادة المتفشية لدى طائفة كامتشاندال Kamtchandales والتي تقضي بعدم استخدام السكين لإزالة الثلج الملتصق بالحذاء، وعدم شك الفحم بالسكين، وعدم وضع الحديد في النار — والذي يخالف هاته العادات يموت!) — وهاته القرارات تبقي على فكرة العادة حية في الأذهان، وكذا على ضرورة الخضوع لها باستمرار : وذلك لتعزيز المبدأ الكبير الذي تقوم عليه الحضارة، وهو : أن تكون هناك عادة كيفما كانت أفضل من ألا تكون هناك عادات مطلقا.

17

الطبيعة خيرة وشريرة. — بدأ الناس بإحلال نفوسهم محل الطبيعة : كانوا يرون أنفسهم في كل مكان، يرون أمثالهم، أي يرون مزاجهم الخبيث والنَّزَوي، متخفيا تحت الغيوم، والعواصف، والحيوانات المفترسة، والأشجار والنباتات : عند ذلك ابتكروا «الطبيعة الشريرة». ثم أتى على الإنسان حين من الدهر أراد فيه أن يتميز عن الطبيعة، مرحلة روسو : تعب الناس من بعضهم البعض إلى حد ظهرت معه الرغبة في امتلاك زاوية من العالم لم يدنسها بؤس الإنسان : وهكذا تم ابتكار «الطبيعة الخيرة».

18

أخلاق المعاناة الطوعية. — ما هي أسمى متعة يجدها الرجال الذين يخوضون الحرب، في هاته الجماعة الصغيرة التي لا يفتأ الخطر يهددها، والتي تسود فيها أشد الأخلاقيات صرامة ؟ أقصد الأقوياء، الانتقاميين، الحقودين، الغادرين، المرتابين، المستعدين للأسوأ، الذين صيرهم الحرمان والأخلاق قساة؟ — متعة القسوة. كما أن هؤلاء، في مثل هاته الأوضاع، يعتبرون ابتكارهم لضروب القسوة وتعطشهم لها فضيلة. لدى مشاهدة الجماعة الأفعال التي يقترفها الرجل القاسي تقوم بإعادة ابتكار نفسها وتتخلص بالمرة من قسوة الخوف ومن اتخاذ الحيطة باستمرار. القسوة هي أحد أقدم الأشياء التي تدخل السرور على الإنسانية. وبالتالي نعتقد بأن الآلهة نفسها تتسلى وتفرح حين ترى مشاهد القسوة، — بحيث تظهر تدخل عالم الناس فكرة معنى المعاناة الطوعية والعذاب الاختياري وقيمتهما العليا. وشيئا فشيئا تنشئ العادة داخل الجماعة ممارسة موافقة لهاته الفكرة : يحترس الناس منذ ذلك الحين من كل رفاهية وافرة وتعود لهم الثقة في نفوسهم كلما دخلوا في معاناة كبيرة؛ يقولون لأنفسهم بأن الآلهة قد تعاكسهم إذا كانوا سعداء وقد تحالفهم إذا كانوا تعساء — قد تكون معاكسة وليس مثيرة للشفقة ! لأن الشفقة تعتبر ممقوتة وغير جديرة بنفس قوية ومرعِبة؛ — تكون الآلهة محالفة لهم لأن مشهد الشقاوة يسليها ويدخل عليها السرور : فالقسوة تبعث في النفس لذة الإحساس بالقوة. هكذا تدخل في مفهوم «الرجل الأخلاقي»، مثلما هو موجود في الجماعة، فضيلة المعاناة المتكررة، والحرمان، والحياة الشاقة، وقهر النفس بقسوة، — ليس كوسيلة، أكرر هذا مرة أخرى، للتربية، وضبط النفس، والسعي للسعادة الشخصية، — ولكن كفضيلة تجعل الآلهة الشريرة تقف في صف الجماعة، لأنها تجعل باستمرار دخان القرابين التكفيرية يتصاعد إليها. كل قادة الشعوب الروحيين الذين تواطئوا على إدخال الإنسانية في وحل العادات البطيء والمخيف دق احتاجوا، علاوة على الجنون، لتعذيب أنفسهم طوعا ليكونوا جديرين بالثقة، — في نظر أنفسهم أولا وقبل كل شيء ! كلما سلك عقلهم دروبا جديدة، وبالتالي يتعذب بفعل

الندم والخوف، كلما تصارعوا بقسوة مع أنفسهم، مع رغبتهم وعافيتهم، — وكأنهم يفعلون ذلك ليقدموا للمعبود أمورا تفرحه تعويضا له عن إغضابهم له بتخليهم عن بعض العادات ومحاربتهم لها من أجل أهداف جديدة. ومع هذا لا يجب أن نتخيل، بكثير من المجاملة، بأننا قد تخلصنا في أيامنا هاته من منطق الإحساس هذا ! وبأن الأبطال يتساءلون بشأن هذا في قرارة نفوسهم ! فكل خطوة تم خطوها إلى الأمام، في مجال الفكر الحر والحياة الفردية، كان ثمنها، في كل العصور، عذابا فكريا وجسديا : ليس التقدم إلى الأمام فقط، لا ! فكل شكل من أشكال السير، والحركة، والتغيير قد تطلب سقوط عدد لا يحصى من شهداء العذاب الذين كانوا، خلال آلاف السنين، يبحثون عن السبل ويقيمون الأسس، والذين لا نفكر فيهم حين نتحدث عن تلك الحقبة الزمنية القصيرة جدا من عمر الإنسانية، والتي نسميها «تاريخ العالم»؛ وحتى في مجال تاريخ العالم الذي ليس، في مجمله، سوى ذلك الضجيج الذي نقوم به حول آخر المستجدات، ليس هناك موضوع أكثر أهمية من موضوع تلك التراجيديا القديمة التي هي تراجيديا شهداء العذاب الذين أرادوا جعل المستنقع يتحرك. ما أدت الإنسانية ثمنا غاليا مقابل شيء كالذي أدته مقابل هذا القدر الضئيل من العقل الإنساني ومن الإحساس بالحرية اللذين نفخر بهما اليوم. وبسبب هذا الفخر يكاد يستحيل علينا اليوم إدراك معنى ذلك الحيز الزمني الكبير الذي هيمنت فيه «أخلاقية العادات» والذي يأتي قبل «تاريخ العالم»، حقبة حقيقية وحاسمة، ذات أهمية تاريخية بالغة، رسخت طبع الإنسانية، حقبة كانت المعاناة فيها فضيلة، والقسوة فضيلة، والرياء فضيلة، والانتقام فضيلة، وجحود العقل فضيلة، بينما كانت الرفاهية خطرا، والحث على الشفقة شيئا مخجلا، والعمل شيئا مخجلا، والجنون شيئا ربانيا، والتغيير شيئا لاأخلاقيا، ويحمل في طياته مخاطر كثيرة ! هل تتخيلون بأن كل هذا قد تحول إلى شيء آخر، وبأن الإنسانية قد غيرت طبعها بفعل الأمر الواقع ؟ واها! أيها العارفون بقلب الإنسان، تعلموا كيف تعرفون أنفسكم معرفة أفضل!

19

الأخلاق والتبليد. — تمثل التقاليد تجارب السابقين علينا بشأن ما كانوا يعتبرونه نافعا وضارا، — ولن الشعور بالعادات (بالأخلاقية) لا يمت بصلة إلى تلك التجارب، بل بقِدم العادات، وقدسيتها، وكونها لا تقبل الجدل. هذا هو ما يجعل ذلك الشعور يقف في وجه رغبة الناس في القيام بتجارب جديدة وتصحيح العادات : وهو ما يعني أن الأخلاقية تعارض قيام عادات جديدة تكون أفضل من سابقتها : إنها تُبَلد الناس.

20

الفاعلون الأحرار والمفكرون الأحرار. — الفاعلون الأحرار يلحقون الضرر بالمفكرين الأحرار لأن الناس يعانون بشكل واضح من عواقب الأفعال أكثر مما يعانون من عواقب الأفكار. ولكن إذا اعتبرنا أن هؤلاء وأُلئك معا يبحثون عما يرضيهم، وبأن المفكرين الأحرار يجدون ذلك في التفكير في الأشياء الممنوعة والتعبير عنها، بالنظر إلى الدوافع فسوف لن يكون هناك ما يميزهما عن بعضهما: أما بالنظر إلى النتائج فإن الفاعلين الأحرار قد يتفوقون حتى على المفكرين الأحرار، إذا سلمنا بأننا لا نصدر الحكم وفق ما يبدو لنا من قريب وبشكل غير دقيق — أي كعموم الناس. يجب أن نعيد النظر في كثير من الاتهامات التي أطلقها الناس على الذين حطموا سلطة عادة من العادات بفعل قاموا به، — وغالبا ما يسمونهم مجرمين. كل الذين غيروا القانون الأخلاقي القائم كانوا يُعتبرون أشرارا : ولكن حين لا يتمكن الناس من إعادة فرض ذلك القانون، ويعتادون على ذلك التغيير بالتدريج، فإن تلك الصفة تبدأ في التغير؛ — يروي لنا التاريخ قصص أولئك الأشرار الذين أصبح الناس فيما بعد ينادونهم الطيبين.

21

«**تطبيق القانون**». — حين يؤدي تطبيق أحد التعاليم الأخلاقية إلى نتيجة مخالفة لتلك التي وُعِد بها الناس وتوقعوها، ولا يحقق للإنسان الأخلاقي

السعادة التي وعِد بها، بل التعاسة والبؤس، عكس كل التوقعات، فإنه يبقى للشرفاء والقلقين أن يقولوا : «لقد أخطأنا في التطبيق.» وحتى في أسوأ الحالات فإن الإنسانية المضطهدة والتي تعاني ستقول في نهاية المطاف : «من المستحيل تطبيق هذه التعليمة الأخلاقية بشكل سليم، فنحن ضعفاء ومذنبون حتى النخاع وعاجزون عن الالتزام بالأخلاقية، وبالتالي لا يمكننا أن نطمح للسعادة والنجاح. إنما تُقدَّم الوعود والتعاليم الأخلاقية لمن هم أفضل منا.»

22

أعمال الإيمان. يستمر العلماء البروتستانت في إشاعة ذلك الخطأ الكبير الذي يقول بأن الشيء الوحيد المهم هو الإيمان، وبأن الأعمال ما هي إلا نتيجة طبيعية لهذا الإيمان. هاته العقيدة ليست صحيحة، ولكنها جذابة إلى حد جعلها تبهر رجالا أذكياء غير لوثر (أقصد سقراط وأفلاطون) : وإن كانت البداهة والتجربة اليومية تظهر العكس. لا تستطيع المعرفة والإيمان، رغم كل الوعود التي ينطويان عليها، أن يعطيا للإنسان لا القوة ولا المهارة الضروريتان للعمل. لا يمكنهما تعويض تلك الآلية الدقيقة والمتعددة الجوانب التي تقف وراء تمكننا من المرور بأي شيء من التمثل إلى الفعل. الأعمال قبل أي شيء ! أي الممارسة، والممارسة، ثم الممارسة ! و«الإيمان» الكافي سيأتي زيادة على ذلك — كونوا على يقين!

23

أين تتجلى دقتنا. — بما أن الناس قد اعتبروا الأشياء (الطبيعة، الأدوات، كل أشكال الملكية)، على مدى آلاف السنين، حية ونشيطة، وقادرة على الإيذاء والتملص من المقاصد الإنسانية، — فإن الشعور بالعجز لديهم قد انتشر بينهم واكتسب حجما أكبر بكثير من الذي كان يفترض أن يكون له : إذ كان عليهم أن يتأكدوا من الأشياء، كما يتأكدون من الناس والحيوانات، بواسطة القوة، والإكراه، والمداهنة، والاتفاقيات، والقرابين، — وهنا يكمن أصل الكثير من العادات

الخرافية، أي أصل جزء من العمل الإنساني، ربما يكون هو الجزء الأكبر، ومع ذلك فهو الذي بذره الناس سدى. ــ وبما أن الشعور بالعجز كان في حالة تهيج حادة، مستمرة وتكاد تكون دائمة، فإن الشعور بالقوة قد تطور بشكل دقيق جدا بحيث أن الإنسان يستطيع الآن، بهذا الصدد، أن يزن نفسه بأشد الموازين حساسية. لقد أصبح هذا الشعور ميلا قويا لديه؛ وتكاد الوسائل التي اكتشفها واستخدمها لاكتسابه تشكل تاريخ الثقافة.

24

البرهنة على التعليمة. ــ تتم البرهنة على قيمة أو لاقيمة التعليمة — كالخاصة بطهي الخبز مثلا ــ بتحقق النتيجة المرجوة أو عدم تحققها، هذا إذا سلمنا بأنها قد طبقت بدقة. ولكن الأمر يختلف بالنسبة للتعاليم الأخلاقية : ففي هاته الحالة الخاصة لا نستطيع التأكد من النتائج، وتفسيرها وتحديدها. تقوم هاته التعاليم على فرضيات ذات قيمة علمية ضعيفة، ومن المستحيل كذلك البرهنة عليها أو دحضها من خلال النتائج : — ولكن فيما مضى، في الوقت الذي كانت فيه كل العلوم بدائية وغير دقيقة، والذي لم يكن فيه الناس يطمحون كثيرا إلى اعتبار شيء ما مُبَرهَنا عليه، — كانت قيمة أو لاقيمة التعليمة الأخلاقية تحدد كغيرها من التعاليم : من خلال النظر إلى النتائج. نجد لدى السكان الأصليين لأمريكا الروسية تعليمة تقول : «لا تلق بعظام الحيوانات في النار ولا تلق بها للكلاب»، — وتتم البرهنة عليها بإضافة ما يلي : «وإن فعلت فلن يحالفك الحظ في القنص.» ولسبب أو لآخر فإن الحظ كثيرا ما لا يحالفنا في القنص؛ ليس من السهل إذن أن ندحض قيمة هذه التعليمة بهاته الطريقة، خاصة حين تكون الجماعة كلها، وليس الفرد وحده، هي من تتحمل وزر الخطأ؛ وهكذا سيكون هناك دائما ظرف يبدو أنه يبرهن على قيمة التعليمة.

25

العادات والجمال. — لا يجب أن نضرب الذكر صفحا عن ذلك البرهان المؤيد للعادات لدى كل واحد من الذين خضعوا لسلطانها، منذ البداية وعن

طيب خاطر، والذي مفاده أن أعضاء الدفاع والهجوم لديهم – بدنية كانت أم فكرية – تصاب بالضمور : وهو ما يجعل هذا الفرد يزداد جمالا. لأن استخدام تلك الأعضاء، والشعور الذي ينتج عنه، هما اللذين يجعلان المرء دميما ويطيلان عمر الدمامة. لذلك نجد القُردُح الهرم أكثر دمامة من القردح الصغير، ونجد أنثى القردح الشابة أكثر شبها بالإنسان وبالتالي أكثر جمالا. – استنتجوا من ذلك خلاصة عن أصل الجمال لدى المرأة!

26

الحيوانات والأخلاق. – الممارسات المطلوب من المرء الالتزام بها في المجتمع المتمدن، تفادي كل ما يثير السخرية، كل ما هو غريب، أو متَكلف، كبح جماح الفضائل والشهوات سواء بسواء، عدم مخالفة الآخرين، الالتزام بالقواعد، تحقير الذات، ـــ كل هذا نجده، باعتباره أخلاقا اجتماعية، حتى لدى الأصناف الدنيا من الحيوان، – في هاته المراتب الدنيا وحدها نجد مثل هذه الأفكار التي تضع هاته القوانين : الرغبة في الإفلات من المطاردين والتوفق في البحث عن الطريدة. هذا هو ما يجعل الحيوانات تتعلم ضبط النفس والتنكر إلى حد أن البعض منها يتمكن من التلون بلون محيطه (وفق ما نسميه «الوظيفة اللونية»)، والتظاهر بالموت، واتخاذ أشكال حيوانات أخرى والتلون بلونها، أو مظهر الرمل، وأوراق الأشجار، أو بَهَق الحجر أو الإسفنج (وهو ما يسميه علماء النبات الإنجليز بالتنكر). هكذا يخفي المرء نفسه وراء شمولية مصطلح «إنسان» الذي يشمل الجنس البشري كله، أو بين أفراد «المجتمع»، أو يتشبه بالأمراء، والطوائف، والأحزاب، وآراء عصره أو محيطه : وكل الطرق الدقيقة التي نتبعها لنجعل من أنفسنا سعداء، ومعترفين بالجميل، وأقوياء، ومحبين، نجد ما يقابلها لدى الحيوان. حتى قول الحقيقة، الذي ما هو في الحقيقة سوى الإحساس بالأمان، يشترك فيه الإنسان مع الحيوان : لا نريد أن يخدعنا الآخرون، أن نضلل أنفسنا، نستمع لتشجيع أهوائنا لنا ونحن حذرون، نتحكم في أنفسنا ونظل مرتابين في أنفسنا؛ كل هذا يعرف الحيوان كيف يقوم به كالإنسان؛ لديه هو كذلك نجد أصل التحكم في النفس هو الإحساس بالواقع (الذكاء). كما أن الحيوان يلاحظ التأثير

الذي يكون له على خيال الحيوانات الأخرى، وبذلك يتعلم أن يلاحظ نفسه، أن ينظر إلى نفسه بطريقة «موضوعية»، أن تكون له، بقدر معين، معرفة بذاته. يقيم الحيوان حركات خصومه وأصدقائه، ويحفظ عن ظهر قلب خصوصيات كل واحد منهم: يتخلى عن مصارعة الحيوانات المنتمية لنوع معين، كما يخمن، لدى اقتراب حيوانات معينة منه، نواياها السلمية والهادفة للمصالحة. أصل العدالة، كأصل الذكاء، والاعتدال، والشجاعة، — باختصار، كل ما يدخل تحت مسمى الفضائل السقراطية — حيواني: هاته الفضائل نتيجة تلك الغرائز التي تعلمنا البحث عن الغذاء والإفلات من الأعداء. إذا اعتبرنا إذن بأن كل ما فعله الإنسان الراقي هو السمو والارتقاء بنوعية غذائه وبفكرة ما يعده مناقضا لطبيعته، فإنه لن يكون ممنوعا علينا أن نصف الظاهرة الأخلاقية بأنها حيوانية.

27

قيمة الإيمان بالأهواء الفوبشرية. — تصر مؤسسة الزواج على الاعتقاد بأن الحب، وإن كان هوى، قد يدوم باعتباره كذلك، الاعتقاد بأن الحب الدائم، الحب مدى الحياة قد يكون هو القاعدة. بإصرار مؤسسة الزواج على هذا الاعتقاد النبيل، الذي تحافظ عليه رغم التفنيد المتكرر الذي يكاد يكون هو القاعدة وبالتالي يجعل من هذا الاعتقاد شيئا يجب التكفير عنه، فإنها قد أضفت على الحب نبالة سامية. كل المؤسسات التي اعتقدت في دوام هوى ما وجعلته مسئولا عن ذلك الدوام، ضدا على جوهر الهوى نفسه، قد بوأته مرتبة جديدة: والذي يجد نفسه منذ ذلك الحين مستسلما لذلك الهوى لا يعود يرى فيه، كما في السابق، حطا من قدره أو تهديدا له، بل يشعر على العكس أن ذلك الهوى قد رفع قدره في نظر نفسه وفي نظر أمثاله. لنفكر في المؤسسات والعادات التي جعلت من الثقة الحديث الحماسي الذي يجريه امرؤ مع شخص آخر بعيدا عن أي تحفظ رمزا للوفاء الأبدي، ومن الغضب انتقاما لا يتوقف عند حد، ومن اليأس حدادا سرمديا، ومن الكلمة الوحيدة التي يعطيها المرء التزاما إلى الأبد. كلما حدثت مثل هاته التحولات كلما دخل الكثير من النفاق والكذب عالم الناس: كلما دخله كذلك، وبهذا الثمن فقط، تصور فوبشري يسمو بالإنسان.

28

حالة العقل كحجة. — ما مصدر ذلك الحل المفرح الذي ينشرح به صدرنا عندما نقدم على فعل ما ؟ — هذا سؤال شغل الناس كثيرا. والجواب القديم، الذي لا يزال شائعا حتى اليوم، هو أن الإله الذي يشعرنا بذلك أنه راض عن عملنا. حين كان الناس فيما مضى يسألون وسطاء الوحي فإنهم يفعلون ذلك ليعودوا إلى بيوتهم مطمئنين بسبب ذلك الحل المفرح؛ وكلما ارتاب أحدهم أمام الأعمال العديدة التي تتاح له إمكانية الاختيار فيما بينها قال لنفسه : «سأقدم على العمل الذي سيرافقه ذلك الشعور.» لم يكن الناس إذن يختارون الأمر المعقول، بل المشروع الذي سيملأ نفوسهم بالشجاعة والأمل. كانت كفة الحالة الحسنة راجحة، عكس حالة العقل : لأن حالة العقل كانت تفسَّر تفسيرا خرافيا، كشيء مصدره إله يعد بالنجاح ويريد بذلك أن يجعل العقل يتحدث لغة الحكمة السامية. لاحظوا نتائج مثل هذا الحكم المسبق، حين كان يستخدمه رجال دهاة ومتعطشون للسلطة — حين يستخدمونه اليوم كذلك ! «تهييء العقول بما يجعلها راضية» ! — يكون بوسعهم أن يعوضوا به كل الحجج ويفحموا به كل اعتراض!

29

كوميديو الفضيلة والخطيئة. — يبدو أنه كان من بين الرجال الأقدمين الذين أصبحوا من المشاهير عدد كبير من الذين يلعبون دور الممثل الهزلي أمام أنفسهم : لا شك أن الإغريق، وهم ممثلون بالفطرة، كانوا يتظاهرون طواعية ووجدوا أن التظاهر شيء جيد. وكان كل واحد، إضافة إلى ذلك، يجد نفسه داخلا في منافسة من أجل فضيلته مع فضيلة شخص آخر أو كل الأشخاص الآخرين : فكيف لا يجعله ذلك يستخدم كل الحيل التي يعرفها ليبرز فضائله، أمام نفسه أولا، ولو لمجرد التعود على الأمر ! ما جدوى فضيلة لا نستطيع إظهارها أو لا تحسن هي إظهار نفسها ! — وجاءت المسيحية فوضعت مكابح لكوميديا الفضيلة هاته : ابتكرت طريقة عرض المرء لخطاياه بشكل مقزز، واستعراضها، وأدخلت في عالم الناس حالة الإذناب الكئيبة (التي لا يزال المسيحيون الصالحون يعتبرونها «لائقة»).

30

القسوة الرقيقة باعتبارها فضيلة. — هذه أخلاقية تقوم كلية على الحاجة إلى التميز — لا تحسنوا بها الظن بتاتا ! فما هو الميل الذي في خلفيتها وما هي الفكرة المسبقة التي توجهه ؟ نطمح للإساءة بمرآنا لجارنا ولغيرته، وجعله يشعر بالعجز والضعف؛ نريد أن نذيقه مرارة مصيره بجعله يتذوق حلاوة عسلنا، وفي الوقت الذي يتذوق فيه تلك النعمة المزعومة نحدق في بياض عينيه وعلينا أمارات النصر. ها هو قد أصبح متواضعا بشكل كلي، — ابحثوا عن الذين كان يسعى منذ مدة لتعذيبهم بتواضعه وستجدونهم ! هذا يظهر رفقه بالحيوان فيثير إعجاب الناس بذلك، — ولكن ما أعاده بذلك هو إطلاق العنان لقسوته تجاه بعض الناس. وهذا فنان كبير : اللذة التي يشعر بها مقدما، وهو يتصور غيرة خصومه وقد تفوق عليهم، ألهبت قوته فلم يغمض له جفن حتى أصبح واحدا من العظماء — كم من المرارة أذاق غيره حتى يصبح عظيما ! وعفة الراهبة : إنها تنظر نظرة شزراء لكل النساء المخالفات لها في طريقة العيش ! في عينيها فرحة الانتقام ! الموضوع قصير، قد نسرد أشكالا منه لا حصر لها دون أن نثير الملل — لأن التأكيد على أن أخلاقية التميز ما هي، في نهاية المطاف، إلا المتعة الناتجة عن قسوة رقيقة، يعتبر شيئا جديدا متناقضا ويكاد يكون جارحا. في نهاية المطاف تعني : كل مرة في الجيل الأول. لأنه حين يرث المرء عادة القيام بعمل يجعله متميزا لا يرث معها الفكرة المبطنة التي كانت وراءها (وحدها الأحاسيس تورث دون الأفكار) : وإذا لم يتم من خلال التعليم نقل متعة القسوة التي تصاحب الفعل الذي يجعل المرء متميزا إلى الجيل الثاني فإنه لن يعرفها : ما سيعرفه هي المتعة التي تنتج عن عادة القيام بذلك الفعل. وهاته المتعة هي المرتبة الأولى من مراتب «الخير».

31

فخر العقل. — يجد فخر الإنسان الذي يثور ضد فرضية انحداره من أصل حيواني، ويضع بين الطبيعة وبين الإنسان هاوية كبيرة، يجد سنده في حكم مسبق بشأن العقل، وهو حكم حديث نسبيا. في عهود ما قبل التاريخ الطويلة كان الناس

يفترضون وجود العقل في كل مكان ولا يفكرون في تبجيله باعتباره امتيازا يحظى به الإنسان. لأنهم كانوا يعتبرون الروحي (ككل الغرائز، والمكر، والميول) ملكا للكل، شيئا مألوفا، لم يكونوا يخجلون من كونهم ينحدرون من الحيوانات أو من الأشجار (كان النبلاء يتقدون أن تلك الأساطير تشرفهم)، وكانوا يرون العقل شيئا يجمعنا بالطبيعة ولا يفصلنا عنها. وهكذا كانوا رفيعين في تواضعهم — وقد جاء ذلك أيضا نتيجة حكم مسبق.

32

العائق. — ما يغيظنا هو أن نعاني أخلاقيا ونكتشف، لاحقا، بأن تلك المعاناة تقوم على خطأ. لأن العزاء الوحيد الذي نثبته من خلال معاناتنا هو وجود «عالم حقيقة» أعمق من أي عالم آخر، ويفضل الإنسان أن يعاني ويشعر أنه بذلك يتفوق على الواقع (من خلال إدراكه أن ذلك يقربه من «عالم الحقيقة العميق» ذاك)، على أن يعيش من غير معاناة ويحرم من الشعور بالتفوق. وهكذا يكون الفخر وطريقة إرضائه هما اللذان يقفان في وجه التصور الجديد للأخلاق. فما هي القوة التي يجب استخدامها للتغلب على هذا العائق ؟ مزيدا من الفخر ؟ فخرا جديدا ؟

33

ازدراء الأسباب، النتائج والواقع. — تلك الأحداث الخطيرة التي تصيب جماعة ما اتفاقا، من عواصف فجائية، أو جفاف أو أوبئة، تجعل كل الأفراد يشكون في أن العادات قد انتهكت، أو تجعلهم يعتقدون بأنه عليهم ابتكار عادات جديدة لإرضاء قوة الشياطين ونزوتهم الجديدتين. وهكذا يتفادى هذا النوع من الشك ومن التفكير البحث عن السبب الطبيعي ويعتبر السبب الشيطاني هو العلة الأولى. هذه واحد من أصول معرات العقل البشري الوراثية : والأصل الثاني يوجد على هامش هذا، لأن الناس يولون للنتائج الحقيقية والطبيعية لعمل ما أهمية أقل بكثير من التي يولونها لنتائجه الخارقة (ما يسمونه العقاب

والأفضال الربانيين). يؤمر الناس مثلا بالاغتسال في بعض الأوقات المحددة : فهم لا يغتسلون إذن من أجل نقاء أجسادهم بل لأنهم مأمورون بذلك. إنهم لا يتعلمون تفادي العواقب التي قد تترتب عن عدم الاغتسال، بل الانزعاج المزعوم الذي قد يشعر به المعبود إذا أهملوا الاغتسال. تحت وطأة هذا الإكراه الخرافي يتوهم الناس أن غسل الجسد المتسخ يكتسي أهمية بالغة، فهم يمنحونه دلالات مصدر ثان أو ثالث، ويحرمون أنفسهم من معنى الواقع والاستمتاع به، وينتهي بهم الأمر إلى عدم الاهتمام بذلك الاغتسال إلا بسبب كونها رموزا. وقوع الإنسان تحت وطأة أخلاقية العادات يجعله يزدري الأسباب أولا، والنتائج ثانيا، والواقع ثالثا، ويربط كل هاته المشاعر السامية (التبجيل، النبالة، الفخر، العرفان، الحب) بعالم متخيل : يسميه العالم الأعلى. ولا زلنا نرى نتائجه اليوم أيضا : كلما أصبحت سَمَتْ مشاعر شخص ما بهذا الشكل أو ذاك فإن ذلك العالم المتخيل يكون له دور في ذلك. يؤسفني أن أقول هذا، على العالم أن يشك مؤقتا في كل المشاعر السامية، إذ تمتزج بها الكثير من الأوهام والغرائبَ. بيد أن هذا لا يعني أن هاته المشاعر تكون موضع شك لذاتها أو أنها ستظل كذلك على الدوام، بل لأن عملية تطهير المشاعر السامية ستكون هي الأطول من بين كل عمليات التطهير التدريجية التي تنتظر الإنسانية.

34

الأحاسيس الأخلاقية والتصورات الأخلاقية. ــــ جلي أن الأحاسيس الأخلاقية تنتقل من جيل لجيل من خلال ملاحظة الأبناء ميل آبائهم للقيام ببعض الأعمال ونفورهم من أعمال أخرى، ويؤشر تقليدهم لذلك الميل أو النفور على ميلاد تلك الأحاسيس لديهم؛ وفي مرحلة تالية من حياتهم، وقد تشبعوا بهاته الأحاسيس التي تعلموها جيدا وتمرسوا بها، يعتبرون أنه من اللائق اختبارها في تلك المرحلة المتأخرة، أي عرض الدوافع التي ستبرر ذلك الميل أو النفور. غير أن «عرض الدوافع» هذا لا علاقة له لا بأصل هاته الأحاسيس ولا بقوتها : يكتفون فقط بمراعاة قواعد اللياقة، التي تريد من الشخص العاقل أن يعرف الأسباب الكامنة وراء تفضيله هذا الشيء أو نفوره من ذاك، أسباب تكون مقبولة ويمكن

البوح بها. بهذا المعنى يكون تاريخ الأحاسيس الأخلاقية مختلفا عن تاريخ التصورات الأخلاقية. فالأولى تكون قوية قبل الفعل، أما الثانية فبعده، لأن أصحابها يواجهون ضرورة تبريرها أمام الآخرين.

35

الأحاسيس وارتباطها بالأحكام. — «ثق في إحساسك!» — ولكن الأحاسيس ليست نهائية، ليست أصيلة؛ وراء الأحاسيس هناك الأحكام والتقديرات التي نُقِلت إلينا على شكل أحاسيس (الميل لهذا العمل والنفور من ذاك). الإلهام الذي يأتينا من إحساس ما هو وليد حكم — وغالبا ما يكون حكما خاطئا ! — وهو لا يكون حكما أصدرته أنت. أن يثق المرء في أحاسيسه معناه أن يطيع جده، وجدته وآباءهم الأولين أكثر مما يطيع الآلهة التي فينا، أي عقلنا وتجربتنا.

36

حماقة التقوى المشحونة بالأفكار المبطنة. — كيف ! أيكون مؤسسو الحضارات القديمة، وأول من صنع الأدوات والخيط، والعربات، والزوارق والمنازل، أول من لاحظ التطابق بين قوانين الكون وبين جدول الضرب، — مختلفين عن المبتكرين والملاحظين في عصرنا ومتفوقين عليهم ؟ هل تكون للخطوات الأولى قيمة لن توازيها كل أسفارنا، — واكتشافاتنا ؟ هذا ما يقوله الحكم المسبق؛ يحاولون بهذا الاستدلال أن ينقصوا من أهمية العقل الحالي. وإن كان واضحا أن الصدفة كانت فيما مضى أكبر المبتكرين وأقوى الملاحظين، وما يلهم هذا العصر المتسم بالعبقرية، بالنسبة للابتكارات التافهة التي نقوم بها، هو كوننا نستخدم قدرا من العقل، والطاقة والخيال العلمي أكبر مما وجد فيما مضى على مدى فترات زمنية طويلة.

37

النتائج الخاطئة التي نخرج بها من الفائدة. — حين نبين فائدة شيء ما فإننا لا نكون بذلك قد بينا أصلها : وهو ما يعني أننا لن نستطيع أبدا أن نبرهن على ضرورة الوجود من خلال الفائدة. ويكاد الحكم المضاد يكون هو الذي سيطر حتى الآن — حتى في أشد العلوم دقة. ألم يذهب علماء الفلك إلى حد الزعم بأن الفائدة (المفترضة) التي في الادخار الذي تقوم به أقمار الكواكب (الزيادة من كمية الضوء الذي يضعفه البعد الشديد عن الشمس، لكي لا يعاني سكان الكواكب من نقص في الضوء) هي الغاية من ذلك الادخار وتفسر أصله ؟ ونتذكر كذلك تبرير كريستوف كولومب : خلقت الأرض من أجل الإنسان، لهذا يجب أن تكون كل البلدان مأهولة. «هل يعقل أن ترسل الشمس أشعتها على بلاد فارغة وتسهر النجوم عبثا على بحار لا سفن فيها وعلى مناطق لا سكان فيها ؟»

38

الغرائز وقد حولتها الأحكام الأخلاقية. ـ تتحول نفس الغريزة إلى إحساس مهين بالجبن، تحت وطأة اللوم الذي أثقلتها به العادات : أو إلى إحساس ممتع بالتواضع، إذا احتضنتها أخلاق، كالأخلاق المسيحية، واعتبرتها غريزة طيبة. وهو ما يعني أن هاته الغريزة ستشعر إما براحة الضمير أو بتبكيت الضمير ! وهي، كغريزة في ذاتها، مستقلة عن الضمير، ليس لها طبع أو تسمية أخلاقية، ولا يصاحبها أي شعور بالرضا أو بالانزعاج : كل هذا يكتسبه، ليصبح طبيعة ثانية له، حين يدخل في علاقة مع غرائز أخرى قد تعلمت من قبل معنى الخير والشر، أو إذا تم اعتباره صفة لكائن ـ سبق للشعب أن حدده وقيمه أخلاقيا. — وهكذا كان للإغريق شعور بالغيرة يختلف عن شعورنا نحن؛ كان هزيود يعُدها من نعم الإلهة ايريس الطيبة والمفضالة ولم يكن يصدمه شعور الآلهة بالغيرة : وهي ظاهرة يتفهمها في ذلك الواقع الذي كانت فيه المنافسة هي الروح؛ كانت تعتبر طيبة ومستحسنة. كما أن الإغريق كانوا يختلفون عنا في تقييم الأمل : كانوا يعتبرونه

أعمى وغادرا؛ وقد جسد هزيود في إحدى الحكايات أسوأ ما يمكن أن يهاجم به الأمل، ولكنه قال ذلك بطريقة غريبة بحيث لم يتمكن أي مفسر جديد من فهمه، لأن ذلك يتعارض مع العقل الحديث الذي تعلم من المسيحية أن يؤمن بالأمل كما يؤمن بفضيلة. أما الإغريق فلم يكونوا يرون معرفة المستقبل أمرا مستعصيا، بحيث أن السؤال عن المستقبل أصبحت، في كثير من الحالات، واجبا دينيا؛ وبينما نكتفي نحن بالأمل نجد الإغريق، بفضل تنبؤات عرافيهم، يحطون من قدر الأمل وينزلون به إلى مستوى الشر أو الخطر الداهم. — اليهود، الذين تختلف نظرتهم إلى الغضب عن نظرتنا، يقدسون الغضب : لذلك وضعوا العظمة المعتمة التي كانت تصاحبه في مكانة أعلى مما قد يتصوره أي أوربي : لقد جعلوا ملامح إلههم يهوه غاضبة لأن أنبياءهم كانت لهم ملامح غاضبة كذلك. حتى اشد الأوربيين غضبا، إذا ما قيمناهم وفق هذا المعيار، فسيبدون لنا مخلوقات ثانوية.

39

«العقل الخالص» حكم مسبق. — في كل الأماكن التي هيمنت فيها عقيدة الروحانية الخالصة دمرت بإفراطها القوة العصبية للإنسان : علمت الناس احتقار الجسد، وإهماله أو تعذيبه، بل إهمال الإنسان نفسه وتعذيبه، بسبب غرائزه كلها؛ أنتجت نفوسا مظلمة، ومتصلبة ومقموعة، — نفوس تعتقد أنها تعرف سبب شعورها بالبؤس وتأمل في إزالته ! «لا شك أن هذا السبب يوجد في الجسم ! فهو لا يزال مزدهرا على الدوام!» — تلك هي الخلاصة التي تخرج بها، بينما الجسم يستمر، من خلال آلامه، في الثورة على الاحتقار الذي يتعرض له. وفي نهاية المطاف تصبح حالة عصبية شديدة، أصبحت عامة ومزمنة، هي خاصية تلك العقول الخالصة الفضلى : لا تتعلم معرفة الفرحة إلا على شكل انخطاف أو بوادر الجنون — ويبلغ نظامها ذروته حين تعتبر الانخطاف هو قمة الحياة ومعيارا لإدانة كل ما هو أرضي.

40

التفكير المستمر في العادات. — التعاليم الأخلاقية التي كان الناس يستخلصونها على عجل من حدث فريد من نوعه وغريب سرعان ما تصير غامضة : يصعب عليهم استخلاص النوايا منها وكذلك معرفة العقاب الذي يترتب على إخلال ما بالعادة؛ بل كانت لهم شكوك بخصوص الكيفية التي تجري بها الاحتفالات؛ وبينما هم يتشاورون بهذا الخصوص تزداد قيمة موضوع ما يتم بحثه، والشيء غير المعقول في عادة ما يصير في نهاية المطاف مقدسا أشد ما يكون التقديس. علينا ألا نحكم بلا روية على القوة التي أنفقتها الإنسانية هنا خلال آلاف السنين ولا على الأثر الذي ينتج عن ذلك التفكير المستمر في العادات ! ها نحن قد حللنا بالمكان الشاسع الذي يمارس فيه الذكاء مناوراته : ليس مكانا تنشأ فيه الديانات وتكتمل، بل يجد فيه العلم كذلك رواده المبجلين، وإن كانوا رديئين؛ إنها الأرض التي نما عليها الشاعر، والمفكر، والطبيب، المشرع ! والخوف من الغموض الذي يتطلب منا الاحتفالات، بشكل فيه التباس، قد اكتسى بالتدريج صبغة التعمية، وحين لا نتمكن من تعميق موضوع ما نتمكن من الابتكار.

41

لتحديد قيمة الحياة التأملية. — يجب ألا ننسى، نحن رجال الحياة التأملية، نوع المصائب واللعنات التي حلت برجال الحياة النشيطة بسبب ردود فعل التأمل المختلفة، ـ أي نوع التفسير الذي ستقدمه لنا الحياة النشيطة لو تباهينا بأفضالنا عليها. ستواجهنا بما يلي: أولا: رجال الدين الذين يشكلون أغلبية التأمليين وبالتالي يكونون هم الصنف الشائع منهم؛ لقد عملوا عبر العصور على جعل الحياة صعبة بالنسبة للرجال النشيطين، وتنفيرهم منها إذا أمكن: تعتيم السماء، حجب ضوء الشمس، التشكيك في الفرحة، الحط من شأن الآمال، شل اليد النشيطة، ـ هذا ما برعت فيه، كما أنها واست الحقب والمشاعر البئيسة وتصدقت عليها، وساعدتها وباركتها. ثانيا : الفنانون، صنف من رجال الحياة التأملية أكثر ندرة من صنف رجال الدين، ولكنه صنف شائع ؛ لم يكونوا مطاقين على العموم كأفراد،

كانوا نزويين، وحاسدين، وعنيفين، ومحبين للخصام: يتولد لدينا ذا الانطباع من الانطباع المطمئن والمثير للحماس الذي تخلفه لدينا أعمالهم. ثالثا: الفلاسفة، صنف يجمع بين القوى الدينية والفنية، ولكن بطريقة تجعل عنصرا ثالثا ينضاف إليها، عنصر الجدل، لذة المجادلة، وقد تسببوا في نفس المصائب التي تسبب فيها رجال الدين والفنانون، أضف إلى ذلك كونهم جعلوا كثيرا من الناس يشعرون بالملل بسبب ميلهم للجدل؛ ولكن عددهم كان دائما قليلا. رابعا: المفكرون والعمال العلميون؛ نادرا ما سعوا ليكون لهم تأثير ما، فهم يكتفون بأن يحفروا في صمت كالجرذان، وبذلك لم يثيروا الكثير من الملل واللذة، وبما أنهم مثار الضحك والسخرية فإنهم قد جعلوا، من حث لا يعلمون، حياة رجال الحياة النشيطة مطاقة. أخيرا، أصبح العلم مفيدا للكل : فإذا كان الكثير من الرجال المنذورين للحياة النشيطة قد شقوا طريقهم نحو العلم، بسبب كونه مفيدا، وارتقوا مدارجه بعرق جبينهم مواجهين اللعنات والمتاعب، فإن جمهور المفكرين والعمال المشتغلين بالعلم لا يتحملون مسؤولية إخفاقاتهم: تلك «معاناة يفرضها المرء على نفسه».

42

أصل الحياة التأملية. — في الحقب التي تسودها البربرية، وتشيع الأحكام المتشائمة بخصوص الناس والدنيا، يعمل الفرد جاهدا، وهو واثق من قوته، على التصرف وفق تلك الأحكام، أي بتفعيل الأفكار من خلال المطاردة، والنهب، والمباغتة، والوحشية والقتل، بما في ذلك الصيغ الضعيفة لهاته الأفعال، التي لا تعتبر مطاقة إلا داخل المجتمع . وإذا ضعفت قوة الفرد، إذا شعر بالتعب أو المرض، أو الكآبة أو الشبع ، وبالتالي تنعدم لديه الرغبة والشهية، بصورة مؤقتة، فإنه يصبح إنسانا أفضل، أي أقل خطورة، ويبدأ في التعبير عن أفكاره التشاؤمية بالكلمات والتأملات، كالتي تخص أصدقاءه مثلا، أو زوجته، أو حياته أو آلهته،— وبالتالي ستكون الأحكام التي سيصدرها عندها أحكاما غير ملائمة. في حالته العقلية هاته سيصبح مفكرا ومبلغا، وقد يقوم خياله بتطوير خرافاته، وابتكار عادات جديدة، والسخرية من أصدقائه: ومهما يكن ما يتخيله فإن كل إنتاجات عقله

ستعكس حالته حتما، أي ازدياد خشيته وتعبه، وتناقص تقديره للفعل وللتمتع؛ يجب أن يكون فحوى تلك الإنتاجات متلائما مع عناصر الحالة الشاعرية، والتخيلية والكهنوتية: يجب أن يسود فيها الحكم غير الملائم. ولاحقا سمي كل الذين كانوا يفعلون باستمرار ما كان الفرد يقوم به من قبل بهاته الطريقة، أي أولئك الذين يحملون أحكاما غير مناسبة، ويعيشون مكتئبين وخاملين، سموا شعراء أو مفكرين، كهنة أو «أطباء»: وبما أنهم لم يكونوا فاعلين بكما فيه الكفاية فإنهم كانوا سيتعرضون للاحتقار أو للطرد من الجماعة؛ ولكن ذلك ينطوي على خطورة، — لقد سلكوا طريق الخرافة واقتفوا آثار القوة الربانية، مما جعل الناس يعتقدون أنهم يمتلكون وسائل يستمدونها من قوى مجهولة. هكذا كان يتم النظر للأجيال الأولى من الرجال التأمليين، — كانوا محتقرين لموهم ليسوا مصدر خوف. بهذا الشكل المقَنَّع، وبهذا الاحترام المريب، بقلب خبيث وعقل معذب، ظهر التأمل لأول مرة، ضعيفا ومرعبا في نفس الوقت، محتقَرا في الخفاء ومجللا أمام الملأ بعلامات احترام خرافي! يجب أن نقول هنا مثلما نقول دائما: يا له من أصل مخجل!

43

القوى التي يجب أن تتوفر لدى المفكر. — فيما مضى كان التسامي على ما تدركه الحواس، والنزوع نحو التجريد، يعتبر تساميا بالفعل: ولا يمكن اليوم أن تكون لنا نفس المشاعر. كانت النشوة الناجمة عن صور الكلمات والأشياء الشاحبة، والتعامل مع الكائنات الخفية، التي لا تدركها الحواس، والمتعذرة على اللمس، يعتبران وجودا في عالم آخر أسمى من عالمنا، وجود مصدره الاحتقار الشديد للعالم الذي تدركه الحواس، ذلك العالم المغري والخبيث. «تستطيع هاته التجريدات أن تقودنا، وليس أن تغرينا فقط» — عند سماع هذه الكلمات ينطلق الناس وكأنهم يهرعون لتسلق القمم. لم يكن مضمون تلك الألعاب الروحية هو «الشيء البالغ الأهمية» في ما قبل تاريخ العلم، بل تلك الألعاب نفسها. إلى هذا يعود إعجاب أفلاطون بالجدل، وإيمانه بالارتباط الحتمي للجدل بالإنسان الطيب، الذي تحرر من الحواس. لم تكن طرق المعرفة المختلفة هي التي تم اكتشافها

تدريجيا وبشكل منفصل، بل وسائل المعرفة عموما، الظروف والعمليات التي تسبق فعل المعرفة لدى الإنسان. وكانت العملية التي يتم اكتشافها، والحالات النفسية الجديدة، تبدو على الدوام أنها لم تكن أبدا من وسائل بلوغ المعرفة، بل الهدف المنشود، ومحتوى ما تجب معرفته وخلاصتُه. يحتاج المفكر إلى الخيال، والاندفاع، والتجريد، والرَّوْحَنَة، وحس الابتكار، والحدس، والاستقراء، والجدل، والاستنباط، والنقد، وتجميع المواد، والفكر اللاشخصي، والتأمل والتركيب، وكذلك إلى العدل والحب في نظرته إلى كل ما هو موجود، — ولكن هاته الوسائل قد تم اعتبارها في تاريخ الحياة التأملية، كل واحدة على حدة، كهدف أسمى، وشعر مبتكروها بتلك الغبطة التي تملأ النفس الإنسانية حين يشرق عليها شعاع هدف أسمى.

44

الأصل والدلالة. — لماذا تعود هاته الفكرة لمراودتي باستمرار وبشكل أكثر إلحاحا ؟ — فكرة تخيل الفلاسفة حين يكونون في طريقهم لاكتشاف أصل الأشياء، فيما مضى، بأنهم سيقومون باكتشافات ذات دلالة كبيرة جدا بالنظر لباقي الأفعال والأحكام؛ بل كانوا يفترضون بأن خلاص الناس يتوقف على مدى إدراكهم لأصل الأشياء : أما الآن، على العكس، فكلما ازداد بحثنا عن الأصول كلما قلت مشاركة اهتمامنا في هاته العملية، تبدأ كل تقييماتنا، والمنافع التي جعلناها من سمات الأشياء، في فقدان دلالتها كلما تراجعنا في مجال المعرفة لكي ندرك الأشياء نفسها عن قرب، كلما أدركنا الأصل كلما ازداد فقدان الأصل لدلالته : بينما يبدأ الشيء القريب منا، الموجود فينا وحولنا يظهر بالتدريج غنيا بالألوان، والجمال، والأسرار والدلالات، وهو ما لم تكن الإنسانية في القديم تشك في وجوده ولو في الحلم. فيما مضى كان المفكرون يدورون في حلقة مفرغة كحيوانات أسيرة الأقفاص، يتأكلها غيظ خفي، أنظارها مركزة على قضبان أقفاصها، تنقض على تلك القضبان محاولة تكسيرها ؛ والسعيد من يعتقد أنه يرى، من خلال فجوة ما، — شيئا مما في الخارج، من الماوراء أو من الأقاصي.

45

انفراج مأساوي للمعرفة. — التضحيات البشرية، من بين كل وسائل التحميس، هي التي سمت بالإنسان عبر كل العصور وجعلته أكثر روحانية. وربما لا تزلا هناك فكرة مدهشة واحدة تستطيع اليوم أن تقضي على كل طموح، والانتصار على أشد الأفكار ظفرا، — أقصد فكرة تضحية الإنسانية بنفسها. ولكن من أجل من ستضحي بنفسها؟ يمكننا أن نقسم منذ الآن، لو أن هاته الفكرة ظهرت للوجود، بأن معرفة الحقيقة ستظل هي الهدف الكبير الوحيد الذي سيكون جديرا بتلك التضحية، لأن كل التضحيات تهون من أجل المعرفة. وبما أن المسألة لم تطرح أبدا فإن الناس لم يتساءلوا أبدا عما إذا كانت الإنسانية قادرة على السعي للسير بالمعرفة إلى الأمام، كما لم يتساءلوا عن الحاجة على المعرفة التي قد تدفع الإنسانية إلى التضحية بنفسها لتموت وبريق حكمة متوَقِّعة يشع في عينيها. ربما يبلغ الحماس الناجم عن المعرفة مثل هاته الدرجة الرفيعة يوم يجمعنا التآخي مع سكان كواكب أخرى، خدمة للمعرفة، ونقوم على مدى آلاف السنين من نقل معرفتنا من نجم إلى نجم!

46

الشك في كوننا نشك. — «الشك وسادة وثيرة للعقل الجيد!» — لطالما أغاظت كلمة مونطيني هذه پاسكال، لأنه لم يكن هناك أحد يحتاج أكثر منه لنلك الوسادة. فلأي شيء يعود ذلك؟

47

الكلمات تعترضنا! — كان القدماء يعتقدون أنهم يقومون باكتشاف كل ما يطلقون عليه اسما. والحقيقة عكس ذلك تماما! — لقد تناولوا مسألة، وباعتقادهم أنهم وجدوا لها حلا وضعوا عائقا في طريق حلها. — ولكي نبلغ المعرفة الآن علينا أن نتعثر في كلمات شديدة القدِم وصلبة كالحجارة، وستنكسر الساق بسهولة أكثر من الكلمة.

48

«**اعرف نفسك**»، **هذا هو العلم كله**. — لن يعرف الإنسان نفسه إلا بعد معرفته لكل شيء. لأن الأشياء هي تخوم الإنسان.

49

الإحساس الأساسي الجديد : طبيعتنا الفانية. — فيما مضى كان الناس يحاولون التدليل على سيادة الإنسان بالإشارة إلى أصله الرباني: ولكن هذا أصبح الآن مستحيلا، لأن القرد يقف في طريقه، وربما سلالة حيوانية أخرى مرعبة: — تسمع لأسنانه صريرا، وكأنه يريد أن يقول: لن نقوم بأية خطوة أخرى في هذا الاتجاه! وبالتالي يقوم بمحاولات في الاتجاه المعاكس: يجب أن يكون الطريق الذي تسلكه الإنسانية صالحا للبرهنة على سيادتها وطبيعتها الربانية. وحتى هذا أيضا لن يكون مجديا، مع الأسف! ففي آخر هذا الطريق يوجد رفات الإنسان الأخير الذي يدفن الموتى (وقد كُتب عليه ما يلي: «لم يعد كل ما يتعلق بالإنسان غريبا عني»). مهما تكن درجة التطور التي تبلغها الإنسانية — وربما تصبح في نهاية المطاف أدنى مرتبة مما كانت عليه في البداية — فإنه سيكون من المستحيل عليها الانتقال إلى مرتبة أعلى، مثلما لن تتمكن النملة وثاقبة الأذن، بعد «وظيفتهما الأرضية»، من دخول مملكة الرب للخلود فيها. تجر الصيرورة الماضي وراءها: لماذا سيكون نجم صغير ما وسلالة صغيرة على ظهر هذا النجم استثناء وسط هذا المشهد الخالد! إياكم وهذا الإفراط في رقة العاطفة.

50

الإيمان بالنشوة. — الرجال الذين يعيشون لحظات بهية من الانخطاف، والذين يشعرون، في الأوقات العادية، بسبب التناقض والإنهاك الشديد الذي تتعرض له قواهم العصبية، بالبؤس والأسى، يعتبرون تلك اللحظات تجليهم الحقيقي، تجلي «أنا»هم، ويعتبرون البؤس والأسى من نتيجة لـ«اللاأنا»؛ لذلك

تنتابهم مشاعر الانتقام من محيطهم، وعصرهم، وعالمهم برمته. ينظرون إلى النشوة على أنها هي الحياة الحقيقة، الأنا الحقيقية: ويرون في الآخرين خصوما يحولون بينهم وبين النشوة، أيا يكن شكل هاته النشوة، روحيا، أو أخلاقيا، أو دينيا أو فنيا. الإنسانية مدينة بجزء كبير من المصائب التي حلت بها لهؤلاء السكارى المتحمسين: إنهم الزارعون الشرهون لنبتة عدم الرضا عن الذات وعن الآخرين الخبيثة، نبتة احتقار العصر والعالم، وخاصة نبتة الضجر. ربما لن يستطيع رهط من المجرمين أن يحدث مثل هاته الآثار الوخيمة والبعيدة، هذه الآثار الثقيلة والمقلقة التي تفسد الأرض والهواء، والتي تتميز بها تلك الجماعة الصغيرة النبيلة من الأفراد الجموحين، المبتكرين والشبه مجانين، العباقرة الذين لا يستطيعون التحكم في أنفسهم ولا يحققون المتعة إلا إذا تاهوا تماما: هذا في الوقت الذي يبرهن فيه المجرم على تحمه في نفسه، وعلى التضحية والحكمة، ويحافظ على هاته المزايا حية في أذهان الذين يهابونه. بسببه قد تصبح قبة السماء المنتصبة فوق الحياة خطيرة وغامضة، ولكن الأجواء تظل مفعمة بالحيوية والصرامة. — كما أن هؤلاء المتنورين يبذلون قصارى جهودهم، علاوة على ذلك، لنشر الإيمان بالنشوة بين الناس باعتباره هو الحياة بامتياز: يا له من اعتقاد مخيف! مثلما يتم الآن إفساد المتوحشين بواسطة ماء النار في ظرف وجيز، كذلك تم إفساد الإنسانية برمتها، ببطء وبشكل جوهري، بواسطة روحانية العواطف التي تثير النشوة وبواسطة الذين كانوا يحافظون على الرغبة في ذلك مضطرمة: وربما يؤدي بها ذلك إلى الهلاك.

51

مثلما نحن! — «لنكن متسامحين مع العُور الكبار!» — قال ستوارت ميل: وكأنه مطلوب منا أن نكون متسامحين مع ما اعتدنا أن نؤمن به ونكن له الإعجاب! أقول: لنكن متسامحين مع الذين لهم عينان، كبارا وصغارا، لأننا، مثلما نحن الآن، لن نقوم بأكثر من التسامح!

52

أين أطباء الروح الجدد؟ — طرق المواساة هي التي أضفت على الحياة هذا الطابع البئيس الذي نؤمن به الآن: لقد نتج أكبر مرض أصاب الناس عن الصراع ضد الأمراض، ومع مرور الزمن عملت الأدوية على ظهور مرض أسوأ من الذي كان من المفروض أن تقضي عليه. كان الناس، بسبب الجهل، ينظرون إلى الأدوية المخدرة التي يكون لها مفعول مباشر، والتي يسمونها «مواساة»، على أنها هي الشافية الحقيقية؛ لم يكونوا يلاحظون بأن ثمن ذلك التخفيف المباشر من الآلام يكون حدوث تغير كبير وشامل في الصحة، وبأن المرضى يعانون من آثار الخَدَر، ثم من عدم حصول النشوة وأخيرا من شعور بالقلق، والحصر الصدر، والارتعاش العصبي والتوعك الشامل. حين يبلغ مرض المرء مرحلة معينة فإن العلاج يصبح متعذرا، — يقوم أطباء الروح بالسهر عليه في جو من الثقة والإجلال التام. — يقال، عن حق، بأن شوبنهاور كان أول من تعامل مع معاناة الإنسانية بجدية: فأين الذي سيتعامل بجدية مع هاته العلاجات ويدين بشدة تلك الشعوذة التي عالجت بها الإنسانية حتى اليوم أمراض الروح مسمية إياها بأبهى الأسماء؟

53

التعسف على ذوي الضمائر الحية. — أصحاب الضمائر الحية، وليس الذين لا ضمير لهم هم، هم الذين عانوا كثيرا من ضغط حث الناس على التكفير عن ذنوبهم وخشية الجحيم، خاصة إذا كانوا في الوقت ذاته من ذوي الخيال الخصب. لقد غُلفتْ بالحزن حياة أولئك الرجال الذين يحتاجون أكثر من سواهم للهدوء وللصور اللطيفة — ليس فقط من أجل تسلية أنفسهم وشفاء أنفسهم، بل لكي تتمكن الإنسانية من الاستمتاع بمظهرهم والتشبع بتألق جمالهم. ما أكثر الفظاعات التي لا داعي لها، والمعالجات الرديئة التي أتتنا بها الديانات التي ابتكرت الخطيئة! وكذلك من الرجال أرادوا أن يستمتعوا، من خلال هاته الديانات، بسلطتهم أفضل ما يكون الاستمتاع !

54

أفكار حول المرض. — تهدئة خيال المريض حتى تنتهي معاناته من الأفكار التي يكونها حول مرضه، أكثر من معاناته من مرضه نفسه، — هذا في نظري شيء لا بأس به! بل ليس بالأمر اليسير! هل أدركتم الآن المهمة المنوطة بنا؟

55

الـ«سبل». — لقد كانت «الطرق المختصرة» تقود الإنسانية على الدوام نحو المهالك؛ ذلك أنها حين تعلم باكتشاف طريق مختصرة جديدة تحيد عن الطريق الذي كانت تسير فيه، وبذلك تضل الطريق.

56

جاحد العقل الحر. — من ذا الذي ينفر من الأتقياء الراسخين في إيمانهم؟ ألا نقوم، على العكس، بتبجيلهم في صمت، مستمتعين بمظهرهم، متحسرين على عدم إحساس هؤلاء الرجال الرائعين بنفس المشاعر التي نحس بها؟ ولكن ما سبب هذا النفور المفاجئ والذي لا مبرر له من إنسان تميز بحرية فكرية كبيرة ثم أصبح «مؤمنا»؟ حين نفكر في ذلك نشعر وكأننا رأينا مشهدا منفرا علينا أن نمحوه من ذاكرتنا بأسرع ما يكون! ألن ندير ظهرنا للإنسان المبجل لو تكونت لدينا شكوك حوله بهذا الصدد؟ ولن نفعل ذلك لأننا ندينه أخلاقيا، بل بسبب الاشمئزاز والذعر اللذين سنشعر بهما فجأة! ما مصدر هاته الصرامة في الإحساس؟ ربما يريد هذا أو ذاك أن يفهمنا بأننا لسنا واثقين من أنفسنا! بأننا نغرس حولنا، في اللحظة المناسبة، أدغال الازدراء الشائكة، بحيث لا نستطيع حين تأتي اللحظة الحاسمة، والتي نصير فيها ضعفاء وكثيري النسيان بفعل التقدم في السن، أن نتجاوز ازدراءنا! — هذا افتراض خاطئ، والذي يقوم به لا يعرف شيئا عما يحرك صاحب الفكر الحر ويشحذ عزيمته: ما أبعد هذا الأخير من أن يرى تغييره أفكاره شيئا يستحق الازدراء! وما أشد تبجيله، على العكس، قدرته على

تغيير رأيه، ويعتبرها مزية نادرة ومتفوقة، وخاصة حين تلازم المرء حتى وهو في سن متقدمة! وتذهب كبرياؤه (وليس خوفه) إلى حد جني الثمار المحرمة لازدرائه لنفسه وازدراء الآخرين له، دون أن يتوقف عند الخوف الذي يثيره هذا الازدراء لدى المغرورين والهيَّابين. أضف إلى ذلك أن عقيدة براءة كل الآراء تبدو له أكيدة مثل عقيدة براءة كل الأعمال: فكيف سيجعل من نفسه قاضي وجلاد جاحدي حرية الفكر؟يؤثر فيه مظهر هذا الجحود كما يؤثر مظهر مرض بغيض في الطبيب: خلال لحظة يطغى التقزز الجسدي من كل ما هو إسفنجي، ورخو، وكاسح، ومتقيح على العقل وعلى الرغبة في المساعدة. وهكذا توهن إرادتنا الحسنة فكرة تلك الخيانة الكبيرة التي سادت لدى جاحد الفكر الحر، فكرة انحطاط شامل ينخر المزاج من الداخل.

57

خوف آخر، يقين آخر. — لقد هددت المسيحية الحياة تهديدا خطيرا وجديدا، وابتكرت كذلك يقينا، ومتعا، وتسلية جددا، وأتت بتقييمات جديدة للأشياء. وقرننا ينكر وجود هذا التهديد وضميره مرتاح: ولكنه لا يزال مع ذلك يجر وراءه ما أتت به المسيحية من يقين، وعادات، ومتعة، وتسلية، وتقييم! نجد ذلك حتى في أنبل فنونه وفلسفاته! كم سيبدو كل هذا ضعيفا وباليا، أعرج وأخرق، ومتعصبا بشكل تعسفي، بل كم سيبدو غامضا الآن بعد أن لم يعد هناك ما يقابله: أي خوف المسيحية الدائم على خلاصها الأبدي!

58

المسيحية والأهواء. — نخمن أن المسيحية تنطوي على اعتراض كبير على الفلسفة: فقد نصح الحكماء القدماء الإنسان بتجنب الأهواء، والمسيحية تريد إعادته إليها. لهذا الغرض تنكر أن تكون للفضيلة أية قيمة أخلاقية، مثلما فهم الفلاسفة ذلك، — كانتصار للعقل على الهوى، — وتدين أي شكل من أشكال العقل السليم وتدعو الأهواء للظهور بقوة وتألق: كمحبة لله، وخوف منه، وإيمان متعصب به، ورجاء أعمى فيه.

59

الخطأ كمواساة. — مهما تقولوا فلن ينفي ذلك كون المسيحية قد أرادت تخليص الإنسان من عبء التزاماته الأخلاقية باعتقادها أنها تهديه لأقرب الطرق لبلوغ الكمال: تماما كاعتقاد بعض الفلاسفة في قدرتهم على التخلص من الجدل الطويل والمضني والحصول على حقائق يتم التحكم فيها بدقة، وذلك من خلال إحالتهم لنا على «سبيل بهي تؤدي إلى الحقيقة». وقد كان كلاهما على خطأ، — إلا أن ذلك شكل مواساة لليائسين الذين يموتون تعبا في البيداء.

60

وضوح العقل في النهاية. — لقد تمثلت المسيحية عقل عدد لا يحصى من الذين كانوا في حاجة للإخضاع ، كل أولئك المرهفين أو الأفظاظ المتحمسين بفعل الذل أو الورع . وهو ما جعلها تتخلص من ثقلها البدوي — الذي نتذكره بقوة مثلا حين نرى الصورة الأولى للحواري بطرس — لتصبح ديانة روحانية ترتسم على وجهها تجاعيد عديدة، وحيل كثيرة وأفكار مبطنة؛ لقد منحت الإنسانية الأوربية العقل، ولم تكتف بجعلها ماكرة من الناحية اللاهوتية. بهذا العقل، المتحد مع القوة، واليقين القوي والتفاني في نكران الذات، شكلت أكثر الأفراد رقة في المجتمع الإنساني: رجال الدين الكاثوليك، سيما حين ينحدرون من أسرة نبيلة، ويتميزون منذ البدء، بالرشاقة في الحركات، وقوة النظرة، وأيد جميلة وأرجل رقيقة. هنا يصطبغ الوجه الإنساني بتلك الروحانية التي تنتج عن نوعين من السعادة (الإحساس بالقوة والإحساس بالخضوع)، بمجرد ما يقوم أسلوب حياة مدروس بعناية بترويض الحيوان الذي في الإنسان؛ وهنا تقوم حركة تهدف إلى المباركة، وغفران الخطايا، وتجسيد المعبود، بالحفاظ على إحساس الفرد بأن له مهمة خارقة حيا باستمرار في الروح كما في الجسد؛ هنا يسود احتقار ضعف الجسد، والرفاهية والسعادة، الذي يتميز به الجنود بالفطرة؛ يعتبر الفرد خضوعه فخرا له، وهي سمة تميز الأرستقراطيين عمن سواهم؛ ويجد مثاليته وعذره في عظمة مهمتهم. لقد كان جمال أمراء الكنيسة الباهر ورقتهم برهانا على حقيقة الكنيسة؛

والخشونة المؤقتة التي نلمسها لدى رجال الدين (كما حدث في زمن لوثر) تؤدي بنا على اعتقاد العكس. — فهل سيكون مصير نتيجة الجمال والرقة الإنسانيين، اللذين نجدهما في تناغم الوجه والعقل والمهمة، هو الزوال بزوال الأديان؟ وهل سيتعذر على الإنسانية بلوغ شيء أسمى من هذا، أو حتى التفكير فيه؟

61

التضحية الضرورية. — هؤلاء الرجال الجديين، الأقوياء، الأوفياء، والشديدو الحساسية الذين لا يزالون مسيحيين كرماء: يكون من الواجب عليهم اتجاه أنفسهم أن يحاولوا مرة واحدة، خلال فترة معينة من الزمن، أن يعيشوا دون مسيحية؛ يقتضي منهم إيمانهم أن يتخذوا من «الصحراء» مسكنا لهم ليصبح لهم الحق في أن يعتبروا حكاما بخصوص مسألة معرفة مدى كون المسيحية ضرورية. في انتظار حدوث ذلك يظلون مرتبطين بالأرض التي يزرعونها ويلعنون كل ما يوجد خارجها: بل إنهم يغضبون إذا سمعوا أحدا يقول بأن العالم كله يوجد خارج تلك الأرض، وبأن المسيحية ما هي، في مجملها، سوى زاوية منعزلة! كلا، لن يكون لشهادتكم أي وزن إلا بعد أن تعيشوا عدة سنوات من غير المسيحية، مع عزمكم الأكيد على أن لا يصبح لوجودكم، على العكس، أية علاقة بالمسيحية: أي حتى تبتعدوا عنها أشد ما يكون البعد. فحين لا يكون الحنين هو ما يجعلكم تعودون إلى الحظيرة، بل حكما مبنيا على مقارنة صارمة، فسيكون لعودتكم معنى! — سيقوم رجال المستقبل بالتعامل على هذا النحو مع كل أحكام القيمة التي يرثونها من الماضي؛ يجب أن يعيشوها عن اختيار، ويعيشوا نقيضها كذلك، ليكون لهم الحق في نهاية المطاف في اختيار أفضلها.

62

أصل الأديان. — كيف يحق لشخص ما أن يعتبر رأيه الخاص في الأشياء وحيا؟ هاته هي مشكلة أصل الأخلاق: فالشخص الذي تكون لديه هاته الظاهرة

ممكنة يقوم بتأسيس ديانة ما. الشرط الأساسي هو أن يكون من الذين يؤمنون بالوحي. فجأة تراوده فكرة جديدة، فكرته، وبقوة شديدة تخامر وعيه نشوة فرضية كبيرة وشخصية تتعلق بالوجود والعالم بأسره، بحيث لا يجرؤ على الاعتقاد بأنه هو مبدع تلك الغبطة الغامرة، وبالتالي يعزو سببها، وكذلك سبب تلك الفكرة الجديدة، إلى إلهه: فيعتبرهما وحيا من ذلك الإله. كيف يكون إنسان ما مصدرا لتلك الغبطة الكبيرة؟ — قد يتساءل أحد المتشائمين. هناك مؤثرات أخرى تعمل في الخفاء: فالمرء يحصن رأيه في نظره حين يعتبره وحيا، إذ يجردها من كل ما هو افتراضي، ويخرجها من نطاق الانتقاد والشك، ويجعلها مقدسة. صحيح أن المرء يحط من قيمته بجعل نفسه مجرد أداة، ولكن فكرته تصبح ظافرة في نهاية المطاف تحت مسمى الفكرة الربانية، — فينتصر معها إحساس المرء بكونه سيظل ظافرا على الإحساس بالإذلال. هناك إحساس آخر يعتمل في الخلفية: حين يبوء المرء ما أنتجه مكانة أسمى من — مكانته، متظاهرا بغض الطرف عن قيمته هو، فإنه يحتفظ مع ذلك بنوع مرح من الحب الأبوي، والفخر الأبوي الذي يمحو كل شيء، بل يقوم بأكثر من مجرد المحو.

63

بغض القريب. — إذا سلمنا باعتبارنا لقريبنا مثلما يعتبر هو نفسه — يسمي شوبنهاور ذلك عطفا على الآخر، والأدق هو أن نعتبره عطفا على الذات، — فسنكون مجبرين على بغضه إذا كان يعتبر نفسه، مثل باسكال، شخصا بغيضا. وقد كان هذا هو شعور باسكال عموما تجاه البشر، وكذلك شعور المسيحية القديمة التي تم «إقناعها»، نحن حكم نيرون، ببغض الجنس البشري، مثلما يروي لنا ذلك طاسيت.

64

اليائسون. — تلمك المسيحية حاسة تعرف بها أولئك الذين يمكن دفعهم، بطريقة أو بأخرى، إلى اليأس، — والدي لا يقدر عليه إلا جزء من الإنسانية. أنها

لا تفتأ تطاردهم، وتكمن لهم. وقد جرب باسكال دفع كل الناس إلى اليأس، بواسطة المعرفة الجارحة؛ — بيد أن المحاولة باءت بالفشل، مخيبة بذلك لأمله من جديد.

65

البراهمانية والمسيحية. — هناك عدة وصفات لبلوغ الإحساس بالقوة: منْ جهة بالنسبة للذين يستطيعون الإمساك بزمام أنفسهم وبالتالي يعتبر هذا الإحساس مألوفا لديهم، ومن جهة أخرى بالنسبة للعاجزين عن بلوغه. وقد اعتنت البراهمانية بالرجال الذين ينتمون للفئة الأولى، والمسيحية بالمنتمين للفئة الثانية.

66

ملَكة الرؤيا. — كانت السمة الحقيقية المميزة للإنسانية في العصور الوسطى هي ملكة الرؤيا — أي أن تصاب باضطراب دماغي شديد! والواقع هو أن قواعد الحياة، التي تخص كل الرجال المتفوقين في العصور الوسطى (أي رجال الدين)، تهدف إلى جعل الإنسان قادرا على الرؤيا. فما المدهش في كون التقدير الذي نكنه للأشخاص المضطربي الفكر، الغريبي الأطوار، المتعصبين، الذين نزعم أنهم نوابغ، لم يتغير حتى يومنا هذا؟ «لقد رأوا أشياء لا يراها غيرهم» — هذا شيء أكيد! ولكنه شيء يجب أن يجعلنا نحذرهم ولا ننخدع بهم!

67

أجر المؤمنين. — الذي يصر على أن نؤمن بكونه يضمن لنا الجنة مقابل إيماننا به، وبأنه يضمنها لكل الناس، حتى للصوص وهم على الصليب، — لا شك أنه قد عانى من شك رهيب، وعرف مختلف أشكال الصلب: وإلا لما قدم للمؤمنين به مثل هذا الأجر الكبير.

أول مسيحي. — لا يزال العالم بأسره يؤمن بكون «روح القدس» مؤلفا، أو يعاني من ردات فعل هذا — الإيمان: يفتح المرء الإنجيل «ليربي نفسه على الفضيلة»، ليبحث عن كلمة تواسيه في فقره، سواء كان هذا الفقر قليلا أو شديدا، — باختصار نقول بأن الناس يبحثون فيه عن أنفسهم ويجدونه فيه. أما كونه يروي لنا قصة رجل شديد الطموح والإزعاج، رجل ماكر ومؤمن بالخرافة، وهي قصة الحواري بولس Paul — فلا يعرف ذلك غير عدد قليل من العلماء؟ غير أنه لولا هاته القصة الفريدة من نوعها، لولا البلبلة والاضطراب الذي يميز عقل هذا الرجل وروحه لما كان هناك عالم مسيحي؛ ولكان كل ما سمعنا عنه بالكاد هو طائفة يهودية صغيرة مات سيدها مصلوبا. ولو فهم الناس هاته القصة في إبانها، لو قرأوا، قراءة فعلية، ما كتبه القديس بولس، لا كما يقرأون ما أتى به «روح القدس»، بل باستقامة عقل حر ومندفع، دون أن يفكروا في ضيقهم الشخصي — لم يكن هناك قراء من هذا النوع على مدى خمسة عشر قرنا ـ، لانتهى أمر المسيحية منذ أمد طويل: صحيح أن ما كتبه باسكال اليهودي هذا تكشف لنا أصول المسيحية، تماما كما يكشف لنا ما كتبه باسكال الفرنسي قدَره وسبب المصير المحتوم الذي آل إليه.

إذا كانت المسيحية قد تخلصت من جزء كبير من الثقل اليهودي، ودخلت، استطاعت الدخول إلى عالم الوثنية، — فإنها تدين بذلك لرجل واحد، رجل معذَّب، وجدير بالرثاء، رجل يرى نفسه كريها ويراه الناس كريها. كان يعاني من فكرة متسلطة، أو بالأحرى من سؤال متسلط، سؤال حارق يلح عليه باستمرار: ما مصير الشريعة اليهودية؟ وماذا عن تطبيقها؟ لقد أراد إبان شبابه أن يرضي نفسه بهاته الشريعة، متلهفا للحصول على ذلك التميّز الكبير الذي يستطيع اليهود تخيله، — هذا الشعب الذي بلغ بتخيل السمو الأخلاقي مقاما أسمى مما بلغه أي شعب آخر، والذي ضم لوحده خلق الله المقدس، مع اعتباره فكرة الخطيئة انتقاصا من تلك القداسة. أصبح القديس بولس هو المدافع المتحمس الذي يذود عن حياض هذا الإله وشريعته. يقف على الدوام بالمرصاد لكل الذين يخرقون مبادئ تلك الشريعة أو يثيرون الشكوك حولها، يكون صارما معهم وقاسيا مستعدا

لأن ينزل بهم أشد العقاب. وحدث أن اكتشف من خلال تجاربه أنه لن يستطيع هو نفسه تطبيق تلك الشريعة – وهو الرجل العنيف، الشهواني، السوداوي المزاج، الذي يتفنن في جعل الحقد أكثر دقة ـ؛ والأدهى من ذلك، وهو ما بدا له أمرا غريبا، لقد تنبه إلى أن طموحه الذي لا حد له يدفعه باستمرار لخرق تعاليمها وبأنه مضطر للاستجابة له. فهل يكون «الميل إلى الشهوات الجسدية» هو الذي يضطره، بشكل متجدد، إلى خرق تعاليم تلك الشريعة؟ أليست تلك الشريعة نفسها هي التي تدفعه بشكل شديد الإغراء، نظرا لصعوبة تطبيقها، إلى خرق تعاليمها، وهو أمر شك فيه لاحقا؟ ولكنه لم يكن في ذلك الوقت قد أدرك هاته الذريعة بعد. ربما كان يلوم نفسه، مثلما يلمِّح إلى ذلك، على الحقد، والجريمة، وممارسة السحر، وعبادة الأوثان، والفسق، وإدمان الخمر، واستمتاعه بالفجور والتهتك – ومهما يكن الجهد الذي بذله لإراحة ضميره ورغبته في الهيمنة، من خلال ذلك التعصب الشديد الذي يتسم به دفاعه عن الشريعة واحترامه لها، فإنه تأتي عليه لحظات يقول فيها لنفسه: «لن يجديني كل هذا نفعا! فالعذاب الذي أشعر به نتيجة عدم تنفيذ الشريعة يتجاوز قدرتي على التحمل.»

لا شك أن لوثر قد انتابه نفس الشعور حين أراد أن يصبح، في رواق الدير الذي كان فيه، رجل المثل الكنسي الأعلى، وما حدث للوثر – الذي أصبح يوما يبغض المثل الكنسي الأعلى، والبابا، وقديسيه، وكل رجال الدين، بغضا شديدا للغاية بحيث لم يستطع أن يقر بذلك لنفسه – حدث كذلك للقديس بولس. أصبحت الشريعة هو الصليب الذي يشعر بأنه مصلوب عليه:لذلك يكرهها أشد ما تكون الكراهية. ويكن لها الضغينة. وأخذ يبحث في كل مكان عن وسيلة للقضاء عليها – وليس لكي يطبقها. وفجأة أنار ضوء النهار عقله، بفضل رؤيا رآها، بما أن الأمر لا يمكن أن يكون خلاف ذلك لدى هذا المصاب بداء الصرع، أتته فكرة مخَلصة: رأى هذا المتحمس غاية الحماس للشريعة، والذي يشعر في قرارة نفسه بالضجر الشديد منها، رأى على طريق خالية صورة المسيح تحيط بوجهه هالة من النور، وسمعه يقول له: «لماذا تضطهدني؟» وحقيقة ما جرى هي كالتالي: استنار عقله فجأة فقال لنفسه: «من الحماقة أن أضطهد هذا المسيح!

هاته هي الذريعة التي كنت أبحث عنها، هذا هو الانتقام التام، هذا دون سواه هو هادم هذه الشريعة!» بهذا شعر المريض المعَذَّب كبرياؤه أنه استعاد عافيته، وتخلص من يأسه الأخلاقي لأن الأخلاق زالت، لم يعد لها وجود — أي أنها تجسدت هناك فوق الصليب! لقد ذلك الموت المخجل حتى تلك اللحظة هو الحجة الأساسية التي يواجه بها «دعوة الرب المسيحية» التي كان يتحدث عنها أتباع العقيدة هذه الجديدة: ولكن ماذا سيحدث لو أن ذلك الموت كان ضروري لإلغاء الشريعة؟ — أخذت عواقب تلك الفكرة المفاجئة، التي أتته بحل للغز، تتراقص أمام عينيه، فأصبح بين عشية وضحاها أسعد الناس، — بدا له مصير اليهود، بل مصير الإنسانية كلها، مرتبطا بدلك الإشراق الفجائي الوجيز، أصبح يمتلك أم الأفكار، ومفتاح المفاتيح، ونور الأنوار، أصبح هو المحور الذي يدور حوله التاريخ! ومنذ ذلك الوقت أصبح هو حواري القضاء على الشريعة! الذي يموت شريرا لا يموت مخالفا الشريعة؛ والذي يحيا مستسلما للشهوات الجسدية يحيا وفقا لتعاليم الشريعة! والذي يدخل في وحدة مع المسيح يصبح، مثله، هادما للشريعة؛ والذي يموت على طريقة المسيح يموت وفقا للشريعة! «أنا خارج عن الشريعة»، قال، ثم أضاف: «ولو أردت الآن أن أومن بها من جديد وأتبع تعاليمها لجعلت من المسيح شريكا لي في الخطيئة»؛ لأن الشريعة لا توجد إلا لتنتج لنا الخطيئة، مثلما الدم الفاسد يجعل المرض يرشح خارج الجسد؛ لو كان تطبيق الشريعة ممكنا من غير موت المسيح لما أماته الله؛ لم تعد كل الخطايا مباحة لنا فقط، بل إن الخطيئة نفسها قد ألغيت فلم يد لها وجود؛ لقد ماتت الشريعة، ومات العقل الشهواني الذي كانت تعيش فيه — أو هو الآن يموت، ويتفسخ. مصير المسيح هو أن يعيش بضعة أيام يتفسخ خلالها قبل أن يتحد بالمسيح ويبعث معه، مشاركا له في صنع مجد الرب، ويصبح «ابن الله» كالمسيح! — هنا يبلغ حماس القديس بولس قمته وكذلك وقاحته، — لقد جعلته فكرة الاتحاد مع المسيح عديم الحياء، والاتزان، والامتثال، وأصبحت رغبته الجامحة في السيطرة تتجلى في انتشاء يسبق نيل المجد الرباني. — هكذا كان المسيحي الأول، مبتكر المسيحية! فقبله لم تكن هناك سوى بعض الطوائف اليهودية.

69

فريد من نوعه. — هناك شد بين الحسد والصداقة، وبين احتقار الذات والكبرياء: النوع الأول هو الذي عرفه الإغريق، والثاني عرفه المسيحيون.

70

فائدة العقل الفظ. — الكنيسة المسيحية موسوعة تجمع العبادات السابقة، والتصورات المتعددة المصادر، وهذا هو ما يحقق لها النجاح في مهامها: كان بوسعها، ولا يزال، أن تذهب حيث شاءت، إذ كانت تجد هناك، ولا تزال حتى الآن، شيئا يشبهها، شيئا يمكنها أن تقارن نفسها به، وتحل محله بالتدريج. ولا سبب تطور هاته الديانة العالمية إلى الجانب المسيحي فيها، بل إلى الجانب الوثني في عاداتها؛ فأفكارها التي تستمدها من العقل اليهودي وفي العقل الإغريقي قد عرفت كيف تسمو، منذ البداية، فوق اختلاف الأعراق والأمم وفوق الأحكام المسبقة. حتى وإن كان من حقنا أن نبدي إعجابنا بالقوة التي تجمع بها بين الأشياء المختلفة، فإنه لا يجب أن ننسى الجوانب الحقيرة في تلك القوة، — فظاظتها المذهلة، ورزانة عقلها التي مكنتها، لحظة تَشَكل الكنيسة، من التكيف مع كل الأنظمة وتتمثل كل التناقضات كما تتمثل الأحجار.

71

انتقام المسيحية من روما. — قد لا يكون هناك ما هو أشد إثارة للضجر من الشعور الدائم بالظفر، — رأينا روما تقوم على مدى قرنين من الزمن بإخضاع الشعوب واحدا تلو الآخر، إلى أن اكتملت الدائرة، وبدا المستقبل وكأنه قد توقف، فقد أعد كل شيء ليكون خالدا، — ذلك أن الإمبراطورية حين كانت تشيد المآثر تفعلَ ذلك بنية «جعلها خالدة»؛ — ونحن الذين لا نعرف سوى «كآبة الأطلال» لا نكاد نفهم تلك الكآبة الأخرى التي هي كآبة الصروح الخالدة، التي كان

على الناس أن يحاربوها بما أوتوا من وسائل، – باستخفاف هوراس مثلا. وهناك من بحثوا عن أشياء أخرى تواسيهم ضد الضجر الذي يكاد يصبح يأسا، وضد وعيهم القاتل بكون كل ما قد يقوم به العقل والقلب من ذلك الوقت فصاعدا سيكون عملا يائسا، وبأنه في كل مكان تترصدهم تلك الرتيلاء الضخمة التي ستشرب بلا شفقة كل دم يسيل. – ذلك الحقد الذي يشعر به متفرج ضجِر، حقد عمره قرن من الزمن، منتشر في كل البقاع التي تهيمن عليها روما، وَجد أخيرا وعاء يستوعبه، إنها المسيحية التي لخصت روما، و«العالم» و«الخطيئة» في إحساس واحد، انتقمت من روما بإعادتها المستقبل إلى مسرح الأحداث مرة أخرى – فقد حولت روما كل شيء إلى تاريخ لماضيها وحاضرها – مستقبل لن تتحمل روما مقارنة نفسها معه؛ انتقمت من روما بحلمها بيوم القيامة، – وبدا اليهودي المصلوب، رمز الخلاص، مقارنة مع حكام الأقاليم الرومانيين العظماء، سخرية كبيرة، إذ أصبحوا بعد ذلك يبدون رموزا الهلاك و«العالم» الذي غدا مهيأ للسقوط.

72

«ما بعد الموت». – وجدت المسيحية تصور مختلف أصناف العذاب الجهنمي عبر أنحاء الإمبراطورية الرومانية:فقد حظيت هاته الفكرة بمراعاة خاصة من طرف العقائد الباطنية، وكأنها هي أشد مناطق قوتها خصوبة. كان أبيقور يرى أن أفضل ما قد يفعله من أجل بني جلدته هو أن يستأصل ذلك الاعتقاد من جذوره: وقد وجد انتصاره أفضل صدى له في فم أحد أتباع عقيدته، وهو الروماني لوكريس، الذي ذاع صيته بعد أن كان مغمورا. ومن سوء حظه أن انتصاره جاء مبكرا جدا، – فقد تبنت المسيحية فيما بعد الإيمان بفظاعات ستيكس، ذلك الإيمان الذي كان قد بدأ يتلاشى، وقد أحسنت صنعا بفعلها ذلك! إذ لولا تلك الضربة الجريئة التي وجهتها للوثنية لما استطاعت أن تنتصر على شعبية عقائد ميترا وإيزيس. وهكذا كسبت الهلوعين، – وهم الذين يؤمنون بحماس بكل ديانة جديدة! لم يكن اليهود، وهم الشعب الحريص على الحياة مثل الإغريق، بل أكثر من الإغريق، قد

أولوا لهاته الفكرة اهتماما كبيرا. الموت النهائي، كعقاب لمرتكب الخطيئة، الموت الذي لا يعقبه بعث، كتهديد ليس بعده تهديد، — هذا هو ما كان يؤثر في أولئك الرجال الفريدين الذين لم يكونوا يريدون التخلص من أجسادهم، والذين كانوا يتمنون، كالمصريين القدماء، أن ينقذوها إلى الأبد. (أحد الشهداء اليهود الذين يتحدث عنهم الكتاب الثاني من المكابيين لا يفكر في التخلي عن أحشائه التي انتزعت منه، بل يحرص على أن يستردها حين يبعث الموتى — هذا من سمات اليهود!) لم يكن المسيحيون الأوائل يعرفون العذاب الأبدي، كانوا يعتقدون أنه قد تم تخليصهم «من الموت» وكانوا ينتظرون أن يطرأ عليهم، اليوم أو غدا، تحول وليس أن يصيبهم الموت. (يا للتأثير الغريب الذي ستكون قد خلفته بين صفوفهم أول وفاة عاينوها! سيكون مزيجا من الاندهاش، والفرحة، والريبة، والحياء والشوق! — هذا موضوع يليق بنبوغ فنان كبير!) لم يجد القديس بولس ما يثني به على مخَلصه أفضل من قوله بأنه فتح أبواب الخلود أمام الكل، — لم يكن وقتها يؤمن ببعث من لم يتحقق لهم الخلاص؛ بل كان لا يصدق، بسبب اعتقاده بأن الشريعة صعبة التطبيق كلية، وبكون الموت نتيجة لارتكاب الخطيئة، بأن أحدا ما قد أصبح خالدا (ما عدا عددا قليلا من المصطفيْن الذين من عليهم الله بذلك دون أن يستحقوه)؛ الآن فقط بدأت أبواب الخلود تفتح أمام الناس، — وقليل من المصطفيْن من سيلجها: وغرور المصطفى قد يحول بينه وبين الخلود. في أماكن أخرى، حيث لم تكن غريزة الحياة بنفس القوة التي كانت عليها لدى اليهود واليهود المسيحيين، ولم يكن الخلود يبدو أفضل من الموت النهائي، أصبحت إضافة الجحيم، وهي فكرة وثنية ولا شك، ولكنها لا تناقض ما عند اليهود تماما، وسيلة ملائمة يستخدمها المبشرون: آنذاك ظهرت عقيدة خلود مرتكب الخطيئة ومن لم يتحقق له الخلاص، وكذلك عقيدة العذاب الأبدي، التي أصبحت أقوى من فكرة الموت النهائي التي شرعت في التلاشي منذ ذلك الوقت. ولما جاء العلم أعاد اكتشاف هاته الفكرة، مبعدا في نفس الوقت أي تمثل للموت وأي شكل من أشكال الحياة بعد الموت. أصبح ينقصنا شيء مهم: لم تعد الحياة «بعد الموت» تعنينا! — أنها نعمة كبيرة، وإن كنا حديثي العهد بها بحيث لا يمكن اعتبارها كذلك في العالم كله. — ها هو أبيقور ينتصر من جديد!

73

من أجل «الحقيقة»! — «لقد تمت البرهنة على حقيقة المسيحية من خلال السلوك الفاضل للمسيحيين، وتحملهم الشديد للعذاب، وإيمانهم الراسخ، وقبل هذا وذاك بانتشار المسيحية رغم المحن التي مرت بها.» — ألا زلتم تتحدثون اليوم بهذا الشكل! إنه لأمر مثير للشفقة! اعلموا إذن أن كل هذا لا يبرهن على شيء، لا من أجل الحقيقة ولا ضدها، وأنه يجب أن نبرهن على الحقيقة بغير الطريقة التي نبرهن بها على الصدقية، وبأن هاته الأخيرة ليست بأي حال من الأحوال حجة نخدم بها الأولى.

74

الفكرة المبطنة المسيحية. — ربما كانت لدى الأجيال الأولى من المسيحيين عموما هاته الفكرة: «إقناع أنفسنا بأننا مذنبون أفضل من إقناعها بأننا أبرياء، لأننا لا نعرف كيف سيتصرف معنا القاضي الشديد القوة، — ونحن نخشى أن يكون ما يتمناه هو أن يجد فقط مذنبين واعين بذنوبهم. فقوته الشديدة قد تجعله يعفو عن مذنب ولا يعترف بأنه من حقه أن يذنب.» — هكذا كان السكان يشعرون أمام الحاكم الروماني لإقليمهم: «كبرياؤه الشديد يجعلنا لا نجرؤ على القول بأننا أبرياء.» لماذا لم يظهر هذا الإحساس من جديد عندما أراد المسيحيون أن يتمثلوا صورة الحاكم الأعلى!

75

لا أوربي ولا نبيل. — هناك في المسيحية شيء شرقي وشيء أنثوي: هذا ما تكشفه الفكرة التي تعني الرب بقولها «الصادق في الحب صارم في العقاب»؛ لأن النساء الشرقيات يعتبرن عقاب أزواجهن لهن وحبسهن في البيوت دليلا على حبهم لهن، وحين لا يتصرف الأزواج على هذا النحو يشتكين.

إساءة الظن إفساد بالفعل. — تصبح الأهواء سيئة وخؤونة حين نعتبرها سيئة وخؤونة. هكذا تمكنت المسيحية من أن تجعل من إيروس وأفروديت — وهما القوتان الرائعتان القادرتان على المثالية — شيطانين وروحين مخادعين، ببثها في ضمير المؤمنين، كلما شعروا بإثارة جنسية، شعورا بالندم يبلغ حد التعذيب. أليس أمرا مروعا أن يتم تحويل أحاسيس ضرورية ومنتظمة لدى الناس إلى مصدر للتعاسة الداخلية، وبالتالي جعل تلك التعاسة الداخلية، عمدا، شيئا ضروريا ومنتظما لديهم! ورغم كون هاته التعاسة تظل سرية فإن جذورها عميقة للغاية: لأن الناس لا يملكون الشجاعة التي اعترف بها شكسبير في قصائده بالظلمة التي أسدلتها المسيحية على هذا المجال. — الشيء الذي يجب علينا أن نقاومه باستمرار، وأن نحبسه داخا حدوده، أو نخرجه نهائيا، في بعض الحالات، من نطاق تفكيرنا، هل يجب أن ننعته دائما بأنه شيء سيء؟ أليس من عادة الأفظاظ أن يعتبروا العدو شريرا على الدوام؟ ما يميز الإحساس الجنسي، ومشاعر الشفقة والافتتان، هو كون الإنسان الذي يشعر بها يعود بالنفع، وهو يحقق لنفسه متعة، على إنسان آخر — ونادرا ما نصادف في الطبيعة مثل هذا الاستعداد للإحسان إلى الآخرين! وأحد هذه الاستعدادات هو الذي نفتري عليه ونفسده بتبكيت الضمير! نجعل إنجاب الإنسان يسبب تبكيت الضمير! — ولكن وصف إيروس بالشيطان قد انتهت نهاية هزلية في نهاية المطاف: أصبح «الشيطان» إيروس شيئا فشيئا أهم لدى الناس من الملائكة والقيسين، بفضل تكتم الكنيسة على كل الأمور الغرامية والمظاهر الغامضة التي تصفها بها: بفضل الكنيسة أصبحت قصص الحب الشيء الحقيقي الوحيد الذي تشترك في الاهتمام به كل الأوساط، — بمبالغة قد لا يفهمها القدماء — والتي ستثير الضحك ولا شك ذات يوم. في شعرنا، وفكرنا، من أقصاهما إلى أقصاهما، يحظى الحب بأهمية كبيرة، ونقدمه دائما على أنه هو الحدث الأبرز. وربما يجعل هذا الحكم الأجيال القادمة تجد في موروث الحضارة المسيحية شيئا حقيرا ومهووسا.

عذابات الروح. — إذا رأى الناس شخصا يعذب جسم غير جسمه فإن أصواتهم تتعالى احتجاجا عليه؛ يعبرون تلقائيا عن سخطهم على الإنسان الذي يبدي قدرة على تعذيب غيره؛ بل إن جلودنا تقشر لمجرد تصورنا العذاب الذي قد يتعرض له إنسان أو حيوان، وتصبح معاناتنا أمرا لا يطاق إذا سمعنا الحديث عن شيء من هذا القبيل. ولكننا أبعد من الشعور بنفس الإحساس، العارم والصارم، حين يتعلق الأمر بتعذيب الروح وما يحويه من فظاعات. لقد استخدمته المسيحية بطريقة شاذة ولا تزال تدعو إلى ممارسة هذا النوع من التعذيب، بل إنها تصف النفوس التي لا تقوم بذلك بالفتور والإخلال بالواجب. وينجم عن هذا كون الإنسانية لا تزال حتى اليوم تواجه المحارق التي تنصب للروح، وتعذيب الروح والوسائل التي يستخدمها، بنفس الصبر ونفس التردد الناتجين عن الخوف اللذين كانت تواجه بهما الأعمال الوحشية التي تمارس على أجساد الناس أو الحيوانات. أجل، لم يظل الجحيم كلمة دون معنى؛ والخوف من الجحيم الذي ظهر حديثا يقابله نوع جديد من الشفقة، شفقة مروعة وثقيلة، لم تكن معروفة فيما مضى، على الذين حكم عليهم «بالهلاك الأبدي»، الشفقة التي يظهرها ضيف بطرس لدون جوان على سبيل المثال، على مدى القرون المسيحية، غالبا ما أنَّت من ثقلها الأحجار. يقدم لنا پلوتارخ صورة غامضة عن حالة الرجل الذي يؤمن بالخرافة في المجتمع الوثني: وتصبح هاته الصورة غير ذات قيمة حين نقابلها بصورة المسيحي في القرون الوسطى الذي يزعم أنه لن يفلت من «العذاب الأبدي». تتراءى له الكثير من الأمارات: ربما في صورة لقلاق يمسك أفعى بمنقاره مترددا في ابتلاعها. أو يرى الطبيعة فجأة تصبح شاحبة اللون، أو ألوانا ملتهبة تجري أمامه على الأرض. أو تظهر له أشباح أقاربه من الموتى وعلى وجوهها أمارات عذاب فظيع. أو تسطع الأنوار على الجدران المظلمة لغرفة الشخص النائم، ووسط دخان أصفر تظهر له أدوات التعذيب، وركام من الأفاعي والشياطين. لقد جعلت المسيحية من هاته الأرض مقاما مرعبا، وذلك بمطالبتها بأن تقام الصلبان في كل مكان، لتصبح الأرض بالتالي كمكان «يعذَّب فيه العادل حتى الموت»! وحين يعرض أحد الوعاظ المتحمسين أمام الملأ التعذيب السري

الذي يتعرض له شخص ما، التعذيب الذي يتم في «غرفة معزولة»، حين يقوم واعظ مثل وايتفيلد Whitefield بوعظ الناس وكأنه «ميت يعظ الأموات»، باكيا بحرارة تارة، ضاربا بقدمه الأرض بقوة تارة أخرى، متكلما بحماس شديد، بنبرة قوية وصارمة، دون أن يخشى احتمال أن ينصب هجومه على شخص واحد من الحضور، فيخرجه من الجماعة بقسوة مبالغ فيها، ألا يبدو حينها أن الأرض تريد أن تصبح «حديقة الشر»! نرى هناك أناسا أتوا بكثافة، جماعات إثر جماعات، وكأنما أصابتهم نوبة من الجنون؛ كثيرون منهم قد ألأم بهم الغم؛ وآخرون قد وقعوا مغشيا عليهم بلا حراك؛ وآخرون يرتعشون بقوة، أو يمزق صراخهم الحاد سكون الأجواء لساعات طوال. في كل مكان تسمع التنفس المتقطع لأناس شبه مخنوقين يتنفسون بصعوبة. «كل الأصوات التي كانت تصل إلى مسامعنا، يقول أحد شهود العيان الذين حضروا تلك الموعظة، تبدو ناتجة عن العذاب المرير المسلط على المحتضرين.» — يجب ألا ننسى بأن المسيحية هي التي جعلت من فراش الموت فراش عذاب، وبأن المشاهد التي يراها الناس، والنبرات المرعبة التي أصبحت تميز الكلام الذي يسمعونه عند المحتضر قد سممت حواس ودم الكثير منهم طيلة حياتهم وعلى امتداد حيوات أحفادهم! لنتصور رجلا ساذجا لا يستطيع أن يمحو من ذاكرته كلمات مثل هذه: «أيتها الأبدية! ليتني كنت بلا روح! ليتني لم أولد! أنا هالك، هالك، لقد ابتلعتني مملكة الضياع إلى الأبد! كان بوسعك مساعدتي قبل ستة أيام. أما الآن فقد قضي الأمر. أصبحت ملكا للشيطان، ومعه أريد أن أذهب إلى الجحيم. ألا تحطمي أيتها القلوب المتحجرة البئيسة! ألا تريدين أن تتحطمي؟ ماذا عسانا نفعل أكثر من هذا من أجل قلوب متحجرة؟ إنني أهلك ليكون لكم الخلاص! ها هو قادم! أجل، ها هو قادم! تعال، أيها الشيطان الطيب ! تعال !»

78

العدالة المنتقمة. — لقد وضعت المسيحية المصيبة والخطيئة في نفس الميزان: بحيث يحين تكون المصيبة الناجمة عن الخطيئة كبيرة يتم بشكل لاإرادي قياس عظم الخطيئة القديم، حتى في الوقت الحاضر، تبعا لتلك المصيبة. ليس هذا قياسا

عتيقا، وهذا هو ما يجعل التراجيديا الإغريقية، التي تكثر من تناول موضوع المصيبة والخطيئة، وإن كانت تفعل ذلك من منظور آخر، إحدى أكبر محررات العقل، وذلك بقدر لم يكن الأقدمون أنفسهم قادرين على فهمه. فهم لم يكونوا يعيرون المصيبة والخطيئة اهتماما كبيرا ليقيموا بينهما «علاقة مناسبة». فإثم أبطالهم التراجيديين في الواقع هو الحجر الذي يتعثرون فيه فيقعون وتتكسر ذراعهم، أو تفقأ أحد عيونهم؛ على إثر ذلك يقول إحساس القدماء: «كان عليه أن يمضي في طريقه بمزيد من الحذر وقليل من الخيلاء!» ولكن المسيحية هي التي ترك لها أن تقول: «هاته مصيبة كبيرة ومما لا شك فيه أن وراء حدوثها إثم كبير، إثم كبير خفي عن الأنظار وإن كنا لا نستطيع تمييزه بوضوح! فإن لم تشعر بهذا أيها الشقي فلأن القسوة قد غلفت قلبك. — وستصيبك أمور أشد هولا من هاته!» في العصور السابقة على المسيحية كانت هناك مصائب حقيقية، مصائب خالصة؛ والمسيحية هي التي جعلت من كل عقوبة شيئا مستحقا: المسيحية تزيد من معاناة خيال الذي يعاني، بحيث أن أدنى مصيبة تصيبه تجعله يشعر بأنه مغضوب عليه أخلاقيا ويستحق اللوم. يا لتعاسة الإنسانية! يستخدم الإغريق كلمة خاصة لوصف الشعور بالغضب الذي ينتاب المرء حين يصاب غيره بمصيبة ما: أما لدى الشعوب المسيحية فهذا الشعور شيء محرم، لذلك لا نجد فيه كلمة لشقيق الشفقة القوي هذا.

79

اقتراح. — إذا كنا بغيضين، وفق ما يقوله باسكال هو والمسيحية، فكيف نسمح أو نقبل أن يحبنا الآخرون — سواء تعلق الأمر بالله أو بالناس؟ سيكون من المخالف للياقة أن ندع الآخرين يحبوننا والحال أننا لا نستحق منهم إلا البغض، — حتى لا نتحدث عن مشاعر النفور الأخرى — «ولن ثمة تكمن مملكة الإحسان.» — حبك لقريبك إحسان إذن؟ شفقتك إحسان؟ حسنا! تقدم خطوة أخرى إذا أمكنك ذلك: أحب نفسك بدافع الإحسان، — وحينها لن تعود في حاجة إلى الله، وستتكرر مأساة السقوط والخلاص فيك إلى نهايتها!

80

المسيحي الرؤوف. — للرأفة المسيحية أمام معاناة القريب وجه آخر: إنه الارتياب في فرحة القريب، الفرحة التي يجلبها له كل ما يريد، كل ما يستطيع .

81

إنسانية القديس. — تاه أحد القديسين وسط المؤمنين فلم يتحمل كراهيتهم المستمرة للخطيئة. وانتهى به الأمر أن قال: «لقد خلق الله كل شيء، ما عدا الخطيئة: فما الغريب في أن لا يريد له الخير؟» — ولكن الإنسان أوجد الخطيئة — وسيظل يبعد هذا الابن الوحيد الذي أنجبه فقط لكونه لا يرضي الرب، جد الخطيئة: فهل هذا عمل إنساني؟ السيد يستحق الاحترام الواجب له! — بيد أن القلب والواجب عليهما أن يدافعا على الطفل قبل كل شيء — وبعد ذلك فقط يدافعان عن الاحترام الواجب للجد!»

82

العدوان الروحي. — «عليك أن تقرر بشأن هذا أنت وحدك، لأن حياتك هي التي يتعلق الأمر بها هنا.» لوثر هو الذي ينادينا هكذا معتقدا أنه بذلك يضع السكين على عنقنا. ولكننا نرده بكلمات من هو أسمى منه وأكثر تبصرا: «من حقنا ألا يكون لدينا أي رأي بخصوص هذا الشيء أو ذاك، وذلك حتى نجنب نفسنا القلق. لأن الأشياء، نظرا لطبيعتها، لا تستطيع إجبارنا على أن يكون لنا رأي.»

83

يا لتعاسة الإنسانية! — لو نقصت أو زادت قطرة واحدة من الدم في دماغنا لصارت حياتنا من جراء ذلك تعيسة وشاقة، بحيث سنعاني من هاته القطرة أكثر

من معاناة پروميثيوس من نَسْره. وتكون معاناتنا فظيعة أكثر حين لا نعلم أن تلك النقطة هي مصدرها، ونتخيل أن مصدرها هو «الشيطان» أو «الخطيئة»!

84

فقه لغة المسيحية. — يمكننا أن نعي قلة تطوير المسيحية لمعنى النزاهة والعدل بتحليلنا لكتابات علمائه: إنهم يطرحون فرضياتهم بكثير من الجرأة كما لو كانت أركان عقيدة، ونادرا ما يشعرون بالحرج الشديد عند تفسيرهم لمقطع من الإنجيل. ونقرأ لديهم باستمرار: «أنا على حق لأنه مكتوب هنا» -، وعندها تصدر عنهم بذاءة تعسفية في التفسير تستوقف فقيه اللغة تاركة إياه ما بين الغضب والضحك ليتساءل قائلا: أيمكن هذا! هل يدخل هذا في باب الصدق؟ هل هذا أمر لائق على الأقل؟ خيانة الكهنة الپروتستانت للنصوص فوق المنابر، والطريقة الفظة التي يستغل بها الواعظ عدم — قدرة أي كان على الرد عليه، ويشوه الإنجيل ويكيف نصوصه، فيعلم الشعب بمختلف الطرق فن القراءة الرديئة، — ولن ينكر هذا إلا الذي يذهب دائما إلى الكنيسة أو لا يذهب إليها أبدا. ولكن ماذا عسانا ننتظر من آثار ديانة مارست، على مدى عدة قرون، هذا التهريج الفقهي اللغوي بشأن العهد القديم؟ أقصد محاولة انتزاع العهد القديم من اليهود من خلال التأكيد على أنه لا يحتوي إلا على عقائد مسيحية وبأنه يجب أن يكون للمسيحيين دون سواهم، وهم شعب إسرائيل الوحيد، أما اليهود فما فعلوا غير انتحاله. واحتدم التفسير وإحلال نصوص محل أخرى بشكل لا يمت بصلة إلى الضمير الحي؛ ورغم احتجاجات اليهود فقد قال المسيحيون بأن العهد القديم يتحدث عن المسيح، وعنه فقط، في كل مكان منه، وخاصة عن الصليب، وكل النصوص التي تتحدث عن الخشب، أو قضيب الخشب، أو السُّلم، أو الغصن، أو الشجرة، أو القصب، أو العصا لا يمكن إلا أن تكون نبوءات لها علاقة بخشب الصليب: حتى انتصاب حيوان القارن أو الأفعى البرونزية، ووقوف موسى نفسه رافعا ذراعيه للصلاة، والرماح التي يشوى عليها الحَمَل پاسكال، — كل ذلك يعتبر إشارات إلى الصليب،

ومقدمات له، نوعا ما! والذين يدعون هاته الأشياء هل صدقوها بالفعل؟ بل لم تمادت الكنيسة حتى أمام الدس الذي حصل في نصوص مثل المزمور 96، الآية 10، لتاعتبر بعد ذلك للمقطع المدسوس نبوءة مسيحية. هذا لأنها كانت في حالة حرب وكانت تفكر في خصمها أكثر مما تفكر في الأمانة.

85

الدقة في الخصاص. — إياكم أن تسخروا من أساطير الإغريق، بذريعة أنها لا تشبه ميتافزيقاكم العميقة إلا قليلا! يجب أن تبدوا إعجابكم بشعب فرض على ذكائه الصارم أن يتوقف، في هاته الحالة الخاصة، وعرف خلال مدة طويلة من الزمن كيف يتفادى خطر الفلسفة المدرسية والخرافة السفسطائية.

86

المفسرون المسيحيون للجسد. — كل ما قد يكون مصدره المعدة، أو الأمعاء، أو نبضات القلب، أو الأعصاب، أو المرارة، أو المني — كل هذا الضعف، وهاته التوعكات، والتهيجات، وصُدف الآلة، الآلة التي لا نعرفها جيدا — كل هدا يعتبره مسيحي مثل پاسكال ظاهرة أخلاقية ودينية، ويتساءل عما إذا كان مصدره هو الرب أم الشيطان، الخير أم الشر، الخلاص أم الهلاك الأبدي. يا له من مفسر شقي، مع الأسف! كم يلزمه أن يلتف حول نظامه ويعذبه! كم عليه أن يلتف حول نفسه ويعذبها ليظل محافظا على رشده!

87

المعجزة الأخلاقية. — لا يعرف المسيحي في ميدان الأخلاق إلا المعجزة: التغيير المفاجئ لكل التقييمات، التخلي فجأة عن كل العادات، الميل المفاجئ نحو أشخاص أو أشياء جديدة. يعتبر هاته الظاهرة من فعل الرب ويسميها عملية

تجديدية، ويصفي عليها قيمة فريدة لا مثيل لها. — وكل ما لا يزال يسمى أخلاقية، ولا علاقة له بهاته المعجزة، لا يوليه المسيحي أية أهمية، بل قد يثير خشيته بسبب كونه إحساسا بالرفاهية والكبرياء. نجد في العهد الجديد القاعدة الخاصة بالفضيلة، بالشريعة التامة، ولكن بطريقة تجعل منها قاعدة الفضيلة المستحيلة: على الذين يطمحون إلى كمال أخلاقي أن يتعلموا، بالنظر إلى مثل هاته القاعدة، أن يشعروا أنهم يزدادون بعدا عن تحقيق هدفهم، عليهم أن ييأسوا من الفضيلة ويقدموا في نهاية المطاف على معانقة الكائن الرحيم، — وحدها هاته الخلاصة كانت تسمح للمجهودات الأخلاقية التي يبذلها المسيحي أن تحافظ على قيمتها، شريطة أن تظل تلك المجهودات عقيمة، وشاقة وسوداوية؛ فبذلك قد تستخدم لتوليد لحظة الانتشاء التي يشهد فيها الإنسان «فيض الرحمة»، والمعجزة الأخلاقية: — ومع ذلك يظل هذا الصراع من أجل الأخلاقية غير ضروري، لأنه هاته المعجزة كثيرا ما تنقض على المذنب في اللحظة التي تزدهر فيها آفة الخطيئة؛ بل يبدو الابتعاد المفاجئ عن الخطيئة الكبيرة والأساسية غاية في السهولة، ومرغوبا أكثر باعتباره دليلا واضحا على المعجزة. — الإحاطة بمعنى هذا التحول المفاجئ، غير المعقول والذي لا يمكن مقاومته، من التعاسة الشديدة إلى الإحساس الكبير بالرفاهية، من الناحية الفسلجية (هل يكون ذلك صرعا خفيا؟) — من اختصاص أطباء الأمراض العقلية الذين تتاح لهم الفرص الكافية لملاحظة مثل تلك «المعجزات» (كالهوس بالجريمة أو الانتحار مثلا). «النتيجة المرضية» التي يتم الحصول عليها، نسبيا على الأقل، في حالة المسيحي لا تشكل فارقا أساسيا.

88

لوثر، المحسن الكبير. — أهم ما فعله لوثر هو إثارة الريبة بخصوص القديسين والحياة التأملية بأكملها: فانطلاقا من عصره فقط أصبح من الممكن مرة أخرى سلوك الطريق المؤدية إلى حياة تأملية غير مسيحية، ووُضع حد لاحتقار النشاط العلماني. لوثر، ابن للعامل المنجمي هذا، لم يتغير حين وضعوه في الدير حيث غاص في أعماق نفسه، لأنه لم يجد هناك عمقا آخر ولا «مناجم ثراء»

أخرى، وحفر فيها سراديب مرعبة؛ وفي نهاية المطاف تنبه إلى أن حياته يستحيل أن تكون حياة قداسة وتأمل، وبأن «النشاط» الذي كان يمارسه منذ الولادة سيضنيه جسدا وروحا. وبعد قضائه وقتا طويلا في تعذيب نفسه بحثا عن الطريق الموصلة لقداسة اتخذ قرارا وقال لنفسه: «ليست هناك حياة تأملية حقيقية! لقد تم خداعنا طويلا! لم يكن القديسون سوى رجال مثلنا.» — لقد عبر بطريقة المزارعين عن كونه على صواب، — ولكن كان نو الوحيد المناسب لألمان تلك المرحلة: بما أنهم قد تعلموا أن يقرأوا في عقيدة لوثر: «باستثناء الوصايا العشر ليس هناك كتاب يمكنه أن ينال رضا الرب، — الأعمال الروحية التي كتبها القديسون، والتي طالما تم تمجيدها، هي محض خيال» !

89

الشك باعتباره خطيئة. — لقد فعلت المسيحية كل ما في وسعها لتحيط نفسها بدائرة مغلقة: فقد أعلنت بأن الشك يشكل، لوحده، خطيئة. يجب أن نقذف بأنفسنا في بحر الإيمان دون مساعدة من العقل، من خلال معجزة، ونسبح فيه كما نسبح في عنصر شفاف لا لبس فيه: وتكفي نظرة واحدة نلقيها على اليابسة، أو مجرد التفكير في كوننا قد لا نوجد إلا لنسبح، أو أدنى حركة من طبيعتنا البرمائية — لجعلنا نرتكب خطيئة! يجب أن نلاحظ بأن هذا يجعل دلائل الإيمان وكل تفكر في مصدر الإيمان شيئا مُدانا. إنهم يتطلبون منا العمى والانتشاء، ونشيدا سرمديا نترنم به على الأمواج التي ألقي فيها بالعقل!

90

أنانية ضد أنانية. — كثير من الناس من يخرج بهاته الخلاصة: «لولا وجود الله لكانت الحياة شيئا لا يطاق!» (أو كما يقول المثاليون: «ستكون الحياة شيئا لا يطاق لو لم يكن لها ذلك المعنى الأخلاقي!») — إذن يجب أن يكون هناك إله (أومعنى أخلاقي للوجود)! والحقيقة هي أن الأمر خلاف ذلك تماما. فالذي

تعود على هاته الفكرة لا يرغب في العيش بدونها: إذن فهي ضرورية لبقائه، — ويا لها من وقاحة أن يعلن المرء بأن كل ما ضروري لبقائه يجب أن يوجد بالفعل! وكأن بقائه شيء ضروري! وماذا لو كان للآخرين شعور معاكس! ماذا لو رفضوا أن يعيشوا في ظل ركني الإيمان هذين، أو لو أن الحياة لم تعد في نظرهم، بعد تحقق هذين الشرطين، جديرة بأن نحياها! — وهذا ما هو عليه الحال الآن!

91

صدق الإله. — الإله العالم بكل شيء والقادر على كل شيء ولا يحرص على أن تكون نواياه واضحة لمخلوقاته — هل يكون إلها طيبا؟ الإله الذي ترك ما لا يحصى من الشك والحيرة موجودا خلال آلاف السنين، وكأن ذلك الشك وتلك الحيرة ليست لهما أية أهمية بالنسبة لخلاص الإنسانية، ومع ذلك يعدنا بأوخم العواقب إذا نحن أخطأنا بشأن الحقيقة؟ ألن يكون إلها قاسيا لو أنه يملك الحقيقة ومع ذلك يتفرج على الإنسانية وهي تتعذب من أجل تلك الحقيقة؟ — أم قد يكون رغم كل ذلك إله المحبة — ولكنه لا يستطيع التعبير عن ذلك بوضوح! أم أنه لا يملك المزاج لفعل ذلك؟ أم تعوزه الفصاحة؟ وهذا أدهى وأمَر! لأنه حينها سيكون قد أخطأ بخصوص ما يسميه «حقيقته» ويبدو أشبه كثيرا ب «شيطان مخدوع»! ألن يكون عليه حينها تحمل أشد العذاب حين يرى مخلوقاته تتعذب، بل تتعذب ردحا طويلا من الزمن، سعيا لمعرفته، وهو لا يستطيع أن ينجدها أو يقدم لها النصيحة، إلا كأصم أبكم يحاول التعبير بمختلف أشكال الإشارات غير المفهومة وقد داهم طفله أو كلبه خطر كبير؟ والمؤمن الذي يجد نفسه في ضيق ويفكر بهذا الشكل سيكون معذورا إن هو أبدى الشفقة على الإله المُعاني أكثر مما يبديها على «القريب»، — لأنه يكف عن أن يكون قريبه إن كان الكائن الأكثر وحدة وأصالة هو أكثر الكائنات معاناة، وهو من يحتاج أكثر للمواساة. — كل الديانات تتضمن ما يدل على أنها نتاج عقل إنساني شاب لم يبلغ مرحلة النضج بعد، — فهي تتحدث كثيرا بلا روية عن ضرورة قول الحقيقة: إنها لا تعرف شيئا بعد عن الواجب الرباني الذي هو التجلي للناس بوضوح وصدق. — لا أحد تحدث ببلاغة مثل پاسكال

عن «الإله الخفي» وعن الأسباب التي تجعله يظل خفيا ولا يقول الأشياء دائما إلا بشكل جزئي، وهو ما يدل على أن پاسكال لم يطمئن أبدا بهذا الخصوص: ولكنه يتحدث بثقة كبيرة حتى لنظنه قد تواجد في الكواليس صدفة. كان يعتقد في خلود «الإله الخفي»، ولكنه شعر بالخوف والخجل من الاعتراف لنفسه بذلك: لذلك كان يتكلم بأعلى صوته كالخائف.

92

عند فراش موت المسيحية. — الرجال النشيطون بالفعل يستغنون الآن عن المسيحية، والرجال الأكثر اعتدالا وتأملية من ذوي القدرات الفكرية المتوسطة أصبحت مسيحيتهم متصنَّعة، أي مبسَّطة جدا. إله يهيئ كل شيء لأجل راحتنا الأخيرة لأنه يحبنا، إله يمنحنا الفضيلة ويأخذها منا كما يفعل بسعادتنا، بحيث يمر كل شيء بخير في نهاية المطاف، ولا تبقى لنا ذريعة لتحقير الحياة أو اتهامها، باختصار الاستسلام والإنسانية المبوَّأة مقام المعبود، — هذا أفضل ما تبقى من المسيحية. يجب أن نلاحظ بأن المسيحية قد تطورت بهذا الشكل في اتجاه أخلاقية لطيفة: عوض «الإله» هناك «الحرية والخلود»، ما تبقى من المسيحية هو الإحسان والمشاعر الصادقة، وكذلك الاعتقاد بأن الإحسان والمشاعر الصادقة سيسودان العالم بأسره يوما: إنه الموت الرحيم للمسيحية.

93

ما الحقيقة؟ — من ما لن ستمتع بالاستماع للاستنتاج الذي يخرج به المؤمنون: «لا يمكن للعلم أن يكون حقيقيا، لأنه ينكر وجود الله. إذن فهو لم يأتنا من عند الله؛ وبالتالي ليس حقيقيا، لأن الله هو الحقيقة.» ليس الاستنتاج هو الخاطئ، بل الفرضية الأولى. ماذا لو لم يكن الله هو الحقيقة، وماذا لو كان هذا هو ما نبرهن عليه الآن؟ ماذا لو كان هو غرور الناس، ورغبتهم في امتلاك القوة، وجزعهم، وخوفهم، وجنونهم المفتون والمرعوب؟

94

علاج الانزعاج. — اعتقد القديس بولس بأن تقديم القربان أمر ضروري لإزالة الانزعاج الذي يتسبب فيه للرب من يرتكب خطيئة: ومنذ ذلك الوقت لم يفتأ المسيحيون يصبون استياءهم من أنفسهم على ضحية مسكينة، — سواء كان هو «العالم»، أو «العقل»، أو الفرحة، أو حتى راحة الرجال الآخرين، — يجب أن يموت شيء ما، شريطة أن يكون هذا الشيء طيبا، من أجل خطاياهم (ولو كصورة منحوتة)!

95

النقض التاريخي والنقض النهائي. — فيما مضى كان الناس يحاولون إثبات أنه ليس هناك إله، — أما اليوم فنبين كيف نشأ هذا الإيمان بوجود الله وكيف صار له وزن وأهمية: وبهذا أصبح البرهان المضاد على عدم وجود الله غير ذي جدوى. — فيما مضى كان الشك لا يتبدد تماما حين ينقض الملحدون ما يقدم إليهم من «براهين على وجود الله»، أقصد أنهم لا يستطيعون العثور على براهين أفضل من تلك التي نقضوها للتو: في لك العصر لم يكن هؤلاء الملحدون يتقنون

96

«هنا نعلن انتصارنا !» — مهما يكن التطور الذي حققته أوربا في مختلف الميادين فإنها لا تزال لم تصل في المجال الديني إلى السذاجة المتحررة (مما يدل على كون الناس في الهند كانوا يفكرون أكثر ويورثون أبناءهم متعة التفكير، أكثر مما هو الحال اليوم، هو كون البراهمانيين القدماء يعتقدون أولا بأن الرهبان كانوا أقوى من الآلهة، وثانيا أن العادات هي التي تشكل قوة الرهبان: لهذا لا يفتأ شعراؤهم يمجدون العادات (الصلوات، الاحتفالات، تقديم القرابين، الشدو، الغناء الرتيب)، التي كانوا يعتبرونها أصل كل المنافع . ومهما تكن درجة الخرافة والشعر الممتزجين بكل هذا فإن المبادئ تظل حقيقية! إن تقدموا خطوة واحدة

أخرى ألقوا بالآلهة جانبا، — وهو ما يجب على أوربا أن تقوم به ذات يوم! لو تقدموا خطوة واحدة أخرى لاستغنوا عن الرهبان والوسطاء؛ وجاء النبي الذي يعلمهم ديانة الخلاص بنفسه، إنه بوذا : — ما أبعد المسافة التي لا تزال تفصل أوربا عن هاته الدرجة من الثقافة! حين يتم القضاء على كل العادات والتقاليد، التي تستند إليها قوة الآلهة، وقوة الرهبان والمخَلصين، أي حين تموت الأخلاق، بمعناها القديم، حينها سيحدث — ماذا سيحدث؟ يجب ألا نسعى للتخمين، لنسع بالأحرى إلى بلوغ ما تم اعتباره في الهند منذ آلاف السنين، في أوساط ذلك الشعب من المفكرين، قائد الفكر! ربما يكون هناك في أوربا اليوم ما بين عشرة وعشرين مليونا، من مختلف الشعوب، «لم يعودوا يؤمنون بالله»، — ولن نطلب المستحيل إذا نحن طالبنا بأن يسمح لهم بالتواصل فيما بينهم. وبمجرد ما يتعارفون سيعرفون بأنفسهم، — وعلى الفور سيصبحون قوة في أوربا، ومن حسن الحظ أنهم سيكونون قوة بين الشعوب! بين الطوائف! بين الأغنياء والفقراء! بين الذين بيدهم الأمر والذين عليهم الطاعة! بين القلقين والهادئين، سيكنون حاملي السلام بامتياز!

الكتاب الثاني

97

التصرف الأخلاقي لا يعني أن المرء أخلاقي! — الخضوع لقانون الأخلاق قد يأتي نتيجة لغريزة العبودية أو الغرور، أو الأنانية أو الاستسلام، أو التعصب أو الطيش. وقد يكون عملا يدل على اليأس تماما كالخضوع لسلطة ملِك: لا يحمل في ذاته أي معنى أخلاقي.

98

التحولات في الأخلاق. — هناك تحول مستمر يطرأ على الأخلاق، — مرد ذلك إلى الجرائم التي تنتهي نهاية سعيدة (وأَعُدُّ من بينها مثلا كل التجديد الذي طرأ على الأحكام الأخلاقية).

99

فيم نخالف الصواب. — إننا مستمرون في استنتاج عواقب الأحكام التي نعتبرها خاطئة، والعقائد التي لم نعد نؤمن بها، — باستخدام عواطفنا.

100

الاستيقاظ من الحلم. — قديما آمن أناس نبلاء وحكماء بتناغم الأفلاك: ولا يزال أناس نبلاء وحكماء يؤمنون ب«القيمة الأخلاقية للوجود». وسيأتي اليوم الذي لن تدرك فيه آذانهم ذلك التناغم! عندها سيستيقظون ويدركون أن أذنهم كانت تحلم.

101

جدير بالتفكير. — القبول باعتقاد فقط لأن العادة جرت بقبوله — أليس ذلك عدم صدق، وجبنا، وكسلا! — فهل يكون عدم الصدق، والجبن، والكسل هم الشرط الأساسي للأخلاقية؟

102

أقدم الأحكام الأخلاقية. — ما هو موقفنا من تصرفات قريبنا؟ — ننظر في المقام الأول إلى ما يترتب عنها بخصوصنا نحن، — ولا نراعي في الحكم عليها غير ذلك. وما يصيبنا منها هو ما نسميه نية الفعل — وفي النهاية تصبح النوايا التي نلصقها بقريبنا مزايا ثابتة لديه، بحيث نصفه نتيجة ذلك بأنه «رجل خطير» مثلا. إنه خطأ فظيع! واحتقار كبير، قديم قدم العالم! ربما نكون قد ورثنا هذا عن ملكة الحكم لدى الحيوانات. ألا ينبغي لنا البحث عن أصل كل أخلاق في هاته الاستنتاجات الصغيرة المرعبة: «ما يزعجني فهو خبيث (إنه مضر في ذاته)؛ ما ينفعني فهو طيب (نافع ومفيد في ذاته)؛ ما يزعجني مرة واحدة أو عدة مرات يعتبر معاديا لي في ذاته وبشكل اساسي؛ ما ينفعني مرة واحدة أو مرات عديدة موافق لي في ذاته وبشكل أساسي.» يا للأصل المخجل! ألا يعني هذا أننا نفسر العلاقات العرضية المثيرة للشفقة، التي قد تكون لشخص ما معنا كما لو كانت هي جوهره، ونزعم أنه لا يستطيع أن يربط مع نفسه ومع كل الناس إلا نفس العلاقات التي ربطتنا به مرة واحدة أو مرات عديدة؟ ألا تكمن وراء هذا الجنون الحقيقي أشد الأفكار المبطنة عجرفة: اعتقادنا أننا مصدر الخير ما دمنا نحن — من نحدد الخير والشر؟

103

طريقتان لإنكار الأخلاقية. — «إنكار الأخلاقية» — قد يعني أولا: إنكار أن تكون البواعث الأخلاقية التي يستخدمها الناس هي التي تقف حقا وراء

أفعالهم، — وهو ما يعني أن الأخلاقية مجرد كلام وأنها من الخدع الفظة أو الدقيقة (والتي غالبا ما تكون خداعا للنفس) التي يتميز بها الإنسان، وخاصة، ربما، أولئك الرجال المشهورين بفضيلتهم. وقد يعني ثانيا: إنكار أن تكون الأحكام الأخلاقية قائمة على حقائق. في هاته الحالة نسلم بأن هاته الأحكام هي البواعث الحقيقية للأفعال، وبأن الأخطاء، التي هي أساس كل الأحكام الأخلاقية، هي التي تقف وراء أعمال الناس الأخلاقية. هذا الرأي الأخير هو رأيي: ولكنني لا أنفي بأن الارتياب الدقيق في طريقة الرأي الأولى، أي كما يرى لاروشفوكو، شيء في محله وله فائدة كبيرة على العموم. — أنا إذن أنكر الأخلاقية كما أنكر الخيمياء؛ وبإنكاري للفرضيات لا أنكر أنه قد وجد خيميائيون آمنوا بهاته الفرضيات وارتكزوا عليها في أعمالهم. — كما أنكر اللاأخلاقية: ليس وجود العديد من الناس الذين يشعرون بأنهم لاأخلاقيون، بل وجود سبب يدعوهم للإحساس بكونهم كذلك. لا أنكر كذلك بأنه من البديهي — إذا سلمنا بأنني لست أخرقا — ، تفادي محاربة الكثير من الأعمال اللاأخلاقية؛ وبأنه يجب القيام بالكثير من الأعمال التي نسميها أخلاقية والتشجيع عليها؛ ولكنني أعتقد أنه يجب أن نقوم بهذا وذاك لأسباب غير التي كانت وراء قيامنا بهما حتى الآن. علينا أن نغير طريقتنا في النظر إلى الأمور- لنتوصل في نهاية المطاف، ربما في مرحلة متأخرة جدا، إلى تغيير طريقتنا في الشعور.

104

تقديراتنا. — يجب أن نرد كل أعمالنا إلى طريقتنا في التقدير؛ كل تقديراتنا القَيمة إما متأصلة فينا أو مكتسبة. — وأغلبها من هذا الصنف الأخير. فلماذا نتبناها؟ بدافع الخوف: أي أن حذرنا ينصحنا بالتظاهر بأننا نعتبرها متأصلة فينا — فنعتاد تلك الفكرة، بحيث تصبح في نهاية المطاف طبعا ثانيا فينا. ألا يعني تقديرنا الشخصي للأمور أن نقدر الشيء تبعا للرضا أو للإزعاج الذي يسببه لنا دون سوانا، — وكلن هذا شيء نادر جدا! يجب أن يكون تقديرنا للغير، والذي يدفعنا، في أغلب الأحيان، للاستفادة من تقديراته، نابعا منا ويكون هو الباعث

الحاسم وراء أعمالنا. وهاته التقديرات تنشأ لدينا إبان طفولتنا، ونادرا ما نغير رأينا فيها؛ نظل طيلة حياتنا مخدوعين بأحكامنا الطفولية التي تعودنا عليها، وذلك في طريقة حكمنا على بني جلدتنا (عقلهم، مرتبتهم، أخلاقيتهم، مزاجهم، الشيء المحمود والمذموم فيهم) ونعتقد أننا مجبرون على إبداء إجلالنا لتقديراتهم.

105

الأنانية الظاهرة. — مهما يكن ما يظنه أغلب الناس أو يقولونه عن «أنانيتهم» فإنهم لا يفعلون أي شيء من أجل أناهم طوال حياتهم، بل فقط لأجل شبح أناهم الذي تكون في عقل المحيطين بهم قبل أن ينتقل إليهم؛ — وبالتالي يعيشون وسط سحابة من الآراء التي ليست آراءهم الشخصية، والتقديرات الطارئة والخيالية، واحدهم إزاء الآخر، وهكذا دواليك يعيش الواحد في عقل الآخر. يا له من عالم من التخيلات الذي يستطيع الظهور بمظهر العالم المعقول! ينمو ضباب الآراء والعادات هذا ويكبر بشكل شبه مستقل عن الناس الذين يحيط بهم؛ وعليها يتوقف التأثير العجيب الذي تحدثه الأحكام العامة التي نصدرها على «الإنسان» — كل هؤلاء الرجال الذين لا يعرف بعضهم بعضا يؤمنون بهذا الشيء المجرد الذي نسميه «الإنسان»، أي بشيء خيالي؛ وكل تغيير يتم إدخاله على هذا الشيء المجرد من طرف أحكام أفراد أقوياء (كالأمراء أو الفلاسفة) يؤثر تأثيرا خارقا وهائلا على الكل. — وذلك لأنه لا يستطيع كل فرد، وسط هذا الكل، أن يواجه ذلك الخيال العالمي الشاحب بأنا حقيقية ومعمقة تخصه هو وحده فيقضي عليه بذلك.

106

ضد تحديد الهدف الأخلاقي. — نسمع الآن في كل مكان بأن هدف الأخلاق هو الحفاظ على الإنسانية وتحقيق تقدمها؛ ولكن هذا مجرد رغبة في صياغة عبارة لا غير. الحفاظ على ماذا؟ بل نقول قبل ذلك، التقدم نحو ماذا؟ — ألم يتم إغفال ما هو أساسي في هاته الصيغة: الإجابة عن «على ماذا»، وعن «نحو ماذا»؟ وما هي نتيجة ذلك بالنسبة لعقيدة واجبات الإنسان التي لم يتم ترسيخها ضمنيا ودون

التفكير فيها؟ هل توضح لنا هاته الصيغة بما فيه الكفاية ما إذا كان من الواجب إطالة وجود الجنس البشري لأمد أكبر، أم إخراج الإنسان ما أمكن ذلك من حالة الحيوانية؟ لا شك أن اختلاف الوسائل سيكون شديدا في الحالتين، أي الأخلاق العملية! إذا سلمنا بأن الهدف هو جعل الإنسانية متعقلة بأكبر قدر ممكن، فإن ذلك لن يضمن استمرارها في الوجود لمدة طويلة! أو، إذا سلمنا بأن الهدف هو «سعادتها الكبرى»، إجابة عن سؤال «على ماذا»، وعلى «نحو ماذا»: هل فكروا في أعلى درجات السعادة التي قد يصل إليها بعض الأفراد بشكل تدريجي؟ أو في السعادة المتوسطة، التي لا يمكن تعريفها، والتي قد يصل إليها كل الناس؟ ولماذا سيختارون الأخلاقية ليبلغوا ذلك الهدف؟ ألم تخلق الأخلاقية، في مجملها، مصدرا من الإزعاج يجعلنا نزع بأنه مع كل تهذيب للأخلاقية يصبح الإنسان مستاء من نفسه، من قريبه ومن قدره في الوجود؟ ألم يعتقد الإنسان الذي كان الأكثر أخلاقية حتى الآن بأن حالة الإنسان الوحيدة التي يمكن تبريرها إزاء الأخلاق هي البؤس الشديد؟

107

حقنا في حماقاتنا. — كيف يجب أن نتصرف؟ لماذا يجب علينا أن نتصرف؟ — فيما يتعلق بحاجيات المرء القريبة واليومية يكون من السهل الإجابة على هذين السؤالين، ولكن كلما مجال أعمال دقيقة، مجال أوسع وأكثر أهمية، كلما أصبحت المسألة غير محققة وخاضعة للتعسف. وهنا تحديدا يجب استبعاد التعسف عند اتخاذ القرار! — هذا ما تتطلبه سلة الأخلاق: يجب أن تقوم خشية واحترام غامضين بقيادة الإنسان على جناح السرعة نحو أعماله التي لا يدرك على الفور هدفها ووسائلها! سلطة الفكر هاته تعيق الفكر، في الأمور التي قد يكون من الخطير التفكير فيها بطريقة خاطئة: هكذا على الأقل اعتادت الأخلاق أن تدافع عن نفسها أما الذين يتهمونها. «خطأ» يعني «خطير»، ولكن خطير على من؟ ليس خطر الفعل هو ما يراه دعاة الأخلاق المتسلطة، بل الخطر الذي يتهددهم، الضرر الذي قد يلحق بقوتهم وتأثيرهم بمجرد ما يتم تخويل الناس الحق في التصرف

بحماقة وبشكل تعسفي كل وفق عقله، سواء كان هذا العقل صغيرا أم كبيرا : لأنه الناس يستخدمون الحق في الحماقة والتعسف دون تردد حين يتصرفون لحسابهم الخاص، — يمسكون بزمام التحكم حتى حين تكون الإجابة على السؤالين «كيف يجب أن أتصرف، لماذا يجب علي أن أتصرف» صعبة وشاقة. وإذا كان عقل الإنسانية ينمو ببطء شديد بحيث تم في بعض الأحيان نفي حدوث هذا النمو خلال التقدم العام للإنسانية، فمن الذي يجب أن نتهمه إن لم نتهم ذلك الحضور المهيب، إن لم نقل الدائم، للأوامر الأخلاقية التي لا تسمح حتى بطرح سؤالي «لماذا» و«كيف». ألم تتم تربيتنا بطريقة تثير فينا مشاعر الشفقة، في الوقت الذي يجب فيه على عقلنا أن يحافظ على صفائه ورباطة جأشه؟ أقصد في كل الظروف السامية والهامة.

108

بعض الأطروحات. — لا يجب أن ندل الفرد، حالة كونه يبحث عن سعادته، أية تعاليم بخصوص الطريق المؤدية للسعادة:لأن السعادة الفردية تأتي وفق قوانينها الخاصة، التي يجهلها الجميع ، والتعاليم الصادرة من الخارج لا يمكن إلا أن تعرقلها. — التعاليم التي نسميها «أخلاقية» موجهة في الحقيقة ضد الأفرادولا تسعى مطلقا لتحقيق سعادتهم. هاته التعاليم قليلة الصلة «بسعادة الإنسانية ورفاهيتها» — لأنه يستحيل إعطاء هاته الكلمات دلالة دقيقة أو استخدامها كمصباح نستضيء به في بحر الطموحات الأخلاقية. — الاعتقاد بأن الأخلاقية تناسب التطور أكثر من اللاأخلاقية حكم مسبق لا غير. — من الخطأ أن نعتقد أن الهدف اللاشعوري من وراء تطور كل كائن واع (حيوان، أو إنسان، أو إنسانية، إلخ.) هي «سعادته الكبيرة» : وعلى العكس نجد على درجات سلم التطور كلها سعادة خاصة وفريدة يمكن بلوغها، لا هي بالعليا ولا هي بالدنيا، وإنما فردية. لا يروم التطور تحقيق السعادة، بل يريد التطور لا غير. — لو كان للإنسانية هدف يحظى باعتراف الجميع لكن بوسعنا اقتراح «الأوامر»، في طريقة التصرف : ولكن هذا الهدف لا وجود له مؤقتا. لهذا لا يجب أن نربط مزاعم الأخلاق بالإنسانية، فتلك حماقة

وصبيانية. — وكل شيء خلاف ذلك سيكون بمثابة وضع هدف للإنسانية: وسيكون هدفا وضعناه بملء أرادتنا؛ وإذا وجدته الإنسانية مناسبا لها فستضع لنفسها قانونا أخلاقيا يناسبها. ولكن القانون الأخلاقي كان حتى الآن مفروضا علينا: ولكن الناس لم يشاءوا أن يختاروا هذا القانون، بل أرادوا أن يستمدوه من مكان ما، أن يكتشفوه، أن يدعوه يحمهم من مكان ما.

109

بواعث الاعتدال والإمساك بزمام النفس. — إن لي ست طرق على الأقل في محاربة عنف غريزة ما. أولا، يمكننا أن نتملص من الاستجابة لبواعث تلبية رغبة ما، أو أن نضعف تلك الرغبة بامتناعنا عن تلبيتها عبر مدد زمنية تصبح أطول فأطول. ثانيا، قد نسن لأنفسنا قانونا صارما ومنتظما بخصوص إشباع شهواتنا: وهكذا نخضعها لقاعدة، نحصر مدها وجزرها بين حدود ثابتة، لنربح الفواصل التي لا تكون فيها مزعجة؛ — وربما نمر من هنا إلى الطريقة الأولى. ثالثا، قد نستسلم، عن قصد، لإشباع رغبة جامحة وشرسة إلى حد الاشمئزاز، لتصبح لنا، من خلال ذلك الاشمئزاز، سلطة على الغريزة: إذا سلمنا بأننا لن نفعل مثل الفارس الذي تكسرت عنقه وهو يحاول إنهاك حصانه — وتلك هي القاعدة مع الأسف في مثل تلك المحاولات. رابعا، هناك ممارسة فكرية تقتضي ربط فكرة شاقة بفكرة الإشباع بشكل مكثف بحيث تصبح هاته الفكرة نفسها، مع الاعتياد عليها، شاقة في كل مرة أكثر فأكثر. (مثلا حيين يعتاد المسيحي أن يفكر خلال استمتاعه الجنسي، في حضور الشيطان وفي ضحكاته، أو في الخلود في النار بسبب جريمة اقترفها للانتقام، أو في الاحتقار الذي قد يلقاه من طرف الذين يجلهم أكثر من سواهم، لو أنه سَرق؛ كما أن شخصا قد يقمع بشدة فكرة الانتحار التي تراوده بقوة بتفكيره في الكآبة التي سيصاب بها والداه وأصدقاؤه وفي اللوم الذي سيوجهونه لأنفسهم، وبالتالي يبقي على نفسه حيا: — فتلك التمثلات تتوالى في عقله منذ ذلك الحين توالي العلة والمعلول.) يجب كذلك أن نذكر هنا كبرياء الإنسان الذي يثور، كما فعل بايرون وناپوليون بوناپارت، الذين

شعرا بهيمنة الهوى على مظهر العقل وقاعدته العامة كإهانة : وهذا هو مصدر عادة وفرحة الطغيان على الغريزة وتحطيمها نوعا ما. («لا أريد أن أكون عبد أية رغبة كانت»، — كتب بايرون في مذكراته.) خامسا : يشرع المرء في التخلص من القوى التي راكمها بإرغام نفسه على القيام بعمل شاق ومتعب، أو باستسلامه عن قصد لإغراءات وملذات جديدة ليوجه بذلك أفكاره ولعبة قواه البدنية وجهة جديدة. يحدث نفس الشيء حين نعطي الأفضلية مؤقتا لغريزة أخرى، بإشباعنا لها مرات عديدة، لنجعله هو مصدر تلك القوة التي ستسيطر عليها، في الحالة الأخرى، الغريزة المزعجة، بقوتها، والتي نريد كبح جماحها. وربما عرف آخر كيف يحتوي الهوى الذي يسعى للهيمنة، بتشجيعه لكل الغرائز، التي يعرفها، والسماح لها مؤقتا بالتهام الغذاء الذي يريد الطاغية الاستحواذ عليه. سادسا وأخيرا : الذي يتحمل إضعاف وإحباط كل قواه البنية والنفسية، ويجد ذلك أمرا معقولا، يتمكن في نفس الوقت من إضعاف غريزة خاصة شديدة العنف : كما يفعل الذي لا يشبع شهوته الجنسية ويدمر في الوقت ذاته قوته، وعقله في الغالب، على طريقة الزاهد. — الطرق الست إذن هي : تفادي الفرص السانحة، إقحام القاعدة في الغريزة، إثارة الشعور بالشبع والنفور من الغريزة، وربطه بفكرة معذبة (كفكرة الخجل، والعواقب الوخيمة أو الكبرياء المهانة)، ثم تشتت القوى وأخيرا الضعف والإنهاك الشامل. لكننا لا نملك إرادة محاربة عنف غريزة ما، مثلما لا نملك الطريقة التي قد نهتدي إليها والنجاح الذي قد نحققه من ورائها. وما عقلنا في هاته القضية سوى أداة عمياء في يد غريزة هي منافسة الغريزة التي تعذبنا، سواء كانت هي الحاجة للراحة، أو الخوف من العار وغيره من العواقب الوخيمة، أو الحب. لهذا حين نعتقد أننا نشتكي من عنف غريزة ما فإن غريزة هي التي تشتكي في الحقيقة من غريزة أخرى؛ وهو ما يعني أن إدراك المعاناة التي يسببها لنا مثل هذا العنف يكون مشروطا بغريزة أخرى عنيفة مثله، أو أشد منه عنفا، وأن صراعا ما يتهيأ وسيكون عقلنا مجبرا على خوض غماره.

110

المعرقل. — يمكننا أن نلاحظ في أنفسنا القضية التالية، وأريدكم أن ملاحظتها وتأكيدها باستمرار. تتكون لدينا بصيرة بنوع من المتعة التي لم نكن نعرفها منم قبل،

ومنها تتولد لدينا غريزة جديدة. ويتوقف كل شيء بعد ذلك على ما يعرقل هاته الرغبة : إذا كان ما يعرقلها عبارة عن اعتبارات إنسانية شائعة، وأناس نكن لهم من الاحترام — قدرا قليلا، — فإن الهدف من الرغبة الجديدة سيكتسي صبغة إحساس «نبيل، وطيب، ومحمود، وجدير ب، نضحي من أجله»، وستنضم إليه كل الحالات الأخلاقية الموروثة، ليصبح الهدف هدفا أخلاقيا — وبالتالي لا نعود نعتقد أننا نطمح إلى تحقيق متعة ما، بل إلى منقبة أخلاقية : وهو ما يزيد من يقين طموحنا.

111

للمعجبين بالموضوعية. — الذي لاحظ، وه بعد طفل، لدى أبويه ولدى الأشخاص الذين ترعرع وسطهم تعدد المشاعر وقوتها، وقلة الأحكام الدقيقة والميل نحو العدالة الفكرية، أي ذلك الذي أضاع قوته الفضلى ووقته الثمين في تقليد تلك المشاعر : يلاحظ أنه، حين يبلغ مبلغ الرجال، بأن كل شيء جديد، أو إنسان جديد، يثيران لديه شعورا بالتعاطف أو بالنفور، أو بالغيرة أو الازدراء؛ وتحت تأثير تلك التجربة التي لا يستطيع التخلص منها يبدي إعجابه بحياد المشاعر، ب«الموضوعية»، كشيء غير عادي، كشيء يكاد يكون خارقا ونادرا من حيث أخلاقيته، ولا يريد الإقرار بأن ذلك الحياد ليس بدوره سوى نتيجة التربية والعادة.

112

التاريخ الطبيعي للواجب والحق. — واجباتنا — هي حقوق الآخرين علينا. فكيف اكتسبوها؟ باعتبارهم لنا قادرين على تقديم التزامات والوفاء بها، واعتبارهم لنا أندادا ونظراء لهم، وبالتالي وضعوا ثقتهم فينا، وربونا، وعلمونا وآزرونا. نؤدي واجبنا — أي نبرهن على فكرة كوننا أقوياء التي جعلتنا جديرين بكل ما أسدي إلينا من معروف، نقابل العطاء بعطاء مثله. كبرياؤنا إذن هي التي تأمرنا بالقيام بواجبنا، — نريد استرجاع استقلاليتنا بفعلنا شيئا من أجل الذين فعلوا شيئا من أجلنا، — لأن الآخرين قد جاروا على مدى قوتنا وسيستمرون في

وضع اليد عليها إذا نحن لم نستخدم «الواجب» للانتقام، أي إذا لم نجُر على قوتهم. حقوق الاخرين مرتبطة بما نقدر على فعله : وسيكون من غير المعقول أن يطلبوا منا ما لا نملكه. يجب أ نقول تحديدا : فقط ما يعتقدون أننا نقدر عليه، إذا سلمنا بأنه نفس الشيء الذي نعتبر أنفسنا قادرين عليه. قد يرتكب الطرفان كلاهما نفس الخطأ. يتطلب الشعور بالواجب أن يكون ظننا بمدى قوتنا متطابقا مع ظن الآخرين به؛ أي أن نستطيع الوعد ببعض الأشياء، الالتزام بالقيام بها («حرية الاختيار»). — حقوقي هي ذلك الجزء من قوتي الذي لم يكتف الآخرون بمنحه لي فقط، بل يريدونني أن أحافظ عليه كذلك. فكيف يتمكنون — من ذلك؟ بحكمتهم، وخشيتهم وتبصرهم من جهة : إما بانتظارهم منا شيئا مماثلا لذلك (حماية حقوقهم)، أو باعتبارهم الصراع معنا أمرا خطيرا وغير مناسب، أو برؤيتهم في إضعاف قوتنا شيئا لا يخدم مصلحتهم، بما أنه لن يعود بمقدورنا في تلك الحالة أن نتحالف معهم ضد قوة ثالثة. ومن جهة أخرى من خلال الهبات والتخلي لنا عن بعض الأشياء. في هاته الحالة يكون للآخرين قدر كبير من القوة بحيث يستطيعون التخلي عن شيء منه والتكفل بضمان الهبة التي يقدمونها : وهي حالة تتطلب منهم الإقرار بضعف الشعور بالقوة لدى الذي يقبل تلك الهبة. على هذا النحو تتشكل الحقوق : درجات من القوة المعترف بها والمضمونة. إذا تغير ميزان القوى بشكل كبير فإن حقوقا تختفي وتحل محلها حقوق أخرى، — وهو ما يبينه حق الشعوب من خلال مده وجزره اللذين لا ينتهيان. إن ضعفت قوتنا كثيرا فإن شعور الذين كانوا ضامنين لحقنا يتغير هو بدوره : يقومون بتقدير الأسباب التي كانت وراء منحهم لنا ذلك الحق القديم. فإن لم تكن نتيجة ذلك لصالحنا فإنهم يتنكرون لـ«حقوقنا». وإذا ازدادت قوتنا بشكل كبير فإن شعور الذين يعترفون بها، والذين لم نعد في حاجة إليهم، يتغير : سيحاولون العودة بتلك القوة إلى حجمها الأول، سيريدون الانشغال بأمورنا من خلال استنادهم على واجبهم، — غير أن كل هذا ما هو إلا لغو. حيثما يسود الحق يتم الحفاظ على حالة من القوة وعلى قدر منها، ولا يتم السماح بأي زيادة فيها أو نقصان. حق الآخرين تنازل يقوم به شعورنا بالقوة نحو شعور الاخرين بالقوة. إذا اهتز شعورنا بالقوة أو تحطم فإن حقوقنا تنتفي : أما حين نصبح أكثر قوة فإن حقوق الآخرين تتغير بالنسبة لنا عما

كانت عليه في السابق. — يحتاج «الإنسان العادل» دائما إلى ميزان دقيق يزن به درجات القوة والحق التي لن تظل متوازنة، في ظل غرور الامور البشرية، إلا أمدا قليلا، لأنها ستتزايد أو تضعف : — الإنصاف إذن صعب ويتطلب الحنكة، وحسن النية والرشد.

113

الطموح للتميز. — الذي يطمح على الدوام للتميز يراقب باستمرار قريبه رغبة في معرفة مشاعره : ولكن الود والوفرة اللذين يحتاج إليهما هذا الطموح ليتحقق أبعد من أن يكونا نابعين من البراءة، أو الشفقة أو العطف. نريد على العكس أن ندرك أو نخمن الطريقة التي يعاني بها القريب عندما يرانا، وكيف يفقد سيطرته على نفسه ويستلم للانطباع الذي تخلفه لديه يدنا أو رؤيته لنا؛ وحين يريد حتى ذلك الذي يطمح إلى التميز أن يخلف انطباعا مرحا، مثيرا للحماس أو مطمئنا،أو حين يخلفه بالفعل، فإن ما سيستمتع به ليس كونه أمتع قريبه، أو حمّسه أو طمأنه، بل كونه ترك أثرا في نفس ذلك القريب، وغير شكلها وسيطر عليها وفق إرادته. الطموح للتميز هو الطموح لإخضاع القريب، ولو بطريقة غير مباشرة، بواسطة الشعور فقط أو في الحلم. تتكون هاته الرغبة السرية في الإخضاع من سلم طويل من الدرجات، وللإحاطة بكل مصطلحاتها كلها فإن الامر سيكون أشبه بكتابة تاريخ الحضارة، من أول همجية مكشرة إلى تكشيرة الرقة والمثالية المَرَضية. يمنح الطموح للتميز للقريب على التوالي — لنذكر بعض درجات هذا السلم الطويل بأسمائها - : التعذيب في المقام الاول، ثم الضربات، ثم الرعب، ثم الدهشة المكروبة، ثم المفاجأة، ثم الرغبة، ثم الإعجاب، ثم البناء، ثم المتعة، ثم الفرحة، ثم الضحك، ثم التهكم، ثم السخرية، ثم السباب، ثم ضرب الآخرين، فتعذيبهم : على قمة هذا السلم يتربع الزاهد والشهيد؛ كلاهما يجدان متعة كبيرة، نتيجة لطموحهما للتميز، في تحمل ما يذيقه نقيضه في الدرجة الأولى من السلم، أي الهمجي، للآخر تحقيقا لطموحه في التميز. انتصار الزاهد على نفسه، الموجه نظره نحو داخله، مبصرا الإنسان المشطور بين الكائن المعاني والمتفرج، الإنسان الذي لا ينظر إلى العالم الخارجي، منذ تلك اللحظة، إلا كمكان

يجمع منه الحطب لمحرقته، التي هي آخر مأساة الحاجة للتميز، التي لم يتبق فيها إلا شخص واحد يتفحم في ذاته، — هذا الانتصار هو النهاية التي تليق بتلك البداية : في كلتا الحالتين نجد سعادة لا توصف عند رؤية مشاهد التعذيب! ربما لم نصادف على الأرض يوما السعادة المعتبرة إحساسا بالقوة تم تطويره إلى أقصى حد له بشكل مكثف كما صادفناها لدى الزهاد المؤمنين بالخرافة. يتجسد ذلك عند البراهمانيين في تاريخ الملك ڤيسڤاميترا الذي استمد من ممارسات الكفارة التي امتدتا على مدى ألف سنة تلك القوة التي مكنته من بناء سماء جديدة. أعتقد أننا نعتبر، فيما يخص صنف الأحداث الداخلية هاته، ناقصي الخبرة ومجرد حازرين لحلول الألغاز؛ كان الناس قبل أربعة آلاف سنة يستمتعون بأنفسهم خلسة أفضل منا. ولربما صور أحد الحالمين الهندوس خلق العالم على أنه زهد الله في نفسه. ربما أراد هذا الإله أن يحبس نفسه في الطبيعة المتحركة كما لو في آلة تعذيب، ليشعر من جراء ذلك بغبطته وقوته مضاعفة! ولو سلمنا بأنه إله محبة فما المتعة التي سيجدها في خلق أناس يتعذبون، وفي معاناته الربانية عند رؤيته العذاب المستمر الذي يتعرض له هؤلاء وتعذيبه لنفسه بذلك! وإذا اعتبرنا أن هذا الإله ليس إله محبة فقط، بل إله قداسة وبراءة، فهل نرتاب في الهذيان الذي ينتاب ذلك الزاهد الرباني حين يخلق الخطيئة، والخاطئين، والعذاب الأبدي، وحين يخلق تحت سمائه، أسفل عرشه، مكانا شاسعا للتعذيب الأزلي، لصرخات الألم الأزلية! ولا يستبعد أن تكون روح القديس بولس، أو دانتي، أو كالڤان وأمثالهم قد ولجت ولو لمرة واحدة عالم الأسرار المرعبة لهاته الغبطة الناتجة عن القوة؛ — أمام مثل هاته الحالات يمكننا أن نتساءل عما إذا كانت دورة الطموح للتميز قد عادت بالفعل إلى نقطة انطلاقها، وعما إذا كانت قد بلغت مع الزاهد أقصى مدى لها. وهل يمكن قطع هاته الدورة نفسها مرة ثانية مع الاحتفاظ في ذات الوقت بفكرة الزاهد الأساسية وفكرة الإله الرحيم؟ أعني إيذاء الآخرين من أجل إيذاء النفس والانتصار بالتالي على الذات وعلى الرحمة التي تتميز بها، من أجل الاستمتاع بأقصى لذة تمنحها القوة! — معذرة عن هاته الاستطرادات التي تراودني وأنا أفكر في كل الإمكانات التي يوفرها لنا الحقل الشاسع للمغالاة النفسية التي ارتكبتها الرغبة في القوة.

معرفة الذي يعاني. — يكتسي وضع الذين يتعذبون من شدة ألمهم لمدة طويلة وبشكل فظيع، دون أن يؤثر ذلك على عقلهم، أهمية كبيرة بالنسبة للمعرفة، — بغض النظر عن المنافع الفكرية التي تحملها في طياتها العزلة الشديدة، والتحرر الفجائي والمسموح به من الواجبات والعادات. الذي يعاني بشدة، متقوقعا في معاناته نوعا ما، يلقي نظرة باردة على الخارج، على الاشياء : فيختفي بالنسبة إليه كل ذلك السحر الكاذب الذي تتحرك فيه الاشياء عموما، حين يتوقف عنده نظر الإنسان : يرى نفسه مستلقيا أمام نفسه، عاريا من كل بريق أو زخرفة. وإن كان قد عاش حتى ذلك الحين في نوع من الحلم الخطير فإن تلاشي ذلك السحر بفعل الألم سيخلصه منه، وربما يكون هو الوسيلة الوحيدة لتخليصه منه. (ربما يكون هذا هو ما حدث لمؤسس المسيحية المعلق على الصليب، لان الكلمات الشديدة المرارة التي أطلقها : «إلهي، لم تخليت عني!» تقدم لنا، حين نحللها بعمق، كما يحق لنا، البرهان على زوال الوهم بصفة شاملة، والإدراك التام لما وراء سراب الحياة؛ عند المعاناة الشديدة أصبح المسيح بصيرا بنفسه، وهو ما حدث لدون كيشوط البئيس نفسه، كما يروي الشاعر.) الجهد الذي يبذله العقل الذي يريد التصدي للألم يسلط منذ تلك اللحظة على كل ما يراه نورا جديدا : والسحر الخفي الذي تنطوي عليه كل الأنوار الجديدة غالبا ما تكون قوته كافية للصمود في وجه إغراءات الانتحار وجعل الذي يعاني يرغب في الاستمرار في الحياة. يفكر بازدراء في العالم الغامض، والدافئ والمريح الذي لا يتورع الإنسان المتمتع بالصحة الجيدة عن الإقامة فيه؛ يفكر بازدراء في أنبل وأعز الأوهام التي لم يكن يبالي بها في ما مضى؛ إنه يجد متعة كبيرة في استرجاع هذا الازدراء الذي يبدو وكأنه آت من أعماق الجحيم، وفي تسببه للروح بالتالي في معاناة شديدة : بهذا العوض يصمد في وجه المعاناة الجسدية، — يشعر الآن أن هذا العوَض أصبح ضروريا! بإبصاره الشديد لطبيعته هو يصيح : «كن متهم نفسك وجلادها في ذات الوقت، اعتبر معاناتك عقابا حكمت به على نفسك! استمتع بتفوقك كقاض؛ بل استمتع بإرادتك، بطغيانك التعسفي! اسم فوق حياتك، كما تسمو فوق معاناتك، انظر إلى عمق الافعال الصائبة والحماقات!» يثور كبرياؤنا كما لم يثر

من قبل : يجد إغراء لا يقاوم في الدفاع عن الحياة ضد طاغية مثل الألم، وضد كل تلميحات هذا الطاغية الذي يريد دفعنا للإدلاء بشهادة تدين الحياة، — إلى تجسيد الحياة بعينها أمامه. في هاته الحالة نقاوم بمرارة كل أشكال التشاؤم، لكي لا يظهر هذا التشاؤم كنتيجة لحالتنا ولا يذلنا كمهزومين. كما أن الرغبة في أن تكون أحكامنا عادلة لم تكن أبدا أشد مما هي عليه الآن، لأن العدالة الآن هب انتصار لنا على أنفسنا وعلى أشد الحالات التي يمكننا تخيلها حساسية، وهي حالة قد تنتحل لنا الأعذار بسبب أي حكم جائر نصدره؛ ولكننا لا نريد أن تنتحل لنا الأعذار، نريد الآن إظهار أنه ليس هناك «ما يشيننا». إننا نمر بأزمات كبرياء حقيقية. — الآن تلوح أولى بوادر فجر التلطيف، والشفاء — ويكاد يكون من آثار هذا الفجر الأولى مواجهتنا لهيمنة كبريائنا : — نسمى بلهاء ومغرورين، — وكأن شيئا فريدا قد حدث لنا! نذل ذلك الكبرياء الذي يمكننا من تحمل الألم ناكرين لجميله، ونطالب بقوة بترياق ضد الكبرياء : نريد أن نصير غرباء عن أنفسنا ونتخلص من شخصنا، وذلك بعد أن صيرنا الألم شخصيين بقوة أمدا طويلا. «لنتخلص من هذا الكبرياء، نصيح قائلين، لقد كانت مرضا وأزمة إضافيين عانينا منهما!» ننظر من جديد إلى الناس والطبيعة — بعين الرغبة : نتذكر، ونحن نبتسم في حزن، أن لدينا بشأنهم الآن أفكارا جديدة ومختلفة عن التي كانت لدينا فيما سبق، أن ستارا قد وقع. — ولكننا نشعر بالسلوان برؤيتنا مجددا للأنوار المعتدلة أنوار الحياة، وخروجنا من ذلك اليوم القاسي الذي كنا نرى من خلاله الأشياء وعبر الأشياء حين كنا نعاني. لن نغضب إن عاد سحر الصحة لممارسة لعبته من جديد، — نتأمل هذا المشهد وكأن تحولا قد طرأ علينا فأصبحنا عطوفين ومتعبين. في هاته الحالة لا نستطيع سماع الموسيقى دون الانخراط في البكاء.

115

ما نسميه الـ«أنا». — غالبا ما تشكل اللغة والأحكام المسبقة التي تقوم عليها عائقا أمام التعمق في الظواهر الداخلية وفي الغرائز : وذلك لأنه لا توجد كلمات إلا لوصف الدرجات العليا من هاته الظواهر والغرائز. — والحالة أننا قد اعتدنا

ألا نقوم بالملاحظة إذا أعوزتنا الكلمات، إذ يصبح من الصعب حينها التفكير بدقة؛ بل ذهب الناس فيما مضى إلى حد القول عن غير قصد بأنه حيثما ينتهي سلطان الكلمات ينتهي كذلك سلطان الوجود. وما الغضب، والكراهية، والحب، والشفقة، والرغبة، والمعرفة، والفرحة، والألم سوى أسماء نطلقها على الحالات القصوى؛ أما الدرجات المعتدلة والمتوسطة فتفلت منا، وكذلك الدرجات الدنيا، رغم أنها هي تنسج خيوط طبعنا ومصيرنا. يحدث كثيرا أن تمزق الانفجارات الشديدة – والرضا أو الانزعاج الضعيفين، اللذين نشعر بهما ونحن نتناول طعاما، أو نستمع إلى صوت ما، قد يشكلان، وفق تقييم دقيق، انفجارات شديدة – النسيج وتشكل استثناءات قوية، نتيجة بروزها في الغالب : – وكم يمكنها بذلك أن تضلل الملاحظ! تماما كما تخدع الإنسان النشيط. لسنا جميعنا كما نبدو من خلال الحالات التي نعيها ونستطيع التعبير عنها – وبالتالي نستطيع لومها أو الثناء عليها؛ إننا لا نتعرف على أنفسنا حين تحدث لدينا لتلك الانفجارات الشديدة التي نعرفها نحن وحدنا، نستخلص النتائج من مادة يهيمن فيها الاستثناء على القاعدة، نخطئ حين نقرأ كتاب أنانا الغامض، والذي يبدو لنا واضحا. وهذا الرأي الذي تكون لدينا عن أنفسنا بطريقة خاطئة، أي ما نسميه الـ«أنا»، يبدأ في العمل لتشكيل طبعنا ومصيرنا.

116

عالم «الذات» المجهول. – ما يجد الناس عناء في فهمه هو جهلهم لأنفسهم، منذ العصور الغابرة إلى الآن! ليس فقط في ما يخص الخير والشر، بل بخصوص أشياء أكر أهمية. يعتقد الناس وفق وهم قديم أنهم يعرفون بالضبط كيف يتم الفعل الإنساني في كل حالة خاصة. ليس وحده «الإله هو من يرى ما في القلوب»، وليس الإنسان وحده هو من يقوم بالفعل ويفكر في ما يفعله، – فكل الناس لا يشكون في كونهم يفهمون ظاهرة الفعل لدى غيرهم. «أعرف ما أريد، وما أفعله، أنات حر ومسئول عن أفعالي، أحمل الآخرين مسئولية ما يفعلون، أستطيع تسمية كل الإمكانيات الأخلاقية، وكل الحركات الداخلية التي تسبق فعلا ما؛ مهما تكن طريقة قيامكم بالفعل فإنني أفهمها وأفهمكم من خلالها!» هكذا كان كل

الناس يفكرون فيما مضى، ولا يزالون كلهم تقريبا يفكرون بهاته الطريقة اليوم كذلك. وسقراط وأفلاطون، اللذان كانا على قدر كبير من الشك بخصوص هذا الأمر وجددا فيه كثيرا، كانا مع ذلك ساذجين بشكل بريء فيما يتعلق بذلك الحكم المسبق الخطير، ذلك الخطأ الفادح، الذي يزعم بأن «الفهم الصحيح يجب حتما أن ينتج عنه فعل معقول». وقد جعل منهما هذا المبدأ وريثين للحماقة والزهو العالميين اللذين يزعمان أننا نعرف جوهر فعل ما. «سيكون أمرا فظيعا إذا لم ينتج عن فهم جوهر الفعل المعقول فعل معقول»، — هاته هي الطريقة الوحيدة التي رأى هذان الرجلان العظيمان أنها ضرورية للبرهنة على هاته الفكرة، فقد كان العكس يبدو لهما غريبا وأحمقا — ومع ذلك فهذا العكس يستجيب للواقع المجرد، الذي تتم البرهنة عليه كل يوم زفي كل لحظة، منذ الازل. أليس حقيقة «مرعبة» أن يكون ما قد نعرفه عن فعل ما غير كاف أبدا للقيام بذلك الفعل، ويكون ما يربط بين الإدراك وبين الفعل لم تتم البرهنة عليه بتاتا؟ لا تكون الافعال أبدا كما تبدو لنا! لقد وجدنا صعوبة كبيرة في إدراك أن الأشياء الخارجية ليست كما تبدو لنا — نفس الشيء نقوله عن العالم الداخلي! الافعال في الحقيقة «شيء آخر»، — هذا كل ما يمكن أن نقوله عنها: وكل الافعال مجهولة لدينا تماما. نقيض ذلك هو، وسيظل هو، الاعتقاد المألوف؛ الواقعية القديمة تقف ضدنا، فقد ظلت الإنسانية تعتقد حتى اليوم ما يلي: «الفعل هو كما يبدو لنا.» (لما أعدت قراءة هاته الكلمات تذكرت مقطعا معبرا لشوبنهاور أريد أن أورده هنا لأبين بأنه قد ظل، هو كذلك، مرتبطا بتلك الواقعية الأخلاقية دون أن يراوده بشأنها أدنى ارتياب: «كل واحد منا يعتبر، في الحقيقة، حكما أخلاقيا، كفئا وممتازا، عارفا حق المعرفة بالخير والشر، مقدسا بحبه للخير وبغضه للشر، — يجمع كل واحد بين كل هاته الأمور، ما دام الأمر لا يتعلق بأفعاله هو، بل بأفعال غيره، التي يكتفي بقبولها أو رفضها، بينما يتحمل الآخرون غيره عبء القيام بتلك الأفعال. وبالتالي يستطيع كل واحد أن يحتل مكان الإله كأستاذ.»)

117

في السجن. — لا تستطيع عيني، سواء كان بصرها حادا أم ضعيفا، أن تبصر إلا مسافة محددة. هذا الفضاء المحدد أعيش وأتحرك، وأفقه هو قدري الأقرب

الذي لا أستطيع الفرار منه، سواء كان قدرا عظيما أم قليل الشأن. حول كل فرد تمتد دائرة متحدة المركز تخصه هو وحده. وكذلك أذننا تجعلنا حبيسي فضاء ضيق، مثلما تفعل حاسة اللمس لدينا. هاته الآفاق التي تحبسنا فيها حواسنا، كما بين جدران السجن، هي التي تحدد طريقة قياسنا للعالم، فنقول بأن هذا الشيء قريب، وذاك بعيد، وهذا كبير، وذاك صغير، وهذا صلب، وذاك رطب: نسمي هاته الطريقة في القياس «إحساسا»، — ولكن هذا كله خطأ في خطأ! نقوم بقياس حياتنا فنقول عنها بأنها قصيرة أو طويلة، غنية أو فقيرة، حافلة أو فارغة، حسب التجارب والمشاعر التي تتاح لنا، في المتوسط، في فترة زمنية معينة: ووفق متوسط حياة الإنسان نقيس حياة كل الكائنات الأخرى، — وكل هذا خطأ في خطأ! لو كان لنا بصر نرى به الأشياء القريبة أكبر مما هب عليه الآن مئات المرات لبدا لنا الإنسان شديد الضخامة؛ بل لكان بوسعنا تخيل أعضاء نستطيع بواسطتها أن نرى الإنسان كائنا لا يقاس. ومن جهة أخرى قد يتم تهييء أعضاء أخرى بشكل يمكنها من تصغير حجم مجموعات شمسية بأكملها، لتحولها إلى ما يشبه خلية واحدة: وتقوم في المقابل بالنسبة للكائنات الصغيرة بتكبير حجم الخلية الواحدة من جسم الإنسان لتبدو في تركيبتها، وحركتها وانسجامها، في حجم مجموعة شمسية. تقوم كل الأحكام التي نصدرها، وكذلك «إدراكنا» على نسيج الأحاسيس الكاذبة الذي نستمده من عادات أحاسيسنا، — ولا نملك سواها منفذا، أو مهربا، أو سبيلا ملتوية تقودنا نحو العالم الحقيقي. نحن وسط هذا النسيج كالعنكبوت في بيتها، وإننا لن نحصل فيه إلا على ما يأتي نحو شباك نسيجنا فتمسك به.

118

ما معنى القريب؟ — ما الذي نفهمه من قريبنا غير حدوده، أي تلك الأشياء التي تمكنه من ترك آثاره علينا؟ كل ما نفهمه منه هي تلك التغييرات التي تطرأ علينا بسببه — يشبه ما نعرفه عنه شكلا مجوفا. نعزو إليه المشاعر التي تولدها أفعاله لدينا وبذلك نضفي عليه إيجابية مزيفة. نشكله وفق معرفتنا بأنفسنا، لنجعل منه تابعا يدور في فلك نظامنا: وحين يصبح مضيئا أو مظلما في نظرنا ونكون نحن،

في كلتا الحالتين، هما مصدر ذلك النور أو الظلام، — فإننا نتصور العكس! يا له من عالم أشباح هذا الذي نعيش فيه! عالم مقلوب، معكوس وفارغ، ولكننا نراه كما في الحلم مستقيما ومليئا.

119

الحياة والتخيل. — مهما تكن يكن المدى الذي تبلغه معرفة المرء لنفسه، فإن الصورة التي يكونها عن الغرائز التي تشكله كفرد ستظل غاية في النقص. فهو قد يتمكن بالكاد من ذكر أسماء الغرائز الفظة لديه: عددها وقوتها، مدها وجزرها، اللعب المتبادل الذي تمارسه، وقبل ذلك كله يظل جاهلا لقانون تغذيتها. تصبح هذه التغذية إذن شيئا تحكمه الصدفة: تلقي الأحداث اليومية التي تعرفها حياتنا بفريستها تارة لهاته الغريزة، وتارة لتلك؛ وتتلقف الغريزة الفريسة بشراهة، ولكن حركة هاته الأحداث الدائبة لا تربطها صلة معقولة بالحاجيات الغذائية لمجموع تلك الغرائز: بحيث سيحدث على الدوام أمران — سيموت بعضها من شدة الجوع، بينما ستأكل الأخرى كثيرا. كل لحظة من عمرنا تضخم بعض جوانب سليلتنا المخاطية لكياننا وتجفف جوانبها الأخرى، وذلك حسب الغذاء الذي تحمله اللحظة أو لا تحمله. من وجهة النظر هاته تعتبر كل تجاربنا مواد غذائية، ولكن الذي يوزعها يد عمياء، غير عارفة بالجائع أو الشبعان. ونتيجة هاته التغذية، التي تحكمها الصدفة، للأعضاء ستصبح السليلة المخاطية، عند اكتمال نموها، شيئا غير متوقع كنموها تماما. وحتى نكون دقيقين في كلامنا نقول: لنفترض أن غريزة ما تريد أن يتم إشباعها — أو ممارسة قوتها، أو تلبية هاته القوة، أو ملء فراغ ما(كل هذا بالمعنى المجازي طبعا): ستفحص كل حدث من أحداث اليوم لتعرف كيف يمكنها استغلاله لتحقق هدفها: في كل حالة يتواجد عليها الإنسان، ماشيا أو متوقفا، قارئا أو متحدثا، غاضبا أو مصارعا، أو مبتهجا، فإن الغريزة المتغيرة تختبر كل واحدة من هاته التجارب، وإنها لن تجد في أغلب الحالات ما يناسبها، عندها سيكون عليها أن تنتظر وهي ظمأى: وبعد برهة من الزمن ستضعف، وفي غضون بضعة أيام أو شهور ستجف، إن لم يتم إشباعها، كنبتة قتلها الجفاف. ربما تتخذ قسوة الصدفة هذه أشكالا أكثر جلاء لو أن كل الغرائز طالبت بالإشباع بشكل

أساسي كاليد التي لا تكتفي بالمواد الغذائية التي كانت تحلم بها، وهذا هو حال أغلب الغرائز، خاصة تلك التي نسميها أخلاقية، — إذا جاز لنا أن نفترض كون أحلامنا تقوم بالتعويض، نوعا ما، عن النقص العرضي الحاصل في التغذية خلال اليوم. لماذا كان الحلم الذي رأيته بالامس مفعما بالحنان والدموع، والذي رأيته أمس الأول مسليا ومزهوا، والذي رأيته قبل ذلك بأيام مليئا بالمغامرات والمساعي المثيرة للقلق؟ ما الذي يجعلني في هذا الحلم أستمتع بالأنغام الموسيقية الساحرة، وفي ذلك الحلم الآخر أحلق في الاجواء كالنسر، مرتفعا إلى القمم الشاهقة؟ هاته التخيلات، التي تمرح فيها وتفرغ فيها نفسها غرائز الحنان، والسخرية، والتصرفات الغريبة، رغبتنا في سماع الموسيقى والتحليق في الأعالي — وسيجد كل واحد منا أمامه أمثلة بارزة — ، هي تفسير للتهيجات العصبية التي تنتابنا خلال النوم، تفسيرات حرة، واعتباطية لسريان الدم في عروقنا، وعمل أمعائنا، الضغط الذي يمارسه الغطاء والذراعان، — وأصوات أجراس الكنيسة، وصوت دوارة الريح، وخطى المسرنمين، وأشياء أخرى من هذا القبيل. إذا كان هذا النص الذي لا يتغير من ليلة لاخرى يصبح موضوع تعليقات متنوعة بحيث أن العقل المبدع يتخيل البارحة أو اليوم أسبابا مختلفة يرى أنها تقف وراء التهيجات العصبية : فمرد ذلك إلى اختلا الذي يوحي بذلك للعقل ما بين اليوم والبارحة، — كسعي غريزة أخرى للإشباع، أو الظهور، أو ممارسة سلطتها، أو الترفيه عن نفسها، أو التخفيف عنها، — هاته الغريزة هي التي كانت لها السيادة اليوم، بينما كانت البارحة لغريزة غيرها. — ليس لحالة اليقظة نفس الحرية في التفسير التي لحالة النوم، فهي أقل شعرية، وجموحا، — وهل علي أن أضيف بأن كل ما تفعله غرائزنا خلال اليقظة هو تفسير التهيجات العصبية وتحديد «أسبابها» وفق حاجياتها؟ وبأنه ليس هناك فارق كبير بين حالة الحلم وحالة اليقظة؟ وبأنه حتى لو قارنا بين درجات مختلفة من الحضارة، فإن حرية التفسير اليقظة لأحدى هاته الدرجات لا تقل في شيء عن حرية التفسير أثناء الحلم لدى الآخر؟ وبأن تقييماتنا وأحكامنا الاخلاقية ما هي إلا صور وتخيلات، تخفي سيرورة فسلجية نجهلها، لغة اصطلحنا على استعمالها للدلالة على بعض التهيجات العصبية؟ بأن ما نسميه الوعي ما هو في مجمله سوى تعليق غريب على نص مجهول، نص قد لا نعرفه ولكننا نستشعره؟ لنتذكر أي حدث بسيط. هب أننا لاحظنا، ونحن نعبر الساحة العمومية، أن أحدهم يسخر

منا : ستأتي دلالة لذلك الحدث وفق الغريزة التي ستكون قد بلغت ذروتها لدينا، – كما أن طينة الرجال التي ننتمي إليها ستجعل هذا الحدث شيئا مختلفا. هذا سيستقبله كقطرة مطر، وذاك سيلقي به بعيدا عنه كما يلقي بحشرة؛ هذا سيبحث فيه عن سبب للشجار، وذاك سيلقي نظرة على ثيابه ليرى ما إن كانت تبعث على السخرية، وآخر سيتأمل السخرية في حد ذاتها؛ وأخيرا قد يكون هناك من يفرح لكونه أضاف أدخل الفرحة على أحد الناس – وفي كل حالة من هاته الحالات ستكون غريزة ما قد حظيت بالإشباع، إما غريزة الغيظ، أو غريزة القتال، أو غريزة التأمل أو الإحسان. أيا تكن هاته الغريزة فإنها تتلقى هذا الحدث كما تتلقى الغنيمة؛ لماذا هاته الغريزة بالضبط؟ بما أنها كانت في حالة كمون، شرهة وجائعة. – منذ عهد قريب، وعلى الساعة الحادية عشرة صباحا، انهار رجل أمامي كأنما أصابته صاعقة؛ أخذت كل نساء الحي في الصراخ،؛ ساعدته حتى وقف على رجليه وانتظرت بجانبه حتى يستعيد القدرة على الكلام، – في غضون ذلك لم يبد التأثر على وجهي ولم أشعر لا بالخوف ولا بالشفقة، قمت فقط بالشيء المعقول الذي كان يجب القيام به على الفور، ثم انصرفت في هدوء. لو أن أحدهم ليلة البارحة أن رجلا سينهار في صباح الغد على الساعة الحادية عشرة أمامي بتلك الطريقة لتألمت لذلك أشد الألم، ولما نمت طوال الليل، ولانهرت بجانبه حين انهار عوض إسعافه. لأن كل الغرائز التي يمكن تخيلها كانت ستقوم في غضون ذلك بتصور ما سيحدث والتعليق عليه. – ما هي أحداث حياتنا إذن؟ إنها صورة لما نضفيه عليها أكثر مما هي صورة لما هي في الواقع! أم يجب أن نقول : إنها فارغة المحتوى؟ فهل أن نحيا معناه أن نتخيل؟

120

لتهدئة الشكوكي. – «لا أعرف بتاتا ماذا أفعل! لا أعرف بتاتا ماذا علي أن أفعل!» – إنك على حق، ولكن لا يأخذنك في ذلك أي شك في أنك أنت المفعول! في كل لحظة من لحظات حياتك! لقد خلط الناس على الدوام بين المبني للمعلوم والمبني للمجهول، ذلك هو الخطأ النحوي الذي ترتكبه الإنسانية منذ الأزل.

121

«العلة والمعلول !» — على هاته المرآة — وعقلنا مرآة — يجري شيء يتجلى فيه الانتظام، يأتي شيء محدد بعد شيء آخر محدد، — وهو ما نسميه، حين نتنبه له، ونريد أن نعطيه اسما، العلة والمعلول — نحن الحمقى! وكأننا قد فهمنا شيئا في هاته الحالة، قد استطعنا فهم شيء ما! والحالة أننا لم نر سوى صور — «المعلولات» و — «العلل»! ورؤيتنا للصور هاته هي التي تجعل من المستحيل علينا إدراك علاقة أشد أهمية من علاقة التوالي والانتظام !

122

العلل الغائية في الطبيعة. — الذي يدرس، كعالم محايد، تاريخ العين وأشكالها لدى الحيوانات الدنيا، ليبرهن على الطور البطيء لهذا العضو الذي يمكننا من الإبصار، سيجد حتما أن الإبصار لم يكن هو الهدف من وراء وجود العين، وبأنه ظهر على العكس حين شكلت الصدفة العين. من عيننا يسقط كالحراشف مثل واحد من هاته الأمثلة هو و«العلل الغائية».

123

العقل. — كيف ظهر العقل للوجود؟ بطريقة معقولة، — صدفة. يجب أن نفك رموز هاته الصدفة كما نفك لغزا.

124

ما الإرادة ؟ — نسخر من الذي يجتاز عتبة بيته في اللحظة التي تظهر فيها الشمس ويقول : «أريد أن تشرق الشمس»؛ ومن الذي لا يستطيع إيقاف دوران عجلة ويقول : «أريدها أن تدور»؛ والخاسر في المصارعة الذي يقول : «ها أنا ملقى هنا، ولكنني أنا من أريد أن أستلقي هنا!» ولكن هل نتصرف بخلاف هؤلاء الثلاثة، رغم سخريتنا منهم، حين نستخدم كلمة «أريد»؟

125

عن «مملكة الحرية». — نستطيع أن نتخيل من الأشياء أكثر مما نستطيع فعله أو عيشه، — مما يعني أن فكرنا سطحي ويرضى بالامور السطحية، إلى حد عدم ملاحظته لذلك. لو تم تطوير عقلنا بصرامة، وفق مقدار قوتنا، وممارستنا لهاته القوة، لجعلنا المبدأ الأول لتفكيرنا هو ألا نفهم إلا ما نستطيع القيام به، — هذا إذا افترضنا أن هناك فهما. الذي يشعر بالظمأ محروم من الماء، ولكن عقله يجعل صورة الماء لا تفارق مخيلته، وكأنه ليس هناك شيء أسهل من الحصول عليه، — طبيعة العقل السطحية التي يسهل إرضاؤها لا تستطيع فهم وجود حاجة حقيقية فتشعر بأنها متفوقة: إنها فخورة بكونها تريد أكثر، وتجري بشكل أسرع، وتكاد تحقق هدفها في لحظة واحدة، — وهكذا تبدو مملكة الأفكار، مقابل مملكة الفعل، ومملكة الإرادة و«العيش (le vivre)»، على أنها هي مملكة الحرية: بينما هي ليست في الواقع، كما أسلفت، سوى مملكة السطحية وعدم التطلب.

126

النسيان. — إننا لم نبرهن إلى حد الآن عن وجود النسيان؛ كل ما نعرفه هو أننا لا نتحكم في القدرة على التذكر. وقد وضعنها مؤقتا كلمة النسيان في هاته الثغرة الموجودة في قدرتنا: كما لو كانت تلك قدرة إضافية نمتلكها. ولكن ما الذي نقدر عليه! — إذا كانت هاته الكلمة تقع في ثغرة من ثغرات قدرتنا، ألن تكون الكلمات الأخرى في ثغرة من ثغرات معرفتنا بقدرتنا؟

127

من أجل هدف ما. — من بين كل الأفعال التي يقوم بها الإنسان تكون التي لا نفهمها جيدا هي تلك التي يقوم بها من أجل هدف ما، لاننا ننظر إليها دائما على أنها هي المعقولة أكثر، ويعتبرها إدراكنا هي المعتادة أكثر. المشاكل الكبرى مكانها الشارع.

128

الحلم والمسؤولية. — تريد أن تكون مسئولا عن كل شيء! ما عدا عن أحلامك! ياله من ضعف مثير للشفقة، يا لها من قلة الشجاعة المنطقية! لم تعد تملك شيئا أكثر من أحلامك! هي أفضل أعمالك! أنت كل شيء في هاته الكوميديا: أنت الموضوع، والشكل، والمدة، والممثل والمتفرج! وهذا هو ما يشعرك بالخوف ويجعلك تخجل من نفسك. كان أوديپ، أوديپ الحكيم، يعرف كيف يجد العزاء في فكرة كون حلمنا بهذا الشيء أو ذاك أمرا خارجا عن إرادتنا. أستنتج من ذلك أن الاغلبية الساحقة من الرجال يلومون أنفسهم على الاحلام المرعبة التي يرونها في منامهم. ولو كان الأمر خلاف ذلك لاستغل الناس الشعر الليلي لصالح غرور الإنسان أيما استغلال! — هل يجب أن نضيف بأن أوديپ الحكيم كان على حق، بأننا لسنا مسئولين عن أحلامنا، لا ينطبق ذلك أكثر على حالة اليقظة لدينا، وبأن أصل حرية الاختيار هو كبرياء الإنسان وإحساسه بالقوة؟ كثيرا ما أردد هذا: ولكن ذلك ليس سببا كافيا لاعتباره كذبا.

129

صراع البواعث المزعوم. — نتحدث عن «صراع البواعث»، ولكننا نعني بذلك صراعا ليس هو صراع البواعث. أعني أنه قبل الفعل تظهر لوعينا الانتخابي عواقب الافعال المختلفة التي نعتقد أننا قادرون على القيام بها كلها، فنقوم بمقارنة تلك العواقب. نقرر الإقدام على القيام بفعل ما حين نرى أن عواقبه ستكون في صالحنا؛ وقبل التوصل إلى هاته النتيجة غالبا ما نتعذب بسبب الصعوبات الكبيرة التي نجدها في التنبؤ بالعواقب، وتوقعها كلها دون استثناء: ومع ذلك كله يجب ألا نغفل نصيب الصدفة في الأمر. بعد ذلك نواجه ما هو أصعب: يجب أن نزن كل العواقب التي حددناها منفصلة عن بعضها، بصعوبة كبيرة، بنفس الميزان؛ وغالبا ما لا نجد الميزان، ولا الأوزان، التي نزن بها ذمامة المصلحة هاته، بسبب الاختلاف القيمي بين كل العواقب التي يمكن تخيلها. إذا سلمنا بأننا سنخرج من هاته العملية بما نخرج به من الاخريات، وبأن الصدفة هيأت لنا عواقب يمكننا

وزنها بالتبادل : فإنه سيبقى أمامنا، على شكل صورة عواقب فعل ما، باعث واحد لنكمل ذلك الفعل – أجل ! باعث واحد ! ولكن في اللحظة التي نقرر فيهاالإقدام على الفعل يكون الدافع صنفا من البواعث يختلف عن الصنف الموصوف هنا، ذلك الذي يعتبر جزءا من «صورة العواقب». عند ذلك تتدخل الطريقة التي اعتادت قوانا أن تلعب بها، إما حث خفيف من طرف شخص نهابه، أو نجله أو نحبه، أو اللامبالاة التي تفضل تنفيذ ما يتوفر لديها، أو يقظة الخيال التي يثيرها في اللحظة الحاسمة حدث صغير ما – عندها كذلك يتدخل العنصر الجسدي الذي لا نستطيع تحديده، أو مزاج اللحظة، أو الظهور المفاجئ لشغف مستعد للهجوم : باختصار، تتدخل بواعث لا نعرفها جديا أو لا نعرفها بتاتا، ولا نستطيع أبدا أن ندخلها في حساباتنا من قبل. من المحتمل أن يكون هناك بين هاته البواعث نفسها صراع، ومطاردة، وثورة وقمع – سيكون ذلك هو «صراع البواعث» الحقيقي : – صراع لا نراه ولا نعيه. أحصيت العواقب والنتائج وبذلك أدرجت غريزة هامة ضمن نظام صراع البواعث، – نظام صراع نادرا ما أضعه لأنني نادرا ما أراه : إنه صراع خفي، تماما كالانتصار فيه، لأنني أتعلم جيدا ما أقوم به في نهاية المطاف، ولكنني لا أعرف الباعث الذي تكون له الغلبة في النهاية. لقد تعودنا ألا ندخل ضمن حساباتنا كل تلك الظواهر اللاشعورية وألا نتخيل الإعداد لفعل ما إلا إذا كان فعلا شعوريا : وهذا هو ما يجعلنا نخلط بين صراع البواعث وبين مقارنة العواقب التي قد تنجم عن الأفعال، – وهو خلط له عواقب وخيمة وتأثير سيئ على تطور الاخلاق !

130

العلل الغائية؟ الارادة ؟ لقد ألفنا الإيمان بوجود مملكتين، مملكة العلل الغائية والإرادة، ومملكة الصدفة. في هاته المملكة الأخيرة لا نجد معنى لأي شيء، يحدث فيه كل شيء دون أن يتمكن أي كان من معرفة الغاية من حدوثه. نهاب مملكة الحماقة الكونية الكبرى، وهي مملكة قوية، لأننا غالبا ما نشرع في معرفتها حين تسقط في العالم الآخر، عالم العلل الغائية والمقاصد، كقرميدة سقف، على

رأس أحد أسمى أهدافنا. مصدر الإيمان بهاتين المملكتين هو رومانسية وأسطورة: نحن الأقزام الأذكياء، بإرادتنا وعللنا الغائية، يزعجنا عمالقة حمقى، ويدوسوننا بأقدامهم، ويرهقوننا: إنها الصدف، — ولكننا لا نريد، رغم كل شيء، أن نحرم من جوارهم الذي يتميز بشعرية مرعبة، لأن هؤلاء العمالقة يظهرون حين يصبح وجود شبكة العلل الغائية مزعجا ومخيفا، فيمزقون فجأة بأيديهم تلك الشبكة بأكملها. — ولكن هذا لا يعني أنهم يفعلون ذلك عن قصد! إنهم لا يتنبهون لكونهم يفعلونه. تمر أيديهم البارزةُ عظامُها عبر الشبكة كما تمر عبر الهواء.
— كان الإغريق يسمون مملكة ضيق الأفق والكائنات التي لا يمكن تقييمها هاته موارا (Moira)، ويجعلونها أفقا يحيط بآلهتهم ويكون هو حد رؤيتها ونفوذها: مع عصيان العديد من الشعوب للآلهة: يريدون عبادتها، ولكنهم يحتفظون لأنفسهم بورقة رابحة ضدها؛ فقد كان الهندوس والفرس، على سبيل المثال يتصورون أن حياة الآلهة تتوقف على القرابين التي يقدمونها لها بحيث يمكنهم، إن اقتضى الحال، أن يدعوها تموت جوعا وعطشا؛ أما الإسكندينافيون، القساة والسوداويون، فكانوا يفكرون، من خلال سقوط الآلهة مستقبلا، في الاستمتاع بالانتقام الصامت منها، للتعويض عن الخوف الدائم من تلك الالهة. الأمر بخلاف ذلك في المسيحية، التي ليست أفكارها الأساسية هندوسية، ولا فارسية، ولا إغريقية ولا اسكندنافية. المسيحية التي علمت الناس أن يعبدوا الرب القوي، في الكائن الضعيف، اقتضت أن نعود تراب في نهاية المطاف: علمتنا أن «ملكوت الحماقة» القوي ليس بليدا كما يبدو، وبأننا نحن هم البلداء، نحن الذين لا نتنبه إلى أن هناك وراء هذا الملكوت إلها بخسه الناس حقه على الدوام بتسميتهم له عملاقا أو موارا Moira، وهو الذي ينسج بنفسه شبكة العلل الغائية، وهي شبكة أرق من شبكة ذكائنا، — مما جعل ذكاءنا يجدها غامضة وغير معقولة — كانت تلك الحكاية عكسا جريئا للأمور ومفارقة جسورة لم يستطع الأقدمون، وقد أصبحوا واهنين، أن يقاوموهما، فقد بدا لهم ذلك في غاية الحمق والتناقض؛ — والحق أنه كان في الأمر تناقض: إذا كان عقلنا لا يستطيع تخمين عقل الإله وغاياته، فكيف استطاع أن يخمن تشكله هو كعقل، عقل العقول، وتشكل عقل الإله؟ — في العصور الحديثة تساءل الناس بشيء من الحذر عما إذا كانت القرميدة التي تسقط

من فوق سطح المنزل ملقاة من طرف «المحبة الإلهية» — وبدأ الناس يعودون لاقتفاء الآثار القديمة لرومانسية العمالقة والأقزام. لنعلم إذن، لأن أوان ذلك قد حان، بأن العمالقة هم الذين يحكمن مملكة العلل الغائية والعقل الخاصة بنا! وغالبا ما نمزق شبكاتنا بأيدينا، تماما كما تمزقها القرميدة الساقطة. وكل ما نسميه غاية ليس بغاية، كما أن ما نسميه إرادة ليس إرادة. ولو أردتم أن تختموا بالقول: «ليس هناك إذن إلا مملكة واحدة هي مملكة الحماقة والصدفة؟» — لوجب عليكم أن تضيفوا: أجل، ربما هناك مملكة واحدة فقط، ربما ليست هناك إرادة، ولا علل غائية، وربما تكون كلها من صنع خيالنا. أيدي الضرورة الصلبة التي تزعزع بوق الصدفة تستمر في لعبتها إلى ما لا نهاية: وبالتالي ستكون هناك ولا بد ضربات تشبه الغاية والحكمة إلى حد كبير. وربما تكون أفعالنا الإرادية، وعللنا الغائية عبارة عن تلك الضربات — ولكن قصر نظرنا وغرورنا يحولان بيننا وبين فهم ضيق أفقنا الذي لا يعرف أننا نحن من نزعزع، بأيدينا الصلبة، بوق النرد، وأن كل ما نفعله من خلال أفعالنا الإرادية هو أن نلعب لعبة الضرورة! — ولكي نذهب أبعد من ربما هاته يجب أن نكون قد حللنا من قبل بالجحيم ضيوفا، وجلسنا إلى مائدة پيرسيفون، ولعبنا، بعد أن قمنا بالمراهنة، مع مضيفتنا نفسها.

131

الموضات الأخلاقية. — ما أكبر التغير الذي طرأ على مجموع الأحكام الأخلاقية! لم يكن كبار الأخلاقيين القدماء، إپيكتيت مثلا، شيئا عن تمجيد روح التضحية الذي أصبح أمرا مألوفا اليوم، أي العيش من أجل الآخرين؛ لو عاملناهم وفق موضاتنا الأخلاقية لوصفناهم باللاأخلاقيين، لأنهم ناضلوا بكل ما أوتوا من قوة من أجل أنفسهم وضد الشفقة التي يثيرها لدينا الآخرون (خاصة بمعاناتهم وعجزهم الأخلاقي). وربما كانوا سيردون علينا بالقول: «إن كنتم تشعرون بالملل من أنفسكم أو تجدون أنفسكم ذميمين فإنكم تحسنون صنعا بتفكيركم في الآخرين عوض التفكير في أنفسكم!»

آخر أصداء المسيحية في الأخلاق. — «ما يجعلنا طيبين هي الشفقة : لذا يجب أن تمتزج الشفقة بكل مشاعرنا» — هاته هي أخلاق اليوم! وما سبب ذلك؟ — الإنسان الذي يقوم بأعمال اجتماعية ودية، وخالية من الانانية، وتخدم الصالح العام، يتم اعتباره إنسانا أخلاقيا، — ربما يكون هذا أكبر تأثير وأشمل تغيير أحدثته المسيحية في أوربا : وذلك رغما عنه، وحتى إن لم تكن تلك عقيدته. وقد كانت بقية من المشاعر المسيحية هي السائدة عندما تراجع الإيمان الأساسي، المتناقض والأناني، ب «الواحد الضروري»، بالأهمية البالغة للخلاص الأبدي والشخصي، وتراجعت معه الأركان التي يقوم عليها شيئا فشيئا، وتم بذلك إبراز الأيمان الثانوي ب«المحبة»، ب«محبة القريب»، التوي تتوافق مع الممارسة البشعة التي هي الإحسان الكنسي. كلما ابتعد الناس عن المبادئ كلما سعوا إلى تبرير هذا الابتعاد من خلال تقديس محبة الإنسانية : كان المحرك الخفي للمفكرين الاحرار الفرنسيين، من ڤولتير حتى أوغست كونت، هو ألا يأتوا في ذلك بأقل مما اتى به المثل الأعلى المسيحي، بل أن يزيدوا عليه، إن أمكن : وقد زاد كونت من مسيحية المسيحية بمقولته الاخلاقية الشهيرة «العيش من أجل الآخرين». كما أن شوبنهار في ألمانيا، وجون ستوارت ميل في أنجلترا، قد أضفيا شهرة كبيرة على عقائد التعاطف والشفقة، أو على نفع الاخرين، باعتبارها مبادئ للعمل : ولكنهما لم يكونا إلا صدى، — فقد ظهرت تلك العقائد دفعة واحدة في كل مكان، فظة — هنا ورقيقة هناك، وبحيوية شديدة، منذ الثورة الفرنسية تقريبا، كما أن كل الأنظمة الاشتراكية قد قامت، كأنما عن قصد، على الأرضية المشتركة بين هاته العقائد. ربما لا يوجد اليوم حكم مسبق أوسع انتشارا من الاعتقاد بأننا نعرف ما يكون الشأن الأخلاقي. يبدو اليوم كل واحد راضيا بكون المجتمع ماض في طريقه لتكييف الفرد مع الحاجيات العامة، وبأن اعتبار الفرد لنفسه عضوا فعالا وأداة تخدم الكل سيكون له بمثابة السعادة والتضحية في الوقت نفسه : ولكننا لا نزال الآن نتردد كثيرا في معرفة المكان الذي سنبحث فيه عن هذا الكل، هل في نظام قائم أم في نظام علينا تأسيسه، هل في الأمة أم في تآخي الشعوب، أم في جماعات اقتصادية صغيرة جديدة. هناك الان بصدد هذا الموضوع كثير من

التفكير، والتردد، والصراع، كثير من الحيوية والشغف: غير أن هناك انسجاما في الإجماع على ضرورة أن تنمحي الأنا إلى أن يحصل من جديد على حقوقه وواجباته الثابتة، التي تتخذ شكل التكيف مع الكل، — إلى أن يصبح شيئا جديدا ومختلفا. إن ما نريده — سواء أبدينا ذلك أم كتمناه — هو التحول الجوهري للفرد، بل ضعفه حتى، وانمحاءه: لم نعد نتعب أنفسنا بسرد واتهام الأمور السيئة، والمعادية، والتبذيرية، والمكلفة، والمترَفة في حياة الفرد كما عرفناها حتى اليوم، نتمنى أن نسير بالمجتمع في الوجهة الحسنة، بقليل من المخاطر وكثير من الوحدة، حين لا تعود هناك أجساد كبرى ولا أعضاؤها. كل ما يكون، بهذا الشكل أو ذاك، من قبيل غريزة التجمع والغرائز المتفرعة عنها، نعتبره جيدا، هذا هو التيار الأساسي الغالب على الأخلاق في عصرنا؛ يتم فيها الخلط بين التعاطف والمشاعر. (يقع كانط خارج هذا التيار: يعلمنا بوضوح أنه علينا ألا نتعاطف مع معاناة الآخرين، إذا كان المعروف الذي سنسديه إليهم سيكتسي صبغة أخلاقية، — وهو ما يسميه شوبنهاور، بغضب معقول من طرفه، بالهراء الكانطي.)

133

«**عدم التفكير في النفس**». — يجب أن نفكر جيدا في ما يلي: لماذا نقفز إلى الماء لننقذ شخصا من الغرق، حتى وإن كنا لا نكن له أية مودة؟ بدافع الشفقة لا نفكر إلا في قريبنا، — هكذا يجيبنا الطيش. لماذا نشعر بالألم والمرض الذي يشعر به الذي يبصق دما، بينما نحن في الواقع لا نريد له خيرا؟ بدافع الشفقة لا يفكر المرء في نفسه، — يجيبنا نفس الطيش. الحقيقة هي أننا في حالة الشفقة، — أعني في ما جرت العادة أن نسميه شفقة، بشكل خاطئ، — لا نفكر في أنفسنا بطريقة شعورية، ولكننا نفكر فيها لا شعوريا، تماما كما نفعل حين تنزلق رجلنا فنقوم، لاشعوريا، بالحركة العكسية التي تعيد لنا التوازن، معبرين من خلالها عن رشدنا. الحادث الذي يتعرض له غيرنا يحمل في طياته إساءة لنا، فهو قد يشعرنا بعجزنا، بل بجبننا، إذا لم نبادر بمعالجته. أو يقلل من عزتنا أمام الآخرين وأمام أنفسنا. أو نجد في ذلك الحادث وذلك المرض تحذيرا لنا من الخطر الذي يحدق بنا نحن كذلك؛

وحتى إن كانا من علامات اللايقين والضعف الإنساني فإن تأثيرهما علينا قد يكون متعبا. ندفع عنا هذا الشكل من الشقاء والإساءة – بشيء من الشفقة، شفقة قد يخالطها دفاع خفي عن أنفسنا وكذلك الانتقام لها. نخمن من هذا أننا نفكر كثيرا في أنفسنا حين ننظر إلى القرار الذي نتخذه في كل الحالات التي نستطيع فيها تفادي رؤية مظهر الذين يعانون، ويتأوهون وهم غارقون في تعاستهم : نقرر ألا نتفاداه حين نستطيع الاقتراب منه كرجال أقوياء يمكن مساعدتهم، واثقين من حصول الموافقة على ذلك، ونحن نريد تجربة الامر المعاكس لسعادتنا، أو ونحن نتمنى أن نجد في ذلك ما يخرجنا من الملل الذي نشعر به. نتسبب في سوء فهم حين نسمي شفقة تلك المعاناة التي تنتج لدينا عن ذلك المشهد، والتي قد تكون معاناة متعددة الأشكال، وهي معاناة لا يقاسيها، على كل حال، ذلك الذي نراه يعاني أمامنا : إنها تخصنا نحن كما تخصه معاناته هو. وبإبدائنا للشفقة نتخلص من معاناتنا الشخصية هاته. غبر أننا لا نقوم بذلك بدافع واحد : فمثلما نريد أن تخلص من المعاناة نستجيب كذلك، بالعملية ذاتها، لدافع رغبة ما، رغبة يثيرها مهر حالة معاكس لحالتنا، معاكس لقدرتنا على المساعدة إن نحن أردنا ذلك، للثناء والعرفان اللذين سنجنيهما إن نحن قدمنا يد المساعدة؛ من فعل المساعدة نفسه، شريطة أن يكلل بالنجاح (وبما أنه يكلل بالنجاح تدريجيا فإنه يدخل السرور على الذي يقوم به)، وخصوصا من خلال إحساسنا بأن تدخلنا يضع حدا لظلم مغيظ (مجرد تعبير المرء عن سخطه يجعله يشعر بالراحة). كل هذا، بما فيه أشياء أكثر دقة، يدخل ضمن «الشفقة» : – كم تهاجم اللغة بهاته الكلمة هجوما قويا بنيَة شديدة التعقيد! – انسجام الشفقة مع المعاناة التي يثيرها مظهرها، أو تفهمها لها بشكل عميق ودقيق – كل هذا يتعارض مع التجربة، والذي يشيد بالشفقة بهذين الاعتبارين تنقيصه التجربة في مجال الاخلاق. لهذا أثير الشكوك حين أقرأ الامور العصية على التصديق التي قررها شوبنهاور بشأن الشفقة : وقد أراد بذلك جعلنا نؤمن بجدَّة ابتكاره، – بأن الشفقة – التي لا يحسن ملاحظتها ولا وصفها – هي مصدر كل عمل أخلاقي آني أو مستقبلي – وبسبب المزايا التي بدأ يبتكرها لها. – ما الذي يميز، في نهاية المطاف، الرجال الشفوقين عن غيرهم من القساة؟ أولا وقبل كل شيء – وحتى نقدم الخطوط العريضة فقط، – لا يملكون

خيالا سريع التأثر بالخوف، والقدرة الفائقة على استشعار الخطر؛ كما أن غرورهم لا يتأثر سريعا إذا حدث ما كان بوسعهم تفاديه (فالحذر الذي يتميز به كبرياؤهم يمنعهم من التدخل المجاني في شؤون الآخرين، بل إنهم يحبون، ويتصرفون وفق ذلك بالفعل، أن يقوم كل واحد بمساعدة نفسه ولعب كل أوراقه). وهم متعودون، علاوة علي ذلك، على تحمل الألم أكثر من الشفوقين، ولا يبدو لهم من الظلم أن يعاني الآخرون بما أنهم قد سبقوهم للمعاناة. وأخيرا يحزنون لرؤية مظهر القلوب المرهفة الإحساس، كما يحزن الشفوقون لرؤية مظهر اللاانفعالية الرواقية؛ إنهم يحتقرون القلوب المرهفة الإحساس، ويخشون أن يكون عقلهم القوي وشجاعتهم معرضين للخطر، يخفون دموعهم عن أنظار الآخرين ويمسحونها، ساخطين على أنفسهم. إنهم ينتمون لصنف آخر من الأنانيين وليس لصنف الشفوقين؛ — ونعتهم بالخبثاء تمييزا لهم، ونعت الشفوقين بالصالحين، هو مجرد موضة أخلاقية سينتهي أوانها : تماما كما انتهى أوان الموضة المعاكسة الذي دام طويلا.

134

بأي اعتبار يجب الاحتراس من الشفقة. — الشفقة، إذا كانت تتسبب لنا فعلا في المعاناة — وهذا يجب أن يكون هنا رأينا الوحيد — ضعف ككل استسلام لحنان مضر. إنها تزيد من حجم المعاناة في العالم : إذا وجدنا، في عدة أماكن، أن معاناة ما قد قلت بشكل غير مباشر أو زالت تماما، فإنه لا ينبغي لنا أن نستغل تلك النتائج التي تحدث مصادفة، والتافهة في مجملها، لتبرير أشكال الشفقة التي تلحق بنا الضرر. ولو أن هاته الأشكال أصبحت هي المهيمنة، ولو ليوم واحد، فإنها ستمضي بالإنسانية نحو الهلاك. لا تملك الشفقة في ذاتها ولو سمة واحدة نافعة أكثر من الغرائز الأخرى : فقط حين نطلب منها ذلك ونمجدها — يحدث ذلك حين لا ندرك الجانب المضر فيها، ونكتشف فيها مصدرا للمتعة — تتخذ مظهر الضمير الحي؛ وحينها نستسلم لها ولا نخشى عواقبها. وفي الحالات الأخرى، التي ندرك فيها بسهولة أنها خطيرة، نعتبرها ضعفا : أو، كما كان الحال عند الإغريق، كمرض دوري يمكن تخليصه من طبعه المضر بواسطة أعداد من

المتطوعين المؤقتين. — الذي جرب أن يبحث عن قصد لمدة معينة عن الفرص التي أبدى فيها الشفقة في حياته العملية ويتمثل، في قرارة نفسه، التعاسة التي قد يراها في محيطه، يصبح حتما مريضا وسوداويا. والذي يريد، بهذا المعنى أو ذاك، أن يجعل من نفسه طبيبا للإنسانية عليه أن يحتاط كثيرا من هذا الإحساس — الذي يشله خلال كل اللحظات الحاسمة، ويعرقل عِلمه ويعوق يده الدقيقة عن تقديم المساعدة.

135

إثارة الشفقة. — هناك من بين المتوحشين من يعتقدون، وقشعريرة أخلاقية تنتابهم، أنه يمكنهم أن يثيروا الشفقة: وهو ما يعتبر دليلا على كونهم محرومين من كل فضيلة. إبداء الشفقة يعادل الازدراء: لا نريد أن نرى شخصا حقيرا يعاني، فذلك لا يولد لدينا أية متعة. بينما تعتبر رؤية العدو يعاني، العدو الذي نعتبره ندا لنا في الكبرياء، دون أن يدفعه التعذيب للتخلي عن موقفه، ورؤية كل من يعاني دون أن يستغيث ويطلب الرحمة، أي الإهانة الشديدة والمذلة، تعتبر هي أسمى المتع، وفيها تشمخ روح المتوحش شموخا يثير الإعجاب: في نهاية المطاف يقتل ذلك الشجاع الأبي، حين يكون بمقدوره ذلك، ويقوم بتكريمه وهو الصلب الذي لا تلين له قناة. لو تأوه، لو فارقت وجهه سحنة الازدراء الهادئ، لو أظهر نفسه جديرا بالاحتقار، — لتمكن من الاستمرار على قيد الحياة كالكلب، — لما أثار كبرياء المُشاهد ولحلت الشفقة محل الإعجاب.

136

السعادة في الشفقة. — حين نجعل الهدف من كل نشاط فكري نقوم به، مثل الهنود الحمر، هو معرفة البؤس الإنساني، وحين نظل، على مدى عدة أجيال، أوفياء لهذه التعليمة المرعبة، فإن الشفقة تصبح لها في نهاية المطاف، في نظر المتشائمين بالوراثة، قيمة جديدة باعتبارها قيمة تحافظ على الحياة، وتساعد على

تحمل الوجود حتى حين يكون جديرا بأن نرفضه باشمئزاز وفزع. تصبح الشفقة هي الترياق المضاد للانتحار، بما أنها تنطوي على متعة وتجعلنا نشعر بالتفوق شيئا فشيئا: إنها تبعدنا عن أنفسنا، وتملأ قلبنا، وتطرد عنا الخوف والفتور، وتحثنا على الكلام، وعلى الشكوى والعمل، — إنها سعادة نسبية، إذا ما قارناها ببؤس المعرفة التي تضيّق على الفرد من كل جانب، وتلقي به في الظلمات، وتتركه مذهولا. السعادة، كيفما كانت، تجعلنا نحلق، وتضيء ما حولنا وتمنحنا الحرية في الحركة.

137

لماذا ازدواجية «الأنا». — إذا نظرنا للأحداث التي تعرفها حياتنا بنفس العين التي ننظر إلى الأحداث التي تعرفها حياة شخص آخر فإن ذلك يجعلنا هادئين أكثر ويكون بمثابة دواء مناسب. اما إذا اعتبرنا أحداث حياة الآخرين التي ننظر إليها كما لو كانت أحداثا نعيشها نحن — وهو أمر تتطلبه فلسفة الشفقة ـ، فإن ذلك سيقضي علينا في ظرف وجيز؛ فلنكف عن الهذيان ولنجربه. لأننا نحكم بموضوعية أكثر على قيمة حدث ما حين يحدث لدى الآخرين وليس لدينا: مثلا على قيمة وفاة شخص ما، أو ضياع مال، أو افتراء. إذا اقترنت الشفقة، باعتبارها مبدأ للعمل، مع هاته التعليمة: «عان مما أصاب الآخر كما يعاني منه هو»، فإنها ستجعل وجهة نظر الأنا، بمبالغاتها وزيغانها، تصبح هي وجهة نظر الآخر، أي المشفق: بحيث سيكون علينا أن نعاني في نفس الوقت من الأنا ومن الآخر، وبذلك نرهن أنفسنا بحماقتين، عوض أن نخفف من عبء حماقتنا نحن ما أمكن.

138

الليونة. — حين نحب شخصا ما، ونبجله ونعجب به ثم نتنبه بعد ذلك إلى أنه يعاني، — وهو ما نندهش له كثيرا، لأننا لا نستطيع أن نشك في كون تلك السعادة التي تنبعث منه إلينا لا تنبع من سعادته الشخصية التي لا ينضب لها

معين — فإن شعورنا بالحب، والتبجيل والإعجاب يتغير بشكل جوهري : يصبح أكثر ليونة، أي أن الهوية التي تفصلنا عنه تبدو وكأنها تمتلئ، ويبدو أن التقارب يحدث بيننا كندين. يبدو لنا الآن أننا نستطيع أن نقابل عطاءه بعطاء مماثل، بينما فيما مضى كنا نتصوره أكبر من عرفاننا. هاته القدرة على مقابلة العطاء بالعطاء تهز مشاعرنا وتمتعنا أيما متعة. نسعى لمعرفة ما قد يخفف من آلام صديقنا فنقدمه له؛ إذا أراد الكلام، أو النظرات، أو الاهتمام، أو الخدمات، أو الهدايا المواسية، — فإننا نقدمها له؛ وإذا أرادنا، قبل ذلك، أن نتألم لآلامه فإننا نتألم، لأن كل ذلك يجعلنا نستمع في المقام الأول بملذات المعرفة الفعالة : وما هذا، باختصار، سوى انتقام. إذا رفض أن يقبل أي شيء ولم يقبل منا نحن أي شيء فإن ذلك يبث فينا شعورا بالحزن، ويكاد يجرحنا : كأننا نرفض عرفاننا، — وكل الرجال حساسون بخصوص نقطة الشرف هاته. — يجب أن نستنتج من كل هذا أن هناك في المعاناة، حتى في أفضل الأحوال، شيئا يحط من قدرنا، وأن في الشفقة شيئا يسمو بنا ويجعلنا متفوقين؛ وهو ما يفرق على الدوام بين هذين الإحساسين.

139

التفوق المزعوم. — تقولون بأن أخلاق الشفقة أخلاق متفوقة على أخلاق الرواقية؟ برهنوا على ذلك، ولكن اعلموا أنه لا ينبغي لنا أن نرتكز على ما التقييمات الأخلاقية لنبين «المتفوق» و«الأدنى» في الأخلاق : لأنه ليست هناك أخلاق مطلقة. ابحثوا إذن عن معاييركم في مجالات أخرى — وخذوا حِذركم!

140

الثناء والتأنيب. إذا انتهت الحرب بالهزيمة نبحث عمن ننسب إليه «الخطأ» الذي تسبب في الهزيمة؛ وإذا انتهت بالانتصار فإننا نثني على من كان وراء ذلك الانتصار. حيثما يكون الفشل نبحث عن الخطأ، لأن الفشل يترتب عنه الاستياء، وهو ما نواجهه تلقائيا بعلاج وحيد : إثارة جديدة لمشاعر القوة — وهي إثارة نجدها في إدانة «المسئول عن الهزيمة». ليس هذا المسئول، كما قد نعتقد، كبش الفداء

مقابل أخطاء الآخرين : بل هو ضحية الضعفاء، والمهانين، والمحتقرين الذين يريدون أن يبرهنوا على كونهم لا يزالون يتمتعون بالقوة، وذلك بممارستها على اي شيء. حتى إدانة المرء لنفسه قد تصلح كوسيلة تمكنه من الشعور بالقوة بعد الهزيمة. — أما تمجيد من تحقق النصر على يديه فغالبا ما يكون من نتيجة عمياء لغريزة أخرى تريد أن تكون لها ضحيتها : — يحدث ذلك حين يبلغ الشعور بالقوة لديه ذروته لدى شعب ما، أو مجتمع ما، إثر انتصار كبير ومجيد يليه تعب من النصر وتخل عن شيء من الكبرياء؛ عندها يظهر شعور بنكران الذات يبحث عن موضوع له. — سواء تم الثناء علينا أو تأنيبنا فإننا غابا ما لا نكون، بالنسبة لجيراننا، سوى فرص، وغالبا ما تكون فرصا ينتهزونها اعتباطا، ليفرغوا ما تراكم لديهم من تأنيب أو ثناء : إننا نقدم لم في كلتا الحالتين خدمة لا نحصل مقابلها على اي شيء ولا يقابلونها بالعرفان.

141

أجمل، ولكن أقل قيمة. — أخلاقية جديرة بالتصوير : إنها أخلاقية المحبة التي تنمو بشكل حاد، أخلاقية المواقف والتعامل الوجدانيين، الحادين، المخيفين والمهيبين. هاته هي الأخلاقية النصف متوحشة : لا يجب أن ننخدع بسحرها الجمالي فنبوئها درجة عالية.

142

تعاطف. — إذا كنا، لكي نفهم قريبنا، أي لكي نشعر بنفس ما يشعر به، نعود باستمرار إلى عمق مشاعره، التي نحددها بهاته الطريقة أو تلك، متسائلين مثلا : لماذا هو حزين؟ — لنحزن نحن كذلك لنفس السبب ، فإنا كثيرا ما لا نتصرف على هذا النحو ونثير فينا تلك المشاعر وفقا للآثار التي تظهر جلية على قريبنا، بتقليدنا لما تعبر عنه عيناه، أو صوته، أو سيره، أو موقفه (إلى أن يحدث هناك تشابه طفيف بين حركة العضلات والأعصاب لدينا) أو نقوم بتجسيد ذلك في الكلام، والرسم، والموسيقى. عندها يتولد لدينا شعور مماثل إثر الجمع بين

الحركات والمشاعر، جمع تم ترويضه ليعمل في الاتجاهين معا. لقد طورنا كثيرا مهارة فهم مشاعر الآخرين، وفي حضور شخص ما نمارس هاته المهارة على الدوام بشكل يكاد يكون لاشعوريا : لنشاهد على الخصوص لعبة القسمات على وجه امرأة، وسنرى كم يرتعش ويشع نورا حين يقوم بمحاكاة المشاعر التي تتفاعل في المحيطين بها. بيد أن الموسيقى هي التي بكل جلاء مهارتنا الكبيرة في التخمين السريع والدقيق للمشاعر وفي التعاطف : على الأقل إذا كانت الموسيقى محاكاة لمحاكاة المشاعر وتجعلنا، رغم كون ذلك أمرا بعيدا وغامضا، نشارك غيرنا تلك المشاعر، بحيث نصبح حزينين بلا سبب يدعونا للحزن، كما يفعل المجانين، فقط لكوننا نسمع أصواتا وإيقاعات تذكرنا بطريقة ما بنبرة وحركات الذين هم في حداد، بل حتى بعاداتهم. يحكى عن أحد ملوك الدانمارك أنه وقع تحت التأثير الشديد للموسيقى التي عزفها أمامه شاعر جوال فقام عن عرشه من شدة الحماس وقتل خمسة من أفراد حاشيته كانوا مجتمعين حوله : لم تكن هناك حرب أو عدو، بل عكس ذلك تماما، ولكن القوة التي تنطلق من الإحساس إلى السبب كانت شديدة القوة بحيث انتصرت على البداهة والعقل. على هذا النحو يكاد يكون تأثير الموسيقى على الدوام (هذا إذا اعتبرنا أن هلا أثرا)، ولا نحتاج لمثل هاته الحالات التناقضية لنتنبه لذلك : فالحالة الشعورية التي تخلفها لدينا الموسيقى تكاد تكون دائما مناقضة لبداهة وضعنا الواقعي وللعقل الذي يتعرف على هذا الوضع الواقعي وأسبابه. – إذا تساءلنا عن كيف أصبح من الشائع لدينا محاكاة مشاعر الآخرين فإن الجواب سيكون ولا شك : بما أن الإنسان هو أكثر الكائنات خوفا، بسبب طبيعته الدقيقة والهشة، قد وجد في ميله هذا نحو الخوف باعثا لهذا التعاطف، لهذا التفهم السريع لمشاعر الآخرين (حتى مشاعر الحيوانات). على مر آلاف السنين رأى الإنسان الخطر في كل ما هو غريب عنه، في كل ما هو حي : بمجرد ما تقع عيناه على مشهد من هذا القبيل يقوم بمحاكاة السمات والمواقف التي يشاهدها، ويخرج بخلاصة عن طبيعة النوايا السيئة التي تخفيها تلك السمات وذلك الموقف. ولقد طبق الإنسان تأويله للحركات والسمات وفق النوايا حتى على الأشياء الجامدة – لأنه كان يتوهم أنه لا يوجد شيء جامد. أعتقد أن كل ما نسميه شعورا بالطبيعة، والذي ينتابنا عند رؤيتنا للسماء، والحقول، والصخور،

والغابات، والعواصف، والنجوم، والبحار، والمناظر الطبيعية، وفصل الربيع، ينبع من هنا. لولا ذلك الخوف الذي يجبرنا على النظر إلى كل هذا من زاوية ثانوية وبعيدة لكنا الآن محرومين من مباهج الطبيعة، ولولا الخوف، الذي يقف وراء كل فهم، لما وجدنا أية متعة في الإنسان ولا في الحيوانات. ومن جهة أخرى تعتبر الفرحة والمفاجأة السارة، وشعور المرء بكونه مثيرا للسخرية، أبناء للتعاطف، أبناء آخر من ولد من الأبناء وإخوة أصغر من الخوف. — ملَكة الفهم السريع — القائمة إذن على ملكة التظاهر السريع — تقل لدى الناس والشعوب الذين لهم شعور قوي بالكبرياء والسيادة، نظرا لكونهم أقل خوفا: أما الشعوب التي تخاف فتعرف كل أنواع الفهم والتظاهر؛ هنا لا يزال يوجد الجزء الحقيقي من فنون المحاكاة والذكاء المتفوق. — وإذ أفكر، بالنظر إلى نظرية التعاطف مثلما أقترحها هنا، في نظرية سيرورة صوفية، التي تمتع بالحظوة والتكريس اليوم، التي بموجبها تجعل الشفقة من شخصين شخصا واحدا، وبالتالي تمكن الواحد منهما من فهم الآخر على التو: وإذ أتذكر المتعة التي كان يجدها عقل حصيف كعقل شوبنهاور في تلك الأشياء الباطلة المثيرة للحماس والبئيسة، وكونه نقل تلك المتعة إلى عقول أخرى حصيفة ونصف حصيفة: أندهش غاية ما يكون الاندهاش وينتابني حزن لا حد له. ما أكبر المتعة التي تخلفها لدينا الحماقات غير المفهومة! وكم يكون الإنسان قريبا من اللامعقول حين ينصت لرغباته الفكرية الخفية! — (ترى ما الذي جعل شوبنهاور يعترف بالجميل لكانط، ويبدي له كل ذلك الامتنان؟ لقد كشف لنا عن ذلك بكل وضوح ذات مرة. سبق لأحدهم أن تحدث عن الطريقة التي يمكن بها إخراج الميزة الخفية من الأمر القطعي لتصبح معقولة. وهو ما جعل شوبنهاور يصرخ قائلا: «معقولية الأمر القطعي! يا لها من فكرة خاطئة تماما! إنها ظلمات مصر! أتمنى بحق السماء ألا تصبح معقولة! أن يكون هناك شيء لامعقول، وأن يكون حكمنا البئيس بتصوراته محدودا، ومشروطا، وتاما، ومضللا: هذا اليقين هو أفضل ما حصل عليه كانط.» — أدعوكم هنا للتفكير، إذا كان لأحد منكم الرغبة الصادقة في معرفة الأمور الأخلاقية، في حديثه قبل كل شيء، وبحماس، عن الإيمان بلا معقوليتها! من لا يزال يؤمن بكل صدق بالإشراقات الربانية، بالسحر وبالتجليات، وبالقبح الميتافزيقي للضفدع!).

143

الويل لنا من اندفاع هذا الميل! — لو قدر للميل نحو التفاني في خدمة الآخرين والحدب عليهم («التعاطف الودي») أن يصبح ضعف ما هو عليه الآن، فإن المقام على الأرض سيصبح أمرا لا يطاق. لنفكر فقط في الحماقات التي يرتكبها كل شخص، كل يوم وفي كل وقت، بسبب إخلاصه لنفسه وحدبه عليها، كم يكون منظره لا يطاق عندها : كيف سيكون الأمر لو أننا أصبحنا بالنسبة للآخرين موضوع تلك الحماقات والإلحاف بعد أن كانوا حتى الآن هم موضوعها دون سواهم! ألا يجب عندها أن نفر كلما اقترب منا أحد «بني البشر»؟ وأن نتحدث عن التعاطف الودي بنفس الكلام المشين الذي نتحدث به اليوم عن الأنانية ؟

144

الابتعاد عن بؤس الآخرين. — إذا تركنا بؤس الآخرين ومعاناتهم يصيباننا بالغم، وإذا جعلنا سماءنا ملبدة بالغيوم، فمن الذي سيتحمل عواقب ذلك الغم؟ البشر الآخرون ولا شك، وسيكون نلك عبئا ينضاف إلى الأعباء التي تثقل كاهلهم! إننا لا نستطيع أن ننجدهم، أو نواسيهم، إن نحن أردنا أن نكون صدى لبؤسهم، وإن أردنا الإنصات باستمرار لذلك البؤس، — اللهم إلا إذا تعلمنا فن الأولمبيين وأصبحنا نسعى منذ اليوم لأن نربي أنفسنا من خلال ما يصيب الناس بدل الاكتفاء بالحزن لذلك. غير أن هذا يظل من سمات الأولمبيين التي تفوق طاقتنا : وإن كنا قد خطونا خطوة إلى الأمام، من خلال استمتاعنا بالتراجيديا، نحو الأكل المثالي للأشباه الذي نجده لدى آلهة الأولمب.

145

«غير أناني!» — هذا فارغ ويريد أن يصبح ممتلئا، وذاك ممتلئ ويريد أن يصبح فارغا، — وكلاهما يشعران بأنه عليهما أن يجدل من سيساعدهما على

ذلك. وهاته الظاهرة، إذا نحن حللناها بعمق، نجدها في كلتا الحالتين تحمل نفس الاسم : الحب. — كيف؟ هل يكون الحب غير أناني؟

146

النظر بعيدا عن القريب. — كيف؟ يقتضي جوهر الشيء الأخلاقي الحقيقي، بالنسبة لنا، أن نتصور العواقب المباشرة التي قد تكون لأعمالنا على الآخرين، وأن نتخذ قرارنا وفقا لتلك العواقب؟ ما هاته إلا مجرد أخلاق ضيقة نجدها لدى البورجوازيين الصغار، وإن كانت أخلاقا على كل حال : ولكنني أرى أنه من باب التفكير الراقي والدقيق أن ننظر أبعد من تلك العواقب المباشرة التي ستصيب قريبنا، وذلك بغية تشجيع الناس على إبداء عزم بعيد النظر، مع احتمال التسبب في آلام للآخرين، — كتشجيع المعرفة مثلا، رغم تيقننا من كون حريتنا في التفكير ستبدأ أولا بإثارة الشك، والحزن، وربما ما هو أسوأ منهما لدى الآخرين. أليس لنا الحق في معاملة قريبنا بنفس الطريقة التي نعامل بها أنفسنا نحن؟ إذا كنا لا نفكر، بطريقة ضيقة وشبيهة بطريقة البرجوازيين الصغار، في العواقب التي قد تصيبنا نحن، لماذا يكون علينا أن نفكر في ذلك بالنسبة لقريبنا؟ إذا سلمنا بأننا نمتلك حس التضحية بأنفسنا : فما الذي يمنعنا من أن نضحي بقريبنا حين نضحي بأنفسنا؟ — مثلما فعلت حتى الآن الدولة والملوك، بتضحيتهم بأحد المواطنين من أجل غيره من المواطنين، «من أجل المصلحة العامة!» كما قيل. نحن كذلك لنا مصالحنا العامة، وربما تكون أكبر مما عداها من المصالح العامة : فلماذا لا يكون لنا الحق في التضحية ببعض الأفراد من الجيل الحالي لصالح الأجيال القادمة؟ بحيث يتم اعتبار معاناتهم، وقلقهم، ويأسهم، وأخطائهم وترددهم أمورا ضرورية، لأن سكة محراث جديدة يجب أن تحرث التربة وتصيرها خصبة من أجل الكل؟ — وفي نهاية المطاف نجعل القريب يشعر بأنه ضحية، نقنعه بقبول المهمة التي نستخدمه من أجلها. فهل نحن قساة القلوب؟ إذا أردنا مع ذلك، وبعيدا عن شفقتنا، أن ننتصر على أنفسنا، ألن يكون ذلك موقفا أخلاقيا أكثر سموا وحرية من ذلك الموقف الذي نشعر فيه بالأمان حين نكتشف ما إن كان

عمل ما يعود بالنفع على قريبنا أو يسيء إليه؟ لأننا بتلك التضحية – التي نقوم بها نحن وقريبنا – سنقوي ونرفع من الشعور العام بقوة الإنسان، هذا إذا سلمنا بأننا لن نحقق ما هو أكبر من ذلك. – وفي نهاية المطاف، حتى لو كان ذلك... ولكنني لن أضيف أية كلمة! نظرة تكفي، إنكم تدركون قصدي.

147

سبب«الإيثار». – لقد تحدث الناس عموما عن الحب بكثير من التفخيم والتدله عن الحب لأنهم لم يحظوا منه بالكثير، ولم يتمكنوا أبدا من إشباع أنفسهم من هذا الغذاء: وهو ما جعله يتحول في نظرهم إلى «غذاء رباني». لو أن شاعرا أراد أن ينقل إلينا صورة مل تحقق من طوبى الحب الشامل لبني البشر لكان عليه أن يصف لنا حالة فظيعة ومثيرة للسخرية لم نشهد لها مثيلا على وجه الأرض، – سيكون كل واحد عرضة للتحرش، والإزعاج، ويكون موضوع رغبة ليس فقط من طرف رجل واحد، كما قد يحدث اليوم، بل من طرف آلاف الناس، لا بل كل الناس، بسبب ميل لا يقاوم سيكرهه الناس ويلعنونه مثلما لعنت الإنسانية الانانية قديما؛ ولو ترك لشعراء هاته الحالة الجديدة الوقت لينظموا أشعارا لما حلموا سوى بالماضي السعيد الذي لم يعرف فيه الناس الحب، وبالأنانية السامية، والوحدة التي كانت فيما مضى ممكنة على ظهر الأرض، بالهدوء، بحالة النفور، والكراهية، والازدراء، مهما تكن الأسماء التي قد نطلقها على الحيوانية المشينة التي نعيشها اليوم.

148

نظرة نحو البعيد. – إذا كانت الأعمال التي نقوم بها من أجل القريب وحدها هي التي نسميها أعمالا أخلاقية، وفق تعريف معين، فإنه ليست هناك أعمال أخلاقية! وإذا كانت الأعمال التي نقوم بها وفق إرادة حرة، كما يريده تعريف آخر، فإنه ليست هناك مرة أخرى أعمال أخلاقية! – فما الذي نسميه أعمالا أخلاقية، وهو شيء موجود بالفعل وبالتالي يتطلب تفسيرا ؟ إنها آثار

بعض الأخطاء الفكرية. – إذا سلمنا بتخلصنا من تلك الأخطاء فماذا سيكون مصير «الأعمال الأخلاقية» ؟ – بواسطة هاته الأخطاء أضفينا حتى الآن على بعض الأعمال قيمة أكثر من قيمتها الحقيقية : فصلناها عن الأعمال «الغيرية» والاعمال «غير الحرة». إذا جمعنا بينها من جديد، مثلما يجب أن نفعل، فإننا سنقلل من قيمتها ولا شك (الشعور بقيمتها) إلى ما دون المستوى المعقول، بما أن الأعمال «الغيرية» و«غير الحرة» قد أعطيت قيمة ضعيفة حتى الآن، بسبب هذا الفرق الكبير المزعوم. – هل سيقلل الناس من القيام بها، من الآن فصاعدا، لأنها ستصبح أقل قيمة؟ – بكل تأكيد! خلال وقت معين على الأقل، طيلة الفترة التي يعاني فيها ميزان الشعور بالقيمة من ردة فعل الأخطاء القديمة! وفي المقابل نشجع الناس على القيام بالأعمال التي يتم وصفها بأنها أنانية وبالتالي نعيد لها قيمتها، – نحررها من تبكيت الضمير! وبما أن الأعمال المتسمة بالأنانية قد كانت، حتى الآن، هي الأكثر انتشارا، وستظل كذلك إلى الأبد، فإننا بذلك نخلص صورة الأعمال والحياة من مظهرها الخبيث.

الكتاب الثالث

149

ضرورة بعض الأعمال المخالفة البسيطة! — يجب أن نتصرف في مجال العادات، ولو لمرة واحدة، بخلاف ما نفضله؛ أن نتنازل هنا، عمليا، ولكن دون التفريط في حريتنا الفكرية؛ أن نتصرف ككل الناس ونبدي لكل الناس لطفا ومبرة، وذلك كنوع من التعويض لهم عن الفارق الموجود بيننا في الآراء : — كل هذا لا يعتبره الرجال الذين يتمتعون بنوع من الاستقلالية شيئا مقبولا فحسب، بل شيئا «صادقا»، و«إنسانيا»، و«متسامحا»، و«خاليا من التنطع »، مهما تكن الكلمات التي يتم استخدامها لتنويم الوعي الفكري : وهكذا يقوم أحدهم بتعميد طفله وإعطائه اسما مسيحيا وهو ملحد، ويؤدي آخر خدمته العسكرية رغم إدانته الشديدة للكراهية بين الشعوب، ويتقدم ثالث نحو الكنيسة رفقة امرأة لأن أبويه مؤمنان، ويقطع وعودا أمام الكاهن دون أن يخجل من كونه لا يعني ما يقوله. «لا يهم أن يعاملنا أحدهم كما يفعل كل الناس، وكما فعلوا دوما» — هكذا يقول الحكم المسبق الفظ! والخطأ الجسيم! لأنه ليس هناك ما هو أهم من الإثبات مرة أخرى لما هو قوي، وتقليدي ومعترف به بلا سبب، من خلال فعل يقوم به شخص معقول جدا : بهذا نضفي على هذا الشيء، في رأي كل من يسمعون عنه، صفة الصواب! مع احترامي لآرائكم أقول بأن بعض الأعمال المخالفة — البسيطة تكون لها قيمة أكبر!

150

صدفة الزواج. — لو كنت إلها طيبا لنفد صبري بسبب زواج الناس دون غيره من الأمور. قد يحقق الإنسان الشيء الكثير خلال السبعين سنة التي يعيشها، بل حتى الثلاثين، — هذا أمر مدهش، حتى بالنسبة للآلهة! ولكن إذا رأينا كيف

يعلق الإرث والهبة اللذين يحصل عليهما من هذا الصراع والانتصار، كيف يعلق أكاليل غار إنسانيته، عند أول مكان يجده لتمتد يد امرأة وتأخذها؛ إذا رأينا كم يتقن الاكتساب ويفشل في الاحتفاظ بما اكتسبه، وبأنه لا يفكر مجرد التفكير في كونه يستطيع، من خلال الإنجاب، أن يهيئ حياة تحقق انتصارا أكبر: فإننا سنفقد صبرنا ونقول: «لن ينتج عن الإنسانية شيء على المدى الطويل، فالأفراد يتم تبذيرهم، والزيجات التي تحصل بالصدفة تحول صواب التقدم الكبير للإنسانية إلى شيء مستحيل؛ — إلى متى سنظل متفرجين ومهرجين نشارك في هذا العرض الذي لا هدف له؟» — هذا هو ما جعل آلهة أبيقور تنسحب فيما مضى وتلوذ بصمتها وغبطتها الربانية: لقد سئمت الناس وأمور الحب لديهم.

151

مثل أعلى يجب ابتكاره. — لا يجب السماح للشخص المحب أن يتخذ قرارا يصبح ملزما له طيلة حياته، وأن يحدد بشكل نهائي، بسبب نزوة قوية، طبيعة عشرته: يجب أن نعتبر أيمان المحبين لاغية أمام الملأ ونرفض تزويجهم: — وذلك لأننا نريد أن نعطي الزواج أهمية أكبر! من الأجدر ألا يتم عقده في الحالات التي يتم فيها عقده حاليا! ألا تتم أغلب الزيجات اليوم في ظل الرغبة القوية في عدم حضور طرف ثالث كشاهد؟ وغالبا ما يحضر هذا الطرف الثالث — وهو الطفل — الذي لا يعتبر شاهدا فقط، بل كبش فداء!

152

صيغة القسم. — «إن كذبت الآن فإنني أصبح رجلا غير شريف ويصبح من حق كل واحد أن يقول لي ذلك علانية.» — أنصح باستخدام صيغة اليمين هاته بدل اليمين القانونية والتضرع إلى الله الذي جرت به العادة: فهي أقوى. حتى الرجل التقي لن يجد ما يدعوه للتهرب منها: لأنه بمجرد ما لا تعود اليمين تؤدي وظيفتها كما ينبغي يصبح على الرجل التقي أن ينصت لعقيدته التي تقول: «ما دعوت الله ربك إلا استجاب لك!»

153

مستاء. — هو أحد الشجعان القدامى : يستاء من الحضارة لأنه يعتقد أنها تروم جعل كل الأشياء الطيبة، — الشرف، الكنوز، النساء الجميلات — في متناول الجبناء كما في متناول الشجعان.

154

مواساة في الخطر. — كان الإغريق، الذين كانت حياتهم محفوفة بالمخاطر الكبيرة والكوارث، يبحثون في التأمل والمعرفة عن نوع من الأمان في الشعور وعن ملاذ أخير. أما نحن، الذين نعيش حياة أكثر هدوء، فقد نقلنا الخطر إلى التأمل والمعرفة، والحياة هي التي نجد فيها راحتنا وملاذا من ذلك الخطر.

155

شك خامد. — أصبح الإقدام على الأمور الخطيرة في العصور الحديثة أقل مما كان عليه في العصور القديمة والعصور الوسطى، — ربما لأن الناس في العصور الحديثة لم يعدوا يؤمنون بالإشارات، ووسطاء الوحي، والتنجيم والعرافين. أي أننا أصبحنا عاجزين عن الإيمان بمستقبل مخصص لنا، مثلما كان يفعل القدماء الذين كانوا — على العكس منا — يشكون في ما يحدث أقل مما يشكون في ما هو موجود.

156

شرير بدافع الخيلاء ... — «عسى ألا نشعر براحة مفرطة!» — ذلك ما كان يخشاه الإغريق سرا في أوج ازدهارهم. لذلك كانوا يدعون إلى الاعتدال. ونحن !

157

معتقد «صوت الطبيعة». — ماذا يعني صبر ثقافتنا على مظاهر الألم، والدموع، والشكوى، واللوم، وحالات الغيظ والتذلل، بل وقبولها لها كلها واعتبارها من الأشياء النبيلة التي لا مفر منها؟ — هذا في الوقت الذي كان فيه العقل في الفلسفة القديمة يزدريها ولا يراها ضرورية. لنتذكر الطريقة التي يتحدث بها أفلاطون — الذي لم يكن واحدا من الفلاسفة اللاإنسانيين — عن فيلوكطيط المشهد التراجيدي. فهل تنقص «الفلسفة» حضارتنا الحديثة؟ وهل نكون نحن كلنا، وفقا لتقدير أولئك الفلاسفة القدماء، — جزءا من «الدهماء»؟

158

منبت المتملق. — لا يجب أن نبحث الآن عن المتملقين، الذين يتذللون لغيرهم، في محيط الأمراء، — فهؤلاء يمتلكون ذوقا عسكريا ينفر منه المتملقون. لقد أصبحت هاته النبتة تنمو الآن في محيط الصيارفة والفنانين.

159

ذاكرو الأموات. — يبدي بعض المغرورين إعجابهم بشذرة وواردة أعلاه في الكتاب الثالث لكونهم قد يعيشونه عاطفيا (خاصة إذا كان ذلك صعبا)، بل يريدون أن يبعثوه من بين الأموات إن اقتضى الحال ذلك. بما أن عدد المغرورين يكون دائما كبير جدا، فإن الخطر الذي تمثله الدراسات التاريخية، عندما تتناول بالدراسة حقبة ما، يكون جسيما: يتم تبذير الكثير من القوة من أجل كل عمليات البعث الممكن تخيلها. ربما نفهم الحركة الرومانسية بانطلاقنا من وجهة النظر هاته.

160

مغرور، جشع وقليل الحكمة. — رغباتكم أكبر من عقلكم، وغروركم أكبر من رغباتكم، — يجب أن ننصح أمثالكم بممارسة الكثير من الشعائر المسيحية، والقليل من نظرية شوبنهاور علاوة على ذلك.

161

جمال موافق للعصر. — إذا أراد نحاتونا، وفنانونا وموسيقيونا أن يجسدوا روح هذا العصر فسيكون عليهم أن يظهروا لنا الجمال متضخما، وهائلا وعصبيا : تماما كما كان الإغريق، في ظل إكراه أخلاق الاعتدال، يرون الجمال مجسدا في تمثال أبولون. لا شك أننا نعتبره، على العموم، قبيحا! ولكن «الكلاسيكيين» المغرورين بعلمهم جردونا من كل صدق!

162

سخرية رجال العصر الحاضر. — ينظر الأوربيون حاليا إلى كل المصالح الكبرى بسخرية، لأنهم لا يجدون الوقت لنظر إليها بكل جدية بسبب انهماكهم في خدمتها.

163

ضد روسو. — إدا كانت حضارتنا تثير الرثاء فإن لكم الخيار في أن تقولوا في خلاصاتكم مع روسو : «حضارتنا المثيرة للرثاء هاته هي سبب أخلاقيتنا السيئة»، أو أن تعكسوا عبارة روسو في خلاصتكم : «أخلاقيتنا الحسنة هي سبب هاته الحضارة المثيرة للرثاء. لقد أدت تصوراتنا الاجتماعية للخير والشر، الضعيفة والمخنثة، بهيمنتها الكبيرة على الروح والجسد، إلى إضعاف كل الأرواح والأجساد وتحطيم الرجال الأحرار، المستقلين، الذين ليست لهم أحكام مسبقة، والذين يعتبرون دعائم حضارة قوية : وحيثما وجدنا اليوم تلك الأخلاقية السيئة نرى آخر أطلال تلك الدعائم.» هناك إذن مفارقة ضد مفارقة! ولا يمكن للحقيقة أن تكون في صفهما معا أبدا : وهل تكون في صف هذا الجانب أو ذاك عموما؟ لنتفحص الأمر لنتأكد!

164

ربما قبل الأوان. — يبدو أن الذين لا يشعرون بوجود صلة تربطهم بالأخلاق وبالقوانين الجاري به العمل يقومون في الوقت الحالي بمحاولات أولى لتنظيم صفوفهم ومنح أنفسهم حقا، متخذين عدة أسماء مغلوطة غالبا ما تضللنا وتكون قليلة الوضوح : هذا بينما ظل كل المجرمين، والمفكرون الأحرار، واللاأخلاقيون والاثمون محتقرين وخارجين عن القانون، يصيبهم الذبول من جراء تبكيت الضمير. علينا، إجمالا، أن نقبل بهذا ونعتبره أمرا حسنا، وإن كان القرن المقبل سيعاني من جرائه قلة الأمن وربما صار لزاما على كل فرد أن يحمل بندقيته : — ولو فقط لتكون هناك قوة معارضة تذكر على الدوام بأنه ليست هناك أخلاق مطلقة وخاصة، وبأن الأخلاقية التي تثبت وجودها على حساب أخلاقية أخرى تدمر الكثير من القوة الحية وتكلف الإنسانية غاليا. يجب الكف عن التضحية بالمخالفين الذين غالبا ما يكونون هم المبتكرين والمبدعين؛ لا يجب أن يعتبر الحياد عن الأخلاق، تفكيرا وعملا، شيئا مخجلا؛ يجب أن نقوم بالكثير من المحاولات الجديدة فيما يخص وجود الجماعة؛ يجب أن نحرر العالم من عبء كبير من تبكيت الضمير، — يجب أن يعترف كل الصادقين الباحثين عن الحقيقة بهاته الاهداف العامة ويشجعوا عليها !

165

الأخلاق غير المملة. — التعاليم الأساسية التي يتلقاها شعب ما من خلال الوعظ تكون مرتبطة بعيوبه الأساسية، لذلك لا يجدها مملة. كان الإغريق، الذين غالبا ما يفقدون اعتدالهم، وهدوءهم، وحس العدالة والتعقل، يصغون باهتمام للفضائل السقراطية الأربعة، — لأنهم كانوا في حاجة لتلك الفضائل ولم يكونوا بارعين فيها!

166

عند المنعطف. ألا تخجلون! تريدون أن تدخلوا نظاما يجب أن تكونوا ضمن دواليبه، بشكل كامل وشامل، مع احتمال أن تسحقكم تلك الدواليب!

هناك حيث من البديهي أن يكون الفرد كما يريده رؤساؤه. وحيث يصبح السعي المحموم وراء «العلاقات» جزءا من الواجبات الطبيعية! حيث لا يشعر أي أحد بالإهانة حين نجعله يتم برجل ما ملاحظا «أنه قد ينفعه»! حيث لا يخجل المرء من زيارة غيره لطلب وساطته! حيث لا يشك المرء بتاتا في كونه قد وضع نفسه بشكل نهائي، بخضوعه القصدي لتلك العادات، ضمن خزفيات الطبيعة البخسة التي يستطيع الآخرون أن استخدامها أو تحطيمها كما يحلو لهم، دون أن يشعروا تجاه ذلك بالمسؤولية؛ وكأنكم تريدون أن تقولوا: «سيكون هناك دائما ما يكفي من أمثالي: لا عليكم إذن أن تستخدموني كما شئتم!»

167

الإجلال المطلق. — حين أفكر في الفيلسوف الألماني المقروءة أعماله أكثر، والموسيقي الألماني الذي يستمع الألمان لمعزوفاته أكثر، ورجل الدولة الألماني المبجل أكثر، أجدني مرغما على الاعتراف لنفسي: الذي يجعل الحياة قاسية بالنسبة للألمان اليوم، هذا الشعب المرهف الأحاسيس، هم عظماؤه. في الحالات الثلاث نجد أنفسنا أمام مشهد رائع يستحق التأمل: في كل مرة نرى نهرا جامحا في مجراه حتى لنخاله يريد صعود الجبل. ومهما يكن المدى الذي يبلغه إعجابنا فمن منا لا يريد أن يكون له رأي مخالف لرأي شوبنهاور؟ ومن منا يريد أن يشاطر ريتشارد ڤاغنر آراءه، في الأمور الصغيرة كما في الأمور الكبيرة؟ مهما تكن صائبة ملاحظة القائل بأنه حيثما يبعث ڤاغنر في الناس دافعا لا يقاوم أو يسلبه منهم يكون ثمة مشكل خفي، — دعنا من هذا، فليس و من يسلط الضوء عليه. — وأخيرا كم من الألمان سيتفقون بكل عن طيب خاطر، شريطة أن يكون هو متفقا مع نفسه، أو أن سمة ذلك قد بدت عليه؟ من — المؤكد أنه رجل ليست له مبادئ، بل غرائز، وعقل لا يستقر على حال، عقل يخدم غرائز مهيمنة قوية وبالتالي بلا مبادئ، — ليس هذا بالأمر الذي يفاجئنا عند رجل الدولة، بل يعتبر بالأحرى عاديا ومطابقا للطبيعة. قليلا ما وجدنا هذا لدى الألمان حتى الآن مع الأسف! قليلا كالضجة التي تحدث حول الموسيقى، واللحن النشاز والمزاج

العكر حول الموسيقي! قليلا كالموقف الجديد والرائع الذي اتخذه شوبنهاور : لم يرتفع فوق الأشياء ولم يجث على ركبتيه أمامها — فلو فعل لكان في كلتا الحالتين ألمانيا ، — بل وقف ضدها! هذا شيء بشع لا يصدق! يقف على قدم المساواة مع الأشياء ويكون خصمها في نفس الوقت، وفي نهاية المطاف يصبح خصم نفسه! ماذا سيفعل المعجب الشديد الإعجاب بهذا النموذج؟ خاصة بهاته النماذج الثلاثة التي لا تريد أن تكون في سلام مع بعضها! ها هو شوبنهاور يعارض موسيقى ڤاغنر، وڤاغنر يعارض سياسة بسمارك، وبسمارك يعارض منظومة ڤاغنر الموسيقية ويعارض فلسفة شوبنهاور! ما العمل؟ بأي شيء سيلوذ الألماني بتعطشه «للإجلال الإجمالي»؟ هل نستطيع أن نختار من العمل الفني للموسيقي كله بضع مئات من الأوزان التي يميل إليها قلبنا ويحبه كثيرا، لأن لها قلبا — هل نقف جانبا مكتفين بهاته الغنيمة القليلة وننسى الباقي كله؟ هل يمكن أن نبحث عن تركيبة مماثلة لدى الفيلسوف ورجل الدولة — أن نختار، ثم نحب، وخاصة أن ننسى كل ما تبقى؟ أجل، لو لم يكن النسيان أمرا صعبا! كان هناك ذات مرة رجل شديد الكبرياء يرفض رفضا باتا أن يتلقى أي شيء إلا منه هو، سواء كان ذلك خيرا أم شرا : ولما احتاج للنسيان لم يستطع أن يمنحه لنفسه، مما اضطره لاستدعاء الأرواح ثلاث مرات؛ حضرت الأرواح واستمعت لرغبته ثم قالت : «هذا هو الأمر الوحيد الذي ليس في مقدورنا!» ألا يجدر بالألمان أم يستفيدوا من تجربة مانفريد؟ لماذا التضرع للأرواح في المقام الأول؟ هذا لا يفيد في شيء، فنحن لا ننسى حين نريد أن ننسى. وكم سيكون ذلك «الباقي» الذي علينا نسيانه، لدى هؤلاء العظماء الثلاثة في عصرنا، لكي نظل معجبين بهم إجمالا! سيكون من الأفضل أن ننتهز الفرصة لنحاول القيام بشيء جديد : أعني أن يمضي الشعب الألماني قدما في صدقه مع نفسه ويصبح شعبا يوافق بشروط ويعارض برفق، بدل أن يكون شعبا يعيد ما فعله الآخرون بسذاجة ويكره بخبث وبطريقة عمياء؛ ولكن عليه أن يتعلم قبل كل شيء أن الإجلال المطلق للأشخاص شيء سخيف، وأن تغيير الرأي بهذا الخصوص لن يكون أمرا معيبا، حتى بالنسبة للألمان، وأن هناك كلمة عميقة الدلالة يجدر به أن يتعلق بها : «ليس الأشخاص هم الأهم بل الأشياء». هاته كلمة، كقائلها، عظيمة، شجاعة، بسيطة وصامتة، — مثل كارنو

Carnot، الجندي الجمهوري. — ولكن هل يمكننا أن نحدث الألمان بهاته الطريقة عن شخص فرنسي، وجمهوري علاوة على ذلك؟ ربما لا، وربما لا نملك حتى الحق في التذكير بما قاله نيبور Niebuhr للألمان فيما مضى : أنه كارنو وحده هو من خلف لديه أكثر من أي شخص آخر إحساسا بالعظمة الحقيقية.

168

نموذج. — ما الذي أحبه في ثوسيديد، ما الذي يجعلني أقدره أكثر كم أفلاطون؟ يجد متعة الاحكام المسبقة في كل ما هو نموذجي لدى الإنسان وفي الأحداث، ويجد أن لك فرد يمتلك قدرا معينا من الرشاد : ذلك الرشاد هو ما يسعى لاكتشافه. نجد لديه عدالة عملية أكبر من التي ندها لدى أفلاطون؛ لا يفتري على الذين لا يعجبونه أو الذين أساؤوا إليه ولا يحط من قدرهم. بل يقوم، على العكس، بإضافة شيء ذي أهمية إلى كل شيء وكل شخص من خلال اعتبارهم كلهم نماذج؛ فماذا ستستفيد الاجيال المقبلة، التي يكرس لها عمله، من كل ما ليس نموذجا! هكذا تبلغ ثقافة المعرفة الحرة بالعالم من خلاله، وهو المفكر الإنسان، ازدهارا كبيرا، ثقافة شاعرها هو صوفوكليس، ورجل دولتها هو پيريكليس، وطبيبها هو أبقراط، وعالمها الطبيعي هو ديمقريط : هاته الثقافة التي تستحق أن نطلق عليها اسم أصحابها، السفسطائيين، والتي بمجرد ما نسميها تبدأ، مع الأسف، في الذبول وتصبح غامضة بالنسبة لنا، — لان الشك يراودنا منذ تلك اللحظة بأن تلك الثقافة هي ثقافة لاأخلاقية — لأن أفلاطون وكل المدارس السقراطية قد حاربوها! الحقيقة شديدة التعقيد والتشابك بحيث نشمئز من فك خيوطها : فليمض الخطأ القديم (خطأ الحقيقة البسيطة) في طريقه القديم!

169

غربة العبقرية الاغريقية عنا. — تتميز الحضارات الشرقية والحديثة، والأسيوية والأوربية، مقارنة مع الحضارة الإغريقية، بالضخامة والميل نحو استخدام الكتل الكبيرة في تعبيرها عن السمو، بينما في پايستوم، پومپي أو أثينا

نقف مندهشين أمام المعمار الإغريقي، إذ نرى براعة الإغريق في استخدام الكتل الصغيرة للتعبير عن السمو، وحبهم للتعبير عن ذلك. — كما نندهش أمام بساطة الفكرة التي كانت للناس عن أنفسهم! كم نفوقهم في معرفتنا بالناس! وكم تبدوا أرواحنا، وتصوراتنا للروح، مليئة بالمتاهات مقارنة مع أرواحهم وتصوراتهم عن الروح! ولو أردنا أن نشيد معمارا يعبر عن طبيعة روحنا (وهو ما لا نجرؤ عليه بسبب جبننا)، فيجب أن تكون المتاهة هي النموذج الذي علينا تطبيقه! موسيقانا التي تعبر عنا أصدق تعبير توحي لنا بالمتاهة (ففي الموسيقى يعبر الناس بتلقائية عن أنفسهم لأنهم يعتقدون أنه لا أحد يستطيع أن يراهم من وراء موسيقاهم).

170

الإحساس من منظور آخر. — ماذا تعني ثرثرتنا عن الإغريق! ما الذي نفهمه من فنهم، الذي جوهره هو عشق الجمال الرجولي العاري! — بانطلاقهم من ذلك الجمال امتلكوا الإحساس بالجمال الأنثوي. كانوا يرونه من منظور مخالف للذي نراه منه. ينطبق ذلك حتى على حبهم للمرأة: كانوا مخالفين لنا في طريقة تبجيلهم أو احتقارهم لها.

171

تغذية الإنسان الحديث. — يهضم الإنسان الحديث كثيرا من الأشياء، بل يكاد يهضم كل شيء، — هنا يكمن غروره: ولولا قدرته على الهضم تلك لكان من سلالة أرقى: أومو پامفاغوس، وهي سلال ليست رقيقة للغاية. إننا نعيش بين ماض كان له ذوق أكثر تهورا وغرابة من ذوقنا، ومستقبل ربما سيكون له ذوق أفضل من ذوقنا، — إننا نعيش عيشة جد متوسط.

172

التراجيديا والموسيقى. — من الصعب هز مشاعر الرجال الميالة عقولهم للحرب، كالإغريق زمن أخيل، وإذا حدث مرة ولانت قسوتهم بدافع الشفقة فإن

شكلا من الدوخة يصيبهم، كقوة «شيطانية»، — فيشعرون عندها أن شعورا دينيا يهزهم ويجبرهم على الرحمة. وبعد برهة يبدون تحفظهم بخصوص تلك الحال؛ وبما أنها قد انتابتهم فإنهم يستمتعون بالبهجة التي توفرها لهم النشوة والشيء العجيب، ممزوجة بمرارة المعاناة: هذا شراب جدير بالمحاربين، وهو شراب نادر، وخطير، وحلو ومر، وليس من السهل أن يشاركهم فيه غيرهم. — تخاطب التراجيديا الرجال الذين يشعرون بالشفقة على هذا النحو، الرجال القساة والمحاربين الذين يصعب تليين عزائمهم، إما عن طريق الخوف، أو الشفقة، والذين يفيدهم ذلك اللين من حين لآخر. ولكن ما عسى التراجيديا تمنح المنفتحين على «المشاعر الودية» انفتاح الشراع على الرياح! لما أصبح الأثينيون أكثر رقة ورهافة في الإحساس، زمن أفلاطون، — وإن لم يبلغوا في ذلك العاطفة الكاذبة والمتكلَّفة التي يتميز بها سكان المدن الكبيرة والصغيرة اليوم! — بدأ الفلاسفة يشتكون من الضرر الذي ينجم عن التراجيديا. والعصر المليء بالمخاطر، كالذي بدأنا نعيشه اليوم، حيث أصبحت الشجاعة والرجولة باهظتي الثمن، قد يجعل النفوس قاسية بالتدريج ليكون الشعراء المأساتيون ضروريين بالنسبة لها: وفي انتظار ذلك يعتبر هؤلاء الشعراء شيئا فائضا عن الحاجة، — حتى نستخدم كلمة غير مسيئة. — على هذا النحو قد تعرف الموسيقى في المستقبل مرحلة أفضل (ستكون شرسة ولا شك!)، مرحلة سيكون فيها على الفنانين الموسيقيين أن يخاطبوا رجالا ذاتيين بشكل صارم، قساة القلوب، تهيمن عليهم جدية ولعهم القاتمة: ولكن ما عسى أن تقدم الموسيقى اليوم لرجيلات العصر الحاضر، الذين ولدوا من — زمن ولى، الشديدو الاضطراب، الناقصو النمو، النصف ذاتيين، الفضوليون الراغبون في امتلاك كل شيء؟

173

ممجدو العمل. — أرى في تمجيد «العمل»، وفي الخطب الطويلة حول «نعمة العمل»، نفس الفكرة المبطنة التي أراها في الثناء على الأعمال النزيهة التي تكون لها منفعة عامة: أرى فيها الخوف من كل ما هو فردي. بدأنا نتنبه الآن

إلى أن العمل – أي ذلك النشاط القاسي الذي يمتد من الصباح حتى المساء – هو أفضل شرطة، فهو يمسك بزمام كل فرد، ويتمكن بقوة من عرقلة تطور العقل، والرغبات، والرغبة في الاستقلالية. لأن العمل يستنزف الطاقة العصبية بشكل كبير، ويحول بينها وبين التفكير، والتأمل، والحلم، والانشغالات، والحب والكراهية، يضع دائما نصب العينين هدفا صغيرا ويجعل الناس راضين رضا سهلا ومنتظما. وهكذا ينعم المجتمع الذي يعمل فيه الناس كثيرا بأمان أكبر : والأمن هو أشد ما يعبده الناس اليوم. – والفظيع في الأمر هو أن «العامل» هو الذي أصبح يشكل خطرا! أصبح العالم يعج بـ«الأفراد الخطرين»! ووراءهم يكمن الخطر الاكبر – الفرد!

174

الصيغة الأخلاقية للمجتمع التجاري. – وراء المبدأ الحالي للصيغة الأخلاقية : «الأعمال الأخلاقية هي أعمال التعاطف مع الآخرين»، أرى هيمنة غريزة اجتماعية هي غريزة الخشية التي تتخذ بذلك قناعا فكريا : تجعل هاته الغريزة مبدأها الأسمى، الأهم والأقرب، ضرورة تخليص الحياة من الخطورة التي كانت تطبعها فيما مضى، وضرورة أن يساهم كل واحد في ذلك بكل ما أوتي من قوة. لذلك تعتبر الأعمال التي تهدف إلى تحقيق الأمن العام وشعور المجتمع بالأمن هي الوحيدة التي يمكن وصفها بكونها «حسنة»! – ما أقل المتع التي على الناس أن يجعلوها نصب أعينهم لينصحهم تسلط الخشية بالقانون الاخلاقي السامي، ليتلقوا دون لأن يعترضوا أمر توجيه أنظارهم بعيدا عن أنفسهم، وأن تكون لهم عيون كعيون الوشق ليبصروا بها بؤس الاخرين ومعاناتهم! ألسنا نمضي في الطريق الصحيح نحو ت\ويب الإنسانية إلى حد تحويلها إلى مجرد ذرات رمل بنيتنا، التي ضخمناها كثيرا، سحج – خشونة وزوايا الحياة؟ رمل! رمل دقيق، رخو، حُبَيبي، لامتناه! هل هذا هو مثلكم الأعلى يا أبطال المشاعر الودية؟ – في غضون ذلك يجب أن نعرف ما إن كنا نخدم قريبنا بمسارعتنا على الفور وباستمرار لنجدته ومساعدته، – وهو ما لا يمكن أن يتم إلا بشكل سطحي ما لم

يصبح مصادرة ظالمة — ، أو بجعلنا من أنفسنا شيئا يفرح القريب لرؤيته، كبستان جميل هادئ ومغلق تحيط به أسوار عالية تحميه من العواصف ومن غبار الطرق الكبرى، ولكنه ذو باب مضياف.

175

الفكر الذي تقوم عليه ثقافة التجار. — تتشكل أمامنا الآن، ومن عدة جوانب، ثقافة مجتمع تعتبر التجارة هي روحه كما كانت المبارزة هي روح الثقافة عند الإغريق، والحرب والانتصار والقانون روح الثقافة لدى الرومان. الذي يمارس التجارة يتقن تحديد سعر كل شيء دون أن ينتجه، أن يحدد سعره حسب حاجة المستهلك وليس حسب حاجته هو؛ أهم شيء لديه هو يعرف «من هم الأشخاص الذين يستهلكون هذا المنتوج وكم عددهم؟» ومنذ أن يعرف الجواب يقوم، بشكل غريزي ودون انقطاع، بتحديد تسعيرة لكل شيء، أي حتى بالنسبة لمنتجات الفنون والعلوم، وما ينتجه المفكرون، والعلماء، والفنانون، ورجال الدولة، والشعوب، والأحزاب، بل وعصورا بأكملها: يجمع المعلومات عن كل ما يتم ابتكاره، عن العرض والطلب، ليتمكن من تحديد قيمة الشيء. هذا هو ما سيكون، بعد أن تم وضعه كمبدأ لثقافة بأكملها، وتمت دراسته من أقصاه إلى أقصاه وفرضه على كل أصناف الإرادة والمعرفة، مفخرتكم يا رجال القرن القادم: إذا رأى أنبياء طبقة التجار أنه من الصواب وضعه بين أيديكم! ولكنني لا أثق في أولئك الأنبياء. Credat Judceus Apella كما قال هوراس.

176

نقد الآباء. — لماذا نتحمل الآن الحقيقة التي تخص الماضي القريب؟ لأنه يوجد على الدوام جيل جديد يشعر بأنه نقيض هذا الماضي، ويستمتع من خلال هذا النقد بطلائع شعوره بالقوة. فيما مضى كان الجيل الجديد يريد، على العكس، أن يبني على ما جاء به الجيل السابق فيبدأ وعيه ذاته يتشكل لديه، ليس فقط من

خلال قبوله آراء الآباء، بل من خلال الدفاع المستميت عنها إن اقتضى الأمر ذلك. كان انتقاد سلطة الأب فيما مضى يعتبر رذيلة، أم اليوم فهو ما يبدأ به المثاليون الشباب.

177

تعلم الوحدة. — أيها الصعاليك، يا من تقطنون المدن الكبرى للسياسة العالمية، أيها الشبان الموهوبون، الذين يعذبكم الغرور، أتعتقدون أن واجبكم هو أن تعبروا عن رأيكم في كل الأحداث (ـ لأن هناك دائما حدثا ما)! تعتقدون انكم حين تثيرون هذا الغبار والضجيج تصبحون أنتم من يقود التاريخ! تترقبون دائما وتنتظرون اللحظة المناسبة لتخاطبوا الجماهير، وبذلك تفقدون كل إبداعية حقيقية! مهما تكن الرغبة التي تبدونها في تحقيق أعمال كبرى فإن صمت النضج المطبق لا يأتي إليكم! يسوقكم حدث اليوم أمامه كما تذهب الريح بالقش الخفيف، وأنتم تتوهمون انكم تسوقون الحدث، — أيها المساكين! — الذي يريد أن يكون بطلا على خشبة المسرح لا يجب عليه أن يفكر في لعب دور الجوقة، بل لا يجب أن يعرف حتى كيف يعبر عن رأيه جماعة مع الاخرين.

178

الذين يستنزفون طاقتهم يوميا. — هؤلاء الشباب لا تنقصهم الشخصية، ولا الاستعداد، ولا الحماسة : ولكن الناس لم يتركوا لهم يوما فرصة توجيه أنفسهم الوجهة التي يريدون، معودين إياهم، على العكس من ذلك، منذ نعومة أظفارهم على تلقي التوجيه من غيرهم. ولما بلغوا السن التي تسمح بإرسالهم لخوض غمار الحياة فعلوا بهم خلاف ما يجب فعله، — استخدموهم، حرموهم من أن يكونوا أنفسهم، علموهم أن يستنزفوا أنفسهم يوميا، جعلوا لهم من ذلك واجبا ومبدأ — والآن لا يستطيعون الاستغناء عنه، لا يريدون أن يكون الأمر بخلاف ذلك. ولكن يجب ألا يتم حرمان حيوانات الجر هاته من «عطلتها» — هكذا يسمون المثل الاعلى المصطنع في هذا القرن المنهك : عطلة يستمتع الناس خلالها بالتكاسل، ويعيشون بلادتهم وصبيانيتهم.

179

أقل قدر ممكن من «الدولة». — لا تستحق كل الأوضاع السياسية والاجتماعية أن يتمتع الموهوبون وحدهم بحق الانشغال بها، وأن يتم إجبارهم على ذلك : فتبذير العقول بهذا الشكل يعتبر أخطر من الافتقار إليها. السياسة حقل تعمل فيه العقول الضعيفة، وهو حقل لا يجب فتحه أمام الآخرين : ولو حدث فمن الأجدر بهاته الآلة أن تتفكك مرة أخرى! والطريقة التي تجري بها الأمور اليوم، حيث لا يعتقد كل واحد أنه من واجبه أن يعرف ماذا يجري فحسب، يل يريد أن يساهم فيها بفعالية في كل لحظة، مهملا عمله من أجل ذلك، تجعل منها جنونا شديدا مثيرا للسخرية. ندفع أمولا باهظة من أجل «الأمن العمومي»، والشيء الأكثر جنونا هو أن نتيجة ذلك تكون عكس الأمن العمومي، وقرننا الممتاز ماض في البرهنة على ذلك : وكأن ذلك لم يحدث أبدا! حماية المجتمع من اللصوص والحرائق، وجعلها مكانا مناسبا لتجارة الناس وعلاقاتهم، وتحويل الدولة إلى عناية، بمعنييها السلبي والإيجابي، — كل هاته أهداف دنيا، ضعيفة وغير ضرورية، لا يجب أن نوظف كل الإمكانيات المتاحة لتحقيقها، — وهي الإمكانيات التي يجب أن نوظفها من أجل الغايات السامية والنادرة! عصرنا عصر مبذر، مهما تحدثنا عن التوفير : وهو يبذر أغلى ما يملك، إنه العقل.

180

الحروب. — الحروب الكبرى التي تجري في العهود الحديثة هي نتيجة الدراسات التاريخية

181

الحكم. — بعض الحكام يحكمون لأنهم يجدون في الحكم متعة، وآخرون يحكمون لكي لا يصبحوا محكومين : — لقد اختاروا أهون الشرين.

182

المنطق الفظ. — نقول عن رجل ما، وباحترام شديد : «يا لها من شخصية !» — أجل! إذا كان له منطق فظ، منطق يظهر جليا للعيون الحسيرة النظر! ولكن بمجرد ما يتعلق الأمر بعقل دقيق وعميق التفكير، ومنطقي على طريقته، الطريقة الأسمى، فإن المشاهدين ينفون أن تكون له شخصية. لذلك يتظاهر رجال الدولة غي أغلب الأحوال بأن لهم منطقا فظا.

183

الشيوخ والشباب. — «هناك في وجود المجالس النيابية شيئا لاأخلاقيا — هناك من لا يزال يعتقد هذا ـ، لأن للنواب الحق في إبداء آراء مخالفة لآراء الحكومة!» — «يجب أن يكون دائما نفس الرأي الذي يأمر به سيدنا وربنا!» — تلك هي الوصية الحادية عشرة لبعض العقول الهرمة الشجاعة، خاصة في شمال ألمانيا. نسخر منها كما نسخر من موضة قديمة : فيما مضى كان ذلك يندرج ضمن الأخلاق! وربما سنسخر يوما مما يعتبر أخلاقا لدى الجيل الجديد، الذي تربى على الحياة النيابية : أقصد رفع سياسة الأحزاب فوق الحكمة الفردية، والإجابة على كل مسألة تخص الشأن العام وفق ما يخدم مصالح الحزب. «يجب أ، يكون للمرء بخصوص ذلك الشأن الرأي الذي يفرضه واقع الحزب» — تلك هي عبارات القانون. في الوقت الحالي يقوم الناس بمختلف التضحيات، خدمة لتلك الأخلاق، إلى أن ينتصروا على ذواتهم ويموتوا شهداء في سبيل ذلك.

184

الدولة، نتاج الفوضويين. — في البلدان التي يكون فيها الناس مطيعين نجد عددا من الذين يتخلفون عن صفوف المطيعين : وعلى الفور يلتحقون بصفوف الاشتراكيين أكثر من سواهم. ولو حدث ووضع هؤلاء القوانين فمن المؤكد أنهم سيفرضون على أنفسهم سلاسل من حديد وسيعملون على إخضاع الناس

بشكل رهيب : فهم يعرفون أنفسهم! ويتحملون تلك القوانين واعين أنهم هم من وضعوها، — فالشعور بالقوة حديث جدا لديهم وشديد الجاذبية بحيث يحول دون معاناتهم بسببه.

185

متسولون. — يجب القضاء على المتسولين، لأننا نغضب لإعطائهم ونغضب لعدم إعطائهم.

186

رجال الأعمال. — أعمالكم هي أكبر أحكامكم المسبقة، لأنها تربطكم بالمكان الذي انتم فيه، بمجتمعكم، وبأذواقكم. أنتم مثابرون حين يتعلق الأمر بالأعمال، — ولكنكم متهاونون إذا تعلق الأمر بالعقل، راضون بقلة كفاءتكم، معلقين وزرة الواجب على قلة الكفاءة تلك : هكذا تحيون، وهكذا تريدون لأبنائكم أن يكونوا!

187

مستقبل ممكن. — ألا يمكن تخيل حالة اجتماعية يعلن فيها المجرم نفسه مذنبا، ويصدر الحكم على نفسه أمام الملأ، مزهوا بكونه يطبق القانون الذي وضعه بنفسه، وبتعبيره عن قوته وهو يعاقب نفسه بنفسه، قوة المشرع؟ قد يخطئ مرة، ولكنه بعقابه نفسه طوعا يسمو على جرمه، وهو لا يمسحه فحسب بصراحته، وعظمته وهدوئه، بل يضيف إليه مبرة عمومية. — سيكون هذا هو مجرم مستقبل ممكن، وهو ما يفترض وجود تشريع خاص بالمستقبل، وتكون فكرته الاساسية : «لا أخضع، في الامور الصغيرة كما في الكبيرة، إلا للقانون الذي وافقت عليه.» وقبل أن يتحقق ذلك كم من المحاولات يجب القيام بها! وكم من مستقبل يجب أن يرى النور!

188

النشوة والغذاء. — لا يتم خداع الشعوب إلا لأنها تبحث دائما عمن يخدعها، أي عن خمر تهيج حواسها. وإذا حصلت على تلك الخمر فإنها ستكتفي بالخبز الرديء. النشوة أهم لديها من الغذاء، — إنها الطعم الذي تبتلعه في كل مرة! ماذا يمثل بالنسبة لها الرجال المختارون بسبب مركزهم — وإن كانوا من المتخصصين المتميزين — مقارنة مع الفاتحين الكبار، هل مجرد قصور أميرية فخمة؟ على الإنسان العادي، لكي ينجح، أن يفتح أمامها أفق الفتوحات والأبهة : فربما يكسب بذلك ثقتها. الشعوب تخضع دائما وتفعل ما هو أكثر من الخضوع، شريطة أن تجد ما ينتشي به! لا نملك حتى حق توفير المتعة لها دون أكاليل الغار التي تفقدها قوتها صوابها. ولكن هذا الذوق الدهماوي الذي يعتبر النشوة أهم من الغذاء لم يظهر في أوساط الدهماء : بل لقد جلب إليها وغرس فيها لينمو هناك لاحقا بشكل كبير، رغم كونه في الأصل ذوق العقول الثاقبة الذكاء، التي نما فيها عبر آلاف السنين. الشعب هو آخر أرض بكر قد تنمو فيها نبتة الزؤان هاته بوفرة. — كيف! وهل الشعب هو من سيعهد غليه بأمور السياسة؟ ليستمد منها نشوته اليومية؟

189

السياسة الكبرى. — مهما يكن الحيز الذي تشغله مصلحة وغرور الأفراد والشعوب في السياسة الكبرى فإن القوة التي تدفعهم إلى الأمام هي حاجتهم إلى القوة، التي تتفجر من ينابيع لا تنضب، من حين لآخر، ليس فقط في نفوس الامراء والأقوياء، بل كذلك لدى الطبقات الدنيا من الشعب، وبنفس القدر تقريبا. دائما تعود الساعة التي تكون فيها الجماهير مستعدة للتضحية بحياتها، وثروتها، وضميرها، وفضيلتها لتحصل على تلك المتعة الكبرى ولتحكم، كأمة ظافرة واستبدادية بشكل ظالم، أمما أخرى (أو لتتخيل أنها تحكم على الاقل). عندها تتفجر بشدة مشاعر الإجزال في العطاء، والتضحية، والامل، والثقة، والجرأة الكبيرة، والحماس بحيث يستطيع الحاكم الطموح أو الحكيم البعيد

النظر أن يستغل أول ذريعة ليشن حربا ويحل راحة ضمير الشعب محل ظلمه هو. الفاتحون الكبار دائما ما يتحدثون لغة الفضيلة المؤثرة: كانت دائما تحيط بهم جماهير متحمسة لا تريد أن تسمع إلا الخطب الحماسية. إنه جنون الأحكام الاخلاقية! حين يشعر المرء بالقوة يظن أنه إنسان طيب ويسمي نفسه طيبا: عندها بالضبط يسميه الآخرون، الذين سيمارس عليهم قوته، شريرا! في حكاية عصور الإنسان صور هزيود إحدى المراحل مرتين متتاليتين، وهي مرحلة أبطال هوميروس، وبذلك جعل من مرحلة واحدة مرحلتين: الذين خضعوا للهيمنة الفظيعة، وللضغط الحديدي اللذين مارسهما أولئك الأبطال المغامرين من أجل القوة، والذين حدثهم عنها أسلافهم لم يحبوا ذلك العصر: ولكن سلالة تلك الأجيال من الفرسان يبجلون في ذلك العصر ماضيا غابرا يكاد يكون سعيدا. وهاتان النظرتان المختلفتان هما اللتان جعلتا الشاعر يتحدث عن ذلك العصر بالطريقة التي ذكرنا، — فربما كان حوله مستمعون من كلا الصنفين!

190

الثقافة الألمانية القديمة. — الشيء الذي جعل الألمان يصبحون ذوي أهمية بالنسبة لباقي شعوب أوربا — منذ عهد قريب، — هي ثقافة لم يعودوا يتوفرون عليها اليوم، ثقافة تخلصوا منها بحدة كما لو كانت مرضا: ولكنهم لم يستطيعوا تعويضها إلا بجنون السياسة والقومية. وقد مكنهم ذلك، أكثر مما مكنتهم ثقافتهم، من أن يصبحوا أكثر أهمية بالنسبة للشعوب الأخرى: لندعهم يتلذذون بذلك الرضا! الشيء الأكيد مع ذلك هو أن هاته الثقافة الالمانية قد خدعت الأوربيين وأنها لم تكن جديرة لا بأن يتم تقليدها ولا بالاهتمام الذي حظيت به، ولا حتى بالاقتباس منها الذي يتهافت عليه الاوربيون. لنبحث اليوم عن معلومات حول شيلر، وغيوم دو همبولت، وشليرماخر، وهيجل، وشيلينغ، لنقرأ مراسلاتهم ولندخل دائرة المتبنين لافكارهم، ما هو القاسم المشترك بينهم، وبأي شيء يفعلون فينا، مثلما نحن الآن، تارة بطريقة لا تطاق، وتارة أخرى بطريقة مؤثرة ومثيرة للشفقة؟ من جهة هناك الرغبة المحمومة في الظهور بمظهر المتأثر أخلاقيا؛ ومن جهة أخرى هناك الرغبة في تحقيق عالمي متألقة غير متينة، وكذلك النية الراسخة

في رؤية كل شيء من منظور الجمال (الطباع، الأهواء، العصور، الأخلاق)، – ولكن هذا «الجمال» كان مع الأسف يستجيب لذوق رديء وغامض يتبجح مع ذلك بأن له جذورا إغريقية. إنها مثالية وديعة، وساذجة، وذات بريق فضي، تريد أن تكون لها قبل كل شيء مواقف ونبرات تبدو وكأنها نبيلة، متكلّفة وغير ضارة، يحركها نفور ودي من الواقع «البارد» و«الجاف»، من التحليل، من الأهواء الكاملة، من كل أشكال العفة والشك الفلسفي، وخاصة من معرفة الطبيعة، لأنها معرفة لا يمكن استخدامها كرمز ديني. كان غوته يشاهد على طريقته ذلك الاضطراب في الثقافة الألمانية: وقف خرجها، مقاوما، صامتا، مثبتا وجوده كل يوم أكثر على الطريق التي اختارها. بعد ذلك بزمن يسير لاحظ شوبناور ذلك هو الآخر، – رأى أن جزءا كبيرا من العالم الحقيقي ومن شيطناته قد أصبحت مرئية من جديد، وتحدث عنها بنفس القدر من الفظاظة والحماس: لأن في تلك الشيطنة شيء من الجمال! فما الذي كان يفتن الاجانب، ما الذي جعلهم لا يتصرفون مثل غوته وشوبنهاور، أو يتحولوا بأنظارهم إلى مكان آخر؟ إنه ذلك البريق الباهت، والضوء الغامض لدرب التبانة الذي كان يشع حول تلك الثقافة: كان ذلك يجعل الأجانب يقولون: «هذا شيء بعيد عنا بعدا شديدا؛ لا نكاد نبصره، أو نسمعه، أو ندركه، لا نستطيع الاستمتاع به أو تقييمه؛ وقد يكون أولئك نجوما! هل اكتشف الألمان في هدوء ركنا من السماء واستقروا فيه؟ يجب أن نحاول الاقتراب من الألمان.» واقتربوا منهم بالفعل، أما أولئك الألمان فبدأوا محاولة مضنية للتخلص من بريق درب التبانة ذلك: كانوا يعلمون جيدا أنهم لم يكونوا في السماء، – بل على غيمة!

191

رجال أفضل. – يقال لي بأن فننا يخاطب رجال الوقت الحاضر الشرهين، الجشعين، غير المرَوَّضين، المشمئزين، المعذَّبين، ويريهم صورة الغبطة، والسمو، والرفعة، إلى جانب صورة قبحهم: وذلك ليمكنوا من النسيان والتنفس بحرية، وربما ليحثهم ذلك النسيان على الهروب والتحول. ما أتعس الفنانين الذين لهم جمهور كهذا! بأفكاره المبطنة التي يستمدها من الكاهن ومن طبيب المختلين

عقليا! لقد كان كورنيي Corneille أكثر سعادة منهم – «كورنيي العظيم»، هكذا هتفت إعجابا مدام دو سيڤينيي، بنبرة المرأة حين تجد نفسها أمام رجل كامل، – وكان جمهوره أفضل، ذلك الجمهور الذي أمتعه بصور فضيلة الفرسان، والواجب الصارم، والتضحية بسخاء، والتأديب البطولي للنفس! كم كان كل منهما يحب الحياة، ليس كشيء أوجدته «إرادة» عمياء وجاهلة نلعنها لأننا لا نستطيع تدميرها، بل كفضاء تصبح فيه العظمة والإنسانية ممكنين في نفس الوقت، فضاء لا يستطيع فيه الإكراه الشديد الذي يفرضه الشكل، ولا الخضوع لرغبة الأمير أو الكنيسة أن يخنقا لا أنفاس الكبرياء، ولا الشعور بالفروسية، ولا كياسة الفرد أو عقله، بل يعتبران جاذبية إضافية فيه ومثيرا يزيد تناقضه من قوة النبالة الفطرية، ومن قوة الإرادة والعشق الموروثين!

192

الرغبة في خصوم كاملين. – لا أحد يستطيع منافسة الفرنسيين على كونهم كانوا أفضل شعب مسيحي على وجه الأرض: كانت الجماهير الفرنسية أشد ورعا ممن سواها، وأشكال المثل الأعلى المسيحي العصية على التطبيق تجسدت هناك في رجال ولم تظل مجرد تصور، أو نية، أو صيغة أولية ناقصة. پاسكال هو أكبر المسيحيين كلهم، يجمع بين الورع، والعقل والاستقامة، – لنفكر في كل ما تطلب الأمر الجمع بينه هنا! وفينلون Fénelon، النموذج الجذاب المعبر عن الثقافة الكنسية بمختلف أشكالها: توازن رائع قد يغرينا، كمؤرخين، أن نبرهن على استحالته، بينما لم يكن في الواقع سوى كمال من الصعب والمستبعد جدا حدوثه. ومدام غويون Mme Guyon، وأمثالها أتباع مذهب الطمأنينة الفرنسيين: كل ما حاول الحواري بولس أن يخمنه، بفصاحته وحماسته، عن سمو المسيحي، ومحبته، وصمته وانتشائه، عن طبيعته الشبه إلهية إجمالا، أصبح حقيقة هنا، متجردا من ذلك الإزعاج اليهودي لله الذي نجده عند القديس بولس، ورافضا له بفضل بساطة في الكلمة والحركة، بساطة أنثوية، دقيقة ورقيقة كما عرفتها فرنسا القديمة. ومؤسس أخوية اللترابيين Trappistes، وهو آخر من أخذ المثل الأعلى المسيحي مأخذ الجد، ليس لأنه كان استثناء بين الفرنسيين، بل كفرنسي حقيقي:

لأن هاته الأخوية القاتمة التي ابتكرها لم تتوطن وتزدهر إلا لدى الفرنسيين، لقد لحقت بهم إلى الألزاس والجزائر. ولا ننسى الهوغنوتيين Huguenots : لم يحدث بعدهم أن تم الجمع بين العقل المحارب وحب العمل، بين الأخلاق الرفيعة والصرامة المسيحية. وپور روايال، حيث شهدنا آخر ازدهار عرفه العلم المسيحي : والعظماء في فرنسا يتقنون الازدهار أكثر من أمثالهم في البلدان الأخرى. رغم عدم كون العظيم الفرنسي سطحيا فإنه يحتفظ بظاهر سطحي، غشاء طبيعي يغلف جوهره وعمقه، — أما عظمة الألماني فيتم الاحتفاظ بها ملفوفة بشكل غريب داخل قارورة، كإكسير يسعى لحماية نفسه، بذلك الغلاف الصلب والفريد، من ضياء النار ومن الأيدي الطائشة. — ولنحزر بعد هذا لماذا أنجب هذا الشعب، الذي كان من بين أبنائه أشد رجال المسيحية كمالا، رجالا على النقيض من هؤلاء، رجال الفكر الحر المناقض للمسيحية! لقد كان المفكر الحر الفرنسي يحارب، في قرارة نفسه، عظماء حقيقيين، وليس فقط عقائد ومسوخا رائعين، كما يفعل المفكرون الأحرار في بقية الشعوب.

193

العقل والأخلاق. — الألماني، الذي يملك سر أن يكون مملا بالعقل، والمعرفة والإحساس، والذي اعتاد أن يعتبر الملل أخلاقا، — هذا الألماني يشعر في العقل الفرنسي بالخوف من أن يفقأ هذا العقل عين الأخلاق — وهذا الخوف يشبه المتعة التي يجدها العصفور الصغير أمام الأفعى المجلجلة والخوف الذي يشعر به أمامها. لا أحد من بين كل الألمان المشهورين كان له من العقل قدر ما كان لدى هيجل — ولكن الخوف الألماني الشديد الذي ينتابه أوجدت لديه أسلوبا معيبا. ما يتميز به هذا الأسلوب هو كونه يغلف نواة، ويستمر في تغليفها إلى أن تمزق ذلك الغلاف بالكاد مجازفة بإلقاء نظرة فضولية خجولة — «نظرة فتاة من وراء خمارها»، كما قال أسخيلوس، عدو للنساء القديم — : تلك النواة نتوء ووحي، غالبا ما يكون وقحا، يطل على موضوع فكري محض، تركيبة دقيقة وجريئة من الكلمات كما هو المطلوب في مجتمع من المفكرين، كمقبلات العلم، — ولكن

تقديمها وسط هذا الركام جعل منها علما غير مفهوم وملا أخلاقيا قاتلا ! وجد الألمان في هذا شكلا من أشكال العقل المسموح لهم بها فاستمتعوا بها بابتهاج واضح جدا بحيث ذهل لذلك شوبنهاور صاحب الإدراك القوي، — وقد ظل طوال حياته يندد بمشهد الألمان ذلك دون أن يستطيع مع ذلك تفسيره.

194

غرور أرباب الأخلاق. — ما يفسر النجاح الذي حققه أرباب الأخلاق، وهو نجاح ضئيل إجمالا، هو كونهم أرادوا الحصول على الكثير من الأمور في وقت واحد، أي أنهم كانوا طموحين : كانوا يحبون إعطاء التعاليم لكل الناس. ولكن ذلك يعتبر تيها في الغموض وتوجيها للخطاب إلى الحيوانات لتحويلها على أناس : لذا يجب ألا نندهش إذا وجدت الحيوانات ذلك مملا! عليهم إذن أن يبحثوا عن دوائر محدودة، وأن يبحثوا لدى أفرادها عن أخلاق معينة ويشجعوها على التحلي بها، كتوجيه الخطاب للذئاب قصد تحويلها إلى كلاب. ومع ذلك يبقى النجاح حكرا على الذي لا يريد أن يربي كل الناس، ولا دوائر محدودة، بل فقط فردا واحدا لا ينظر يمينا أو شمالا. الشيء الذي به يتفوق القرن الماضي على قرننا هو كونه بتوفر على كثير من الرجال الذين تمت تربيتهم بشكل فردي، وعلى مربين أكفاء اعتبروا ذلك أعظم مهمة يقومون بها في حياتهم، — وكانت لهم، إلى جانب المهمة، كرامة يشعرون بها أمام أنفسهم وأمام كل «رفقة طيبة».

195

ما نسميه التربية الكلاسيكية. — إذا اكتشفنا أن حياتنا منذورة للمعرفة؛ بأننا نبذرها، لا! بأننا بذرناها؛ ورددنا هاته الأبيات، بتأثر:

أيها القدر، أقتفي خطاك! حتى لو أبيت ذلك،

لفعلته على مضض، وأنا أغالب ادمعي!

– ولو اكتشفنا الآن، ونحن عائدون على طريق الحياة، بأن حياتنا أمر لا مجال لإصلاحه : بأنه قد تم تبذير شبابنا حين لم يستغل مربونا سنواته المفعمة بالحماس والتعطش للمعرفة ليكسبونا معرفة الأشياء، بل استنزفوه في تلقينه «التربية الكلاسيكية»! تم تبذير شبابنا حين تم تعليمنا، برعونة وهمجية، معرفة ناقصة بشأن الإغريق والرومان، وكذا لغاتهم، ضدا على المبدأ الراقي لكل ثقافة، والذي يقضي بألا يقدم للمرء إلا ما هو متعطش إليه! وذلك حين فرضوا علينا الرياضيات بالقوة، عوض أن يقودونا أولا إلى اليأس الناتج عن الجهل ويختزلوا حياتنا اليومية، وانشغالاتنا، وكل ما يدور طيلة اليوم في البيت، في الورشة، في الشماء وفي الطبيعة، في آلاف القضايا، قضايا تعذبنا، وتهيننا، وتثير سخطنا، – ليظهروا لرغبتنا آنذاك بأننا نحتاج أولا وقبل كل شيء إلى معرفة بالرياضيات والميكانيكا، وليلقنونا بعد ذلك الحماس العلمي الأول الذي يشعرنا به منطق هاته المعرفة المطلق! إنهم لم يعلمونا احترام تلك العلوم؛ ولم يجعلوا أرواحنا ترتعد من شدة التأثر، ولو مرة واحدة، أمام قتال العظماء، وهزائمهم، وعودتهم إلى المعركة، أمام سيرة الشهداء التي هي تاريخ العلم الخالص! على العكس، كنا نزدري العلوم الحقة، ونفضل عليها الدراسات «التاريخية»، و«التكوين الهادف إلى تطوير العقل» و« الدراسات الكلاسيكية»! وقد انخدعنا بسهولة بالغة! التكوين الهادف إلى تطوير العقل! ألم يكن بوسعنا الإشارة بالبنان إلى أفضل الأساتذة في ثانويتنا ونطرح السؤال التالي ونحن نضحك : «أين يكمن هنا التكوين الهادف إلى تطوير العقل؟» والدراسات الكلاسيكية! هل تعلمنا بالفعل شيئا عما كان الإغريق يعلمونه شبابهم؟ هل تعلمنا أن نتحدث مثلهم، ونكتب مثلهم؟ هل تدربنا باستمرار على فن المحاورة، وعلى الجدل؟ هل تعلمنا أن نتمشى مشية جميلة في إباء، ونتقن المصارعة، واللعب، والتضارب بالأيدي مثلهم؟ هل تعلمنا شيئا من الزهد العملي لدى الفلاسفة الإغريق؟ هل مارسنا ولو فضيلة واحدة من فضائل القدماء، وبالطريقة التي كانوا يمارسونها بها؟ أليس تعليمنا خاليا من أي تأمل للأخلاق، ومما يشكل النقد الوحيد الموجه لها، أي المحاولات الصارمة والجريئة بأن نعيش وفق هاته الأخلاق أو تلك؟ هل أثاروا لدينا إحساسا يقدره الأقدمون أكثر من المحدثين؟ هل أرونا تقسيم النهار والحياة والغايات التي

كان أحد أولي الألباب القدامى يعتبرها أسمى من الحياة؟ هل تعلمنا اللغات القديمة كما نتعلم اللغات الحية اليوم، — أي لنتكلمها بطلاقة؟ إننا لم نتعلم خلال سنوات الدراسة الشاقة أية مهارة حقيقية، ولا أية ملَكة حقيقية! كل ما تعلمناه هو معلومات عما كان الناس يعرفون ويستطيعون فعله فيما مضى! ويا لها من معلومات! كل ما يزداد وضوحا لدي سنة بعد سنة هو أن العالم الإغريقي والقديم، رغم البساطة والشهرة اللتين يظهر بهما، يستعصي على الفهم وبعيد المنال، وبأن السهولة التي نتحدث بها عن القدماء هي إما استخفاف، أو غرور الطيش الوراثي. تشابه الكلمات والأفكار يخدعنا: ووراءهما يختبئ دائما شعور سيبدو غريبا وغامضا بالنسبة للشعور الحديث. هاته مجالات كان لبعض الأطفال الحق في أن يسرحوا ويمرحوا فيها! يكفي أننا فعلنا هذا حين كنا أطفالا، وقد كاد يورثنا شعورا بالنفور من عالم الأقدمين، نفور مرده إلى ألفة تبدو كبيرة! لأن غطرسة مربينا الكلاسيكيين، الذين يزعمون أنهم يفهمون القدماء جيدا، شديدة بحيث تنتقل إلى تلاميذهم مرفوقة بفكرة كون ذلك الفهم قد يكفي بعض فئران المكتبة، الجريئين الأغبياء، رغم كونه لن يجعلهم سعداء. «ليحتفظوا بكنزهم، فهو جدير بهم!» — على هاته الفكرة المبطنة انتهت تربتنا الكلاسيكية. — كل هذا شيء لا يمكن إصلاحه — فيما يخصنا نحن على الأقل! ولكن يجب ألا نفكر في أنفسنا وحسب!

196

المسألة الشخصية في الحقيقة. — «ماذا أفعل في الحقيقة؟ وماذا أريد أن أحقق من وراء ذلك؟» — ذلك هو سؤال الحقيقة الذي لا ندَرسه حاليا في ثقافتنا، وبالتالي لا يتم طرحه أبدا، لأننا لن نجد الوقت لطرحه. أما قول الحماقات للأطفال وعدم التحدث إليهم عن الحقيقة، ومجاملة الفتيات اللواتي سيصبحن أمهات فيما بعد وعدم التحدث إليهن عن الحقيقة، والتحدث للشباب عن مستقبلهم وملذاتهم وليس عن الحقيقة، — كل هذا نجد الوقت لفعله، ونجد فيه متعة! — ماذا تمثل سبعون سنة في عمر الإنسان! — سرعان ما تنقضي؛ لا يضير الموجة ألا تعلم إلى أين يأخذها البحر! بل قد يكون من الحكمة ألا تعرف. — «النسلم

بذلك : ولكن ليس من الكبرياء في شيء ألا تستفسر عن ذلك؛ حضارتنا لا تبعث الكبرياء في النفوس.» — نِعِمّا هو! — «هل حقا نِعِمّا هو؟»

197

معاداة الألمان للأنوار. — لنستعرض مساهمات الألمان الفكرية في الثقافة العامة، خلال النصف الأول من هذا القرن، وفلاسفتهم في المقام الأول : لقد عادوا إلى بدايات البحث التجريدي، لأنهم يكتفون بالتصورات بدل التفسير، مثل مفكري العصور الخالمة — لقد أعادوا إل الحياة نوعا من الفلسفة السابقة على ظهور العلم. وفي المقام الثاني المؤرخين والرومانسيين الألمان : لقد كان القصد من وراء مجهوداتهم العامة هو إعادة الاعتبار لمشاعر قديمة وبدائية، خاصة الديانة المسيحية، والروح الشعبية، والأساطير الشعبية، واللغة الشعبية، والعصور الوسطى، والزهد الشرقي، والهندوسية. وفي المقام الثالث العلماء الألمان : قاوموا فكر نيوتن وڤولتير، وحاولوا النهوض مرة أخرى، مثل غوته وشوبنهاور، بفكرة ألوهية الطبيعة أو شيطانيتها، وبالدلالة الأخلاقية والرمزية لهاته الفكرة. لقد مال الألمان عموما نحو معارضة الأنوار وثورة المجتمع التي اعتبرت نتيجة لها، وكان ذلك سوء فهم فاحش : لقد سعت محبة الأمور القائمة لأن تصبح محبة لكل الأمور التي تقررت فيما مضى، وذلك لكي ينتفخ القلب والعقل من جديد ولا يتركا المجال للرؤى المستقبلية والمجدِّدة. لقد حلت عبادة الإحساس محل عبادة العقل، وساعد الموسيقيون الألمان، وهم فنانو اللامرئي، والحماسة، ووالأسطورة، والرغبة المطلقة، على إقامة المعبد الجديد، ونجحوا في ذلك أكثر من فناني الكلمة والفكر. حتى وإن أخذنا بعين الاعتبار أنه قد تم اكتشاف وقول الكثير من الأشياء الحسنة، وأن بعض الأمور قد حظيت بإنصاف أكثر من الذي حظيت به في الماضي، فما نستخلصه مع ذلك هو أن الكل يشكل خطرا عموميا جسيما، خطر النزول بالمعرفة عموما، تحت ذريعة المعرفة الشاملة والقطعية بالماضي، إلى ما دون مستوى الإحساس، و«تمهيد السبيل من جديد أمام الإيمان، برسم حدود للمعرفة»، كما قال كانط الذي جعل من ذلك مهمته. لنتنفس ملء رئتينا مرة أخرى : فذلك الخطر لم يعد قائما! والشيء الغريب هو أن

الأرواح التي كان الألمان يستدعونها بفصاحة قد تحولت، مع مرور الزمن، إلى أشد الخصوم خطورة على مقاصدهم، — حتى وإن أخذنا بعين الاعتبار أنه قد تم اكتشاف وقول الكثير من الأشياء الحسنة، وأن بعض الأمور قد حظيت بإنصاف أكثر من الذي حظيت به في الماضي، فما نستخلصه مع ذلك هو أن الكل يشكل خطرا عموميا جسيما، خطر النزول بالمعرفة عموما، تحت ذريعة المعرفة الشاملة والقطعية بالماضي، إلى ما دون مستوى الإحساس، و«تمهيد السبيل من جديد أمام الإيمان، برسم حدود للمعرفة»، كما قال كانط الذي جعل من ذلك مهمته. لنتنفس ملء رئتينا مرة أخرى: فذلك الخطر لم يعد قائما! والشيء الغريب هو أن الأرواح التي كان الألمان يستدعونها بفصاحة قد تحولت، مع مرور الزمن، إلى أشد الخصوم خطورة على مقاصدهم، — بعد أن كان التاريخ، وإدراك الأصل والتطور، والتجاوب العاطفي مع الماضي، والشغف مجددا بالإحساس والمعرفة، خلال فترة معينة في خدمة العقل المظلم، المتحمس والنكوصي، أصبحت لهم طبيعة أخرى، وأضحوا يحلقون الآن بأجنحة أكبر أمام أنظار من استنجدوا بهم سابقا، وأصبحوا يشكلون نبوغ «الأنوار» الجديد والقوي، الأنوار التي استخدموا ضدها من قبل. هاته الأنوار يجب أن نعمل نحن على تقدمها، — دون أن نهتم ب«المعارضة القوية» و«رد الفعل القوي» اللذين واجهتهما، وبكون المعارضة ورد الفعل هذان لا يزالان قائمين: فهاته لعبة أمواج فقط إذا ما قارناها بالموج الكبير الذي يحملنا، الذي نريده أن يحملنا!

198

تحديد مرتبة الشعب. — ما يصنع رجال الثقافة الذين يحددون للشعب مرتبته هو أن يكون للمرء تجارب شخصية كبيرة يبني عليها نظرة العقل ويسمو بتلك النظرة عليها. في فرنسا وإيطاليا كان ذلك من مهام النبلاء، أما في ألمانيا، التي كان النبلاء فيها حتى الآن يعتبرون جزءا من ناقصي العقل (ربما تغير ذلك)، فقد ذلك من شأن الكهنة، والأساتذة وذرياتهم.

نحن أكثر نبلا. — الوفاء، والسخاء، والحياء الجميل : هاته الأشياء الثلاثة مجموعة في إحساس واحد هو ما نسميه نبلا، وتميزا، ونتفوق به على الإغريق. ولا نريد التخلي عنه مهما كلفنا ذلك، متذرعين بكون ما كان موضوع هاته الفضائل قديما قد نقصت قيمته في نظرنا (بحق)، ولكننا نريد أن نستبدل هذا الإرث الثمين بأشياء جديدة، ولكن بحذر. لكي نفهم أن مشاعر الإغريق الأكثر نبلا قد تعتبر رديئة ولائقة بالكاد وسط نبالتنا التي لا زالت تتميز بالفروسية والفيودالية، يجب أن نتذكر كلمات المواساة التي ينطق بها عوليس في المواقف المشينة : «تحمل هذا، أيها القلب! لقد تحملت أسوأ منه! ككلب!» يمكن أن نذكر بالموازاة مع ذلك، كمثال على تطبيق النموذج الاسطوري، قصة ذلك الضابط الأثيني الذي تحرر من خجله أمام القيادة العليا للجيش، حين هدده ضابط آخر بعصا يحملها في يده، وقال : «اضربني، ولكن اسمعني!» (وهو ما فعله طيميسطوكل، الفطن الحاذق في العصر الكلاسيكي مثل عوليس في عصره، الذي خاطب «قلبه العزيز»، في تلك اللحظة المشينة، بتلك الكلمات التي تواسيه في لحظة الضيق.) لم يكن الإغريق يستهينون بالحياة والموت بسبب إهانة، مثلما نفعل نحن تحت سيطرة روح المغامرة، وهي روح فروسية ووراثية، ونوع من الرغبة في التضحية؛ كما لم يكونوا يبحثون عن فرص، كالمبارزة مثلا، للمجازفة الشريفة بالحياة والموت؛ ولا يسعون للاحتفاظ باسم طاهر لم يدنسه شيء أكثر من احتفاظهم بالسمعة السيئة حين تكون متوافقة مع المجد والشعور بالقوة؛ ولا الوفاء للأحكام المسبقة أو لعقيدة طائفة ما إذا كانت ستحول دون وصول طاغية للحكم. هذا هو السر غير النبيل للغاية الذي نجده لدى كل أرستقراطي إغريقي صالح : تجعله غيرته الشديدة يعامل أفراد طائفته على قدم المساواة، ولكنه متأهب على الدوام للانقضاض، كالنمر، على فريسته — ليصبح مستبدا : حينها لن يهمه الكذب، والجريمة، والخيانة، والفقدان الطوعي للمدينة التي ولد فيها! كان العدل أمرا صعب التحقيق في نظر هذا النوع من الرجال، نوع يكاد يكون شيئا لا يصدق؛ كان كلمة «العادل» تعني للإغريق ما تعنيه كلمة «القديس» للمسيحيين. ولما جازف سقراط بالقول : «الرجال الفاضل هو الرجل السعيد» لم يصدق

الإغريق ما سمعوا، حسبوا أنفسهم سمعوا كلاما طائشا. لأن صورة الرجل الأكثر سعادة كانت تستحضر لدى كل مواطن من أصل نبيل عدم مراعاة الآخرين بتاتا، وشر الطاغية الذي يضحي بكل شيء وبكل الناس في سبيل غروره ولذته الشخصية. لم يكن من الممكن غرس تبجيل الدولة عميقا في نفوس الذين كانوا يسعون بشراسة داخل مخيلتهم للحصول على تلك السعادة، — ولكنني أريد أن أقول بأن هذا التقديس لمفهوم الدولة، الذي استخدم فيما مضى لكبح جماح الرغبة في السلطة، لم يعد ضروريا بالنسبة للرجال الذين لا يرغبون في امتلاك السلطة رغبة عمياء كما كان يفعل النبلاء الإغريق.

200

تحمل الفقر. — الميزة الكبرى للأصل النبيل هو كونه يساعد صاحبه على تحمل الفقر.

201

مستقبل النبالة. — يعبر موقف الأرستقراطية عن كون الإحساس بالقوة يسحر كل أفرادها باستمرار. فالنبيل، سواء كان رجلا أو امرأة، لا يتصرف بعفوية أو حرية أمام الناس، كأن يسند ظهره على المقعد داخل عربة القطار، ولا يبدو أنه يشعر بالتعب من الوقوف لساعات وسط الساحة، لا يشيد منزله كما يريد، بل لكي يعطي الانطباع بالشساعة والضخامة، وكأنه سيكون مسكنا لكائنات أكبر (تعيش طويلا)، يرد على خطاب مهيج بكل رزانة، بصفاء ذهن، وليس كما يرد من شعر بالحنق، والإنهاك، والخزي، وضيق النفس، كما تفعل العامة. وكما يعرف كيف يحافظ على مظهر من له قوة بدنية أكبر على الدوام، فإنه يريد إعطاء الانطباع، من خلال الطمأنينة الدائمة والكثير من الرقة، حتى في أصعب المواقف، بأن روحه وعقله قادران على مواجهة الأخطار والمفاجآت. قد تشبه الثقافة النبيلة، فيما يتعلق بالأهواء، إما فارسا يجد متعة في قيادة حصان جامح وأبي على الطريقة

الإسبانية – لنستحضر فترة لويس الرابع عشر – وإما فارسا يشعر بأن الحصان الذي يركبه ينطلق به كقوة من قوى الطبيعة، وبأنهما كلاهما على وشك أن يُجَنا، ولكنهما يستعيدان زمام الأمر ويستمتعان بالسرعة التي يسيران بها : في كلتا الحالتين تظهر الثقافة النبيلة بمظهر القوة، وإذا كانت في عاداتها غالبا ما لا تتطلب إلا مظهر الإحساس بالقوة فإن الإحساس الحقيقي بالقوة يكبر مع ذلك وباستمرار من خلال الانطباع الذي تخلفه هاته اللعبة على غير النبلاء ومن خلال مشهد ذلك الانطباع. الآن تبدأ سعادة الثقافة النبيلة، التي تقوم على الإحساس بالتفوق، في ارتقاء درجة أعلى، لأنه أصبح مسموحا، بفضل كل العقول الحرة، لكل من ولد نبيلا وتربى في أحضان النبالة بولوج عالم المعرفة، دون أن ينزل من عليائه، ليبحث فيها عن تكريس فكري، وليتعلم فيها أدبا أرفع؛ أصبح مسموحا بالطموح إلى مثل الحكمة الظافرة الأعلى الذي لم تستطع أية حقبة أن تقيمه أمامها، بضمير مرتاح كالحقبة التي ستبدأ. وبماذا ستنشغل النبالة في نهاية المطاف، إذا كان يتضح يوما بعد يوم أنه من غير اللائق الانشغال بالسياسة؟

202

العناية بالصحة. – رغم أن بداية تفكيرنا في التكوين الفسلجي للمجرمين لم يمر عليه سوى وقت جد وجيز فإننا نجد أنفسنا أمام يقين حاسم بأنه ليس هناك فرق جوهري بين المجرمين والمختلين عقليا : شريطة أن نعتبر طريقة التفكير الشائعة الآن في الأخلاق هي طريقة التفكير الخاصة بالصحة الفكرية. هذا هو الاعتقاد المقبول أكثر من سواه اليوم. لهذا يجب ألا نخاف ونعامل المجرم بناء على ذلك كمختل عقليا : يجب على الخصوص ألا نعامله برأفة متعالية، بل بحكمة الطبيب وحسن نيته. إنه يحتاج لتغيير الجو والمجتمع، لتغيير المكان مؤقتا، وربما يكون محتاجا للوحدة ولانشغالات جديدة، – جيد! ربما يرى هو نفسه أنه من المفيد له أن يعيش تحت المراقبة لبعض الوقت، ليجد من يحميه من نفسه ومن غريزته المزعجة المستبدة، – جيد! يجب أن نوفر له بوضوح إمكانية العلاج ووسائله (أن نستأصل تلك الغريزة، ونحولها، ونسمو بها)، وإذا تعذر العلاج يجب أن نطلعه على ذلك؛ يجب أن نمنح المجرم الذي يستحيل علاجه والذي يرعب

نفسه فرصة الانتحار. وبما أن هذا يظل هو الحل الأقصى الذي يمكن اللجوء إليه للتخفيف عنه فيجب أن نفعل كل ما في وسعنا لنمنحه الشجاعة والحرية العقلية؛ يجب أن نخلص روحه من الندم، كما لو كان الأمر يتعلق بالنظافة، ونريه كيف يمكنه أن يعوض إساءته لشخص ما بإحسانه لآخر، إحسان قد يفوق الإساءة. يجب أن نقوم بذلك بكثير من العناية، ودون أن نكشف له عن أسمائنا، أو نغيرها باستمرار، ونغير مكان الإقامة كذلك، حتى لا تتعرض سمعة المجرم وحياته المستقبلية لأخطار كثيرة. حتى اليوم لا يزال الذي لحق به ضرر ما، بغض النظر عن طريقة إصلاح ذلك الضرر، يريد أن ينتقم ويتوجه إلى المحكمة ليتم له ذلك — لهذا لا يزال قانوننا الجنائي قائما، مؤقتا، بميزانه، ميزان البقال، وإرادته تعويض الذنب بالعقاب ؟ ولكن أليست هناك وسيلة لتجاوز كل هذا؟ كم سيكون الشعور العام بالحياة لطيفا لو تمكنا من التخلص من غريزة الانتقام، رغم الإيمان بالذنب، ولو اعتبرنا أنه من حكمة السعداء اللطيفة أن يبارك المرء عن أعدائه، كما تفعل المسيحية، ويحسان لمن أساء إليه! لنخلص العالم من فكرة الخطيئة — ولنفعل نفس الشيء مع فكرة العقاب! ليذهب هؤلاء الشياطين المنفيون ليعيشوا في أي مكان بعيدا عن الناس، هذا إذا كانوا حريصين على الحياة ولا يريدون أن يموتوا بسبب تقززهم ! — ولنقل في انتظار حدوث ذلك بأن الضرر الذي يلحقه المجرم بالمجتمع شبيه بالذي يلحقه به المرضى؛ المرضى ينشرون الهموم والكآبة، لا ينتجون أي شيء ويلتهمون مداخيل غيرهم، يحتاجون للحراس، والأطباء، ولمن يتحدث معهم، ويعيشون على وقت الأصحاء وقوّتهم. ومع ذلك نعتبر الذي يريد الانتقام من المريض اليوم بسبب كل هذا لاإنسانيا. وقد كان الناس فيما يتصرفون على هذا النحو؛ في الحضارات البدائية واليوم كذلك، لدى بعض الشعوب المتوحشة، يُنظر إلى المريض على أنه مجرم، وأنه يشكل خطرا على الجماعة ويسكنه كائن شيطاني تجسد فيه إثر ذنب اقترفه؛ — عندها يقولون : كل مريض مذنب! ونحن، ألم نبلغ من النضج ما يؤهلنا لقول العكس؟ ألا نملك الحق في أن نقول : كل «مذنب» مريض؟ — لا، لم يحن الأوان بعد. ما ينقصنا في المقام الأول هم الأطباء، الأطباء الذين يجب أن يتحول لديهم ما سميناه حتى الآن الأخلاق العملية إلى فصل من فن العلاج، من علم العلاج؛ لا زال ينقصنا

الاهتمام الشديد الذي قد ينتج عن هاته الأشياء، اهتمام قد يبدو لنا ذات يوم شبيها بحركة "العاصفة والانطلاق" (Sturm und Drang) التي أثارها الدين فيما مضى؛ لا يتم تسيير الكنائس الآن من طرف الذين يعالجون المرضى؛ ولا تدخل دراسة الجسم والاعتناء بالصحة ضمن مناهج التعليم الإجباري في كل المدارس التعليم الابتدائي أو العالي؛ لم تتشكل بعد جمعيات صامتة من الذين قرروا عدم اللجوء إلى المحاكم ومعاقبة الذين أساؤوا إليهم والانتقام منهم؛ لم يجرؤ أي مفكر حتى الآن على قياس صحة مجتمع ما والأفراد المكونين له وفق عدد الطفيليين الذين يستطيع المجتمع تحملهم؛ ما وُجد حتى الآن رجل دولة استخدم محراثه مصداقا لروح هاته الخطب القوية والرقيقة : إذا شئت أن تحرث الأرض فاحرثها بالمحراث : لأنك بذلك ستدخل السرور على الطائر وعلى الذئب اللذين يتبعان أثلام المحراث — ستسعد كل الكائنات.

203

ضد الحمية السيئة. — أف من الوجبات التي يعدها الناس الآن، في المطاعم كما في أماكن إقامة الطبقات الميسورة! عند اجتماع العلماء المرموقين، تتم مراعاة نفس العادات في إعداد مائدتهم، كما تعد مائدة الصيارفة : وفق مبدأ الوفرة والتنوع، — وهو ما يعني أن الطعام يعد بغرض التأثير وليس بحسب الفائدة التي يعود بها على الآكل، مع ضرورة تناول المشروبات المنبهة لتساعد الآكل على تنشيط المعدة والدماغ. أف من التفسخ والحساسية المفرطة اللتين ستنتجان عن ذلك الطعام! أف من الأحلام التي سيراها آكلو هذا الطعام في منامهم! أف من الفنون والكتب التي ستكون تحلية بعد هذا الطعام! وأيا تكن تصرفاتهم فإن ما يحكمها هو البهار والتناقض، أو الضجر من العالم! (الطبقات الميسورة في أنجلترا تحتاج للمسيحية لتتمكن من تحمل عسر الهضم والصداع.) في النهاية نقول، لنعبر ليس عما في ذلك من نفور فقط، بل ومتعة كذلك، بأن هؤلاء لا يستمتعون بمباهج الحياة؛ يركز قرننا في أنشطته على الأطراف أكثر مما يركز على البطن. فماذا تعني هاته الوجبات؟ — إنها تمثل! ماذا، إله؟ المرتبة الاجتماعية؟ — لا، إنها تمثل

المال: لم تعد هناك مراتب اجتماعية! لقد أصبحنا عبارة عن «أفراد»! أصبح المال هو السلطة، والمجد، والنفوذ؛ المال يحدد طريقة نظر الناس لصاحبه، بحسب القدر الذي يملكه منه! لا أحد يريد أن يخبئه، ولا أحد يريد أن يضعه على المائدة؛ لذا يجب أن يكون له ممثل نضعه على المائدة: انظروا إلى الطعام الذي على موائدنا!

204

دانايي والاله الذهبي. — ما مصدر هذا الجزع المفرط الذي يجعل من الإنسان مجرما، في أوضاع تبين ميولا متعارضة؟ ما الذي يدفع هذا للغش في الميزان، وذاك لحرق منزله بعد قيامه بتأمينه بأكثر من قيمته، وثالث للاستمرار في تزييف العملة، وثلاثة أرباع الطبقة الراقية في المجتمع لممارسة الغش المسموح به ويشحنون ضميرهم بعمليات البورصة والمضاربة؟ ليس الفقر الحقيقي، فوضعهم المعيشي مستقر، بل ربما لا يحملون هم الأكل والشرب، — ما يدفعهم لذلك هو جزعهم الشديد لرؤية المال يتراكم ببطء، وفرحهم غاية الفرح بالمال الذي راكموه وحبهم له حبا جما. في ذلك الجزع وذلك الحب تظهر الرغبة المتعصبة في السلطة التي فجرت لدى أصحابها فيما مضى الاعتقاد بامتلاكهم الحقيقة، التعصب الذي كانت له في الماضي أسماء جميلة تجعل صاحبه يجازف بأن يكون لاإنسانيا دون أن يشعر بتبكيت الضمير (بحرق اليهود، وأصحاب البدع، والكتب الجيدة، وإبادة حضارات راقية، كحضارة الپيرو والمكسيك). لقد تغيرت الوسائل التي تستخدمها الرغبة في امتلاك السلطة، ولكن بركان تلك الرغبة لا يزال يغلي، والجزع والحب المفرط يبحثان عن ضحايا: والشيء الذي كان الناس يقومون به فيما مضى «في سبيل الله» أصبحوا يقومون به اليوم في سبيل المال، أي في سبيل ما يمنح الناس اليوم الإحساس الكبير بالسلطة وراحة الضمير.

205

عن شعب إسرائيل. — من بين المشاهد التي يدعونا إليها القرن المقبل مشهد التسوية النهائية لمصير اليهود الاوربيين. من الواضح الآن أنهم قد ألقوا نردهم

واتخذوا قرارهم الخطير : لم يعد أمامهم إلا أن يصبحوا أسياد أوربا أو يفقدوا أوربا، مثلما فقدوا مصر من قبل، مصر التي وضعوا فيها أمام مثل هذا الاختيار. لقد تمدرسوا في أوربا طيلة ثمانية عشر قرنا، وهي فرصة لم تتح لاي شعب غيرهم، ولكن الذي استفاد من تجارب تلك الأزمنة الصعبة هم الافراد وليس الجماعة. ونتيجة ذلك هي روعة المصادر التي تنهل منها الروح والعقل لدى يهود اليوم؛ هم وحدهم، من بين سكان أوربا كلهم، من لا يلجأون إلا نادرا، في حالة الضيق، إلى شرب الخمر أو الانتحار للخروج من ورطة كبيرة، — وهو ما يستطيعه أناس ذوو قدرات أقل منهم. يجد اليهودي في تاريخ آبائه وأجداده مَعينا من الأمثلة عن تفكيرهم الهادئ وثباتهم عند المحن، ودهائهم في استغلال المصائب والصدف بواسطة الحيل؛ وشجاعتهم المغلفة بغطاء خضوع مثير للشفقة، وبطولتهم تفوق فضائل كل القديسين. أراد الناس جعلهم جديرين بالاحتقار باحتقارهم على مدى ألفي سنة، بحرمانهم من المجد والشرف، ومن كل شيء شريف، ودفعهم مقابل ذلك لامتهان كل الأعمال لقذرة، ولكن ذلك لم يجعلهم أكثر نقاوة. ربما يكونون حقراء؟ غير أنهم لم يكفوا يوما عن الاعتقاد بأنهم مدعوون للقيام بأعظم الأشياء، ولم تكف فضائل كل الذين يعانون تزينهم. إنهم يتميزون عن كل الاوربيين بطريقة إجلالهم لآبائهم وأولادهم، وبما يحكم زواجهم وعاداتهم الزوجية. كما أنهم يعرفون كيف يجعلون نلك المهن التي تترك لهم ليمارسوها (أو يتركون لها) تمنحهم إحساسا بالقوة وبرغبة أبدية في الانتقام؛ تشريفا لإنهاكهم يجب أن نقول بأنه لولا تعذيب محتقريهم لهم، تعذيب يكون مقبولا ومفيدا عند الاقتضاء، لما تمكنوا من الحفاظ على احترامهم لأنفسهم هذا الأمد الطويل كله. لأن احترامنا لأنفسنا يرتبط بقدرتنا على رد الخير بالخير والشر بالشر. هذا هو ما حال دون ذهاب اليهود بعيدا في الانتقام : لان يمتلكون حرية العقل، وحرية الروح، التي يولدها لدى الناس تغييرهم المستمر للمكان، والجو، والعلاقة المباشرة مع عادات الجيران والمضطهدين؛ تجربتهم في معاشرة الناس هي الأكبر على الإطلاق، وحتى حين يغضبون فإنهم يحافظون على تبصرهم الذي اكتسبوه من تلك التجربة. إنهم واثقون للغاية من مرونتهم الفكرية ومهارتهم بحيث لا يضطرون، حتى في أصعب الظروف، إلى ممارسة أعمال تتطلب القوة البدنية لكسب قوتهم، كعمال أفظاظ، أو حمالين، أو عبيد يعملون في الزراعة. نرى من خلال تصرفاتهم أنه

لم تتكون لديهم مشاعر الفروسية والنبالة أبدا، ولم يلبسوا دروعا جميلة أبدا: يتناوب لديهم إفشاء السر مع مجاملة مفرطة غالبا ما تكون لطيفة، وتكاد تكون شاقة. وبعد أن أصبحوا يصاهرون أفضل نبلاء أوربا عاما بعد عام، فسيتشكل لديهم عما قريب إرث هام من العادات الحسنة الخاصة بالعقل والجسد: بحيث أنهم سيصبح لهم بعد مئة عام مظهر النبلاء ولن يشعروا بالخجل، باعتبارهم أسيادا، أولئك الذين سيكونون تحت إمرتهم. وهذا هو ما يهمنا! لهذا يعتبر حل قضيتهم الآن سابقا لأوانه! هم أول من يعرف أن الأمر لا يتعلق بغزو أوربا أو ممارسة عنف ما: ولكنهم يعرفون كذلك أن أوربا قد تقع يوما، كثمرة ناضجة، في يدهم التي يكفيها أن تمتد للأخذ فقط. في انتظار ذلك عليهم أن يتميزوا في كل الميادين التي يتميز فيها الأوربيون، عليهم أن يكونوا من بين الأوائل في كل مكان إلى أن يصبحوا قادرين هم أنفسهم على تحديد الشيء الذي يميز. آنذاك سيصبحون هم مبتكرو الأوربيين ومرشديهم دون أن يخدشوا حياءهم. وأين سيتم توظيف ذلك الكم الهائل من الانطباعات التي تراكمت عبر التاريخ عند كل عائلة يهودية، ذلك الكم الوفير من المشاعر، والقرارات، والتخلي، والصراعات، والانتصارات المختلفة، — إن لم يتم توظيفها في أعمال كبيرة وفي مثقفين كبار! حين يتمكن اليهود من إظهار أن الجواهر والمزهريات الذهبية، التي لم تستطع الشعوب الأوربية ذات التجربة المحدودة والبسيطة إنتاجها أبدا، من إنتاجهم هم، — حين تستبدل إسرائيل انتقامها الأبدي من أوربا بمباركة أبدية لها: آنذاك سيحل مرة أخرى اليوم السابع الذي ابتهج فيه رب إسرائيل القديم بما خلقه وبشعبه المختار، — ونحن كلنا نريد أن نبتهج معه!

206

الطبقة المستحيلة. — فقير، مرح ومستقل! — قد نجد هاته المزايا مجتمعة لدى فرد واحد؛ فقير، مرح وعبد! — قد نجد هاته المزايا كذلك، — ولن أجد أفضل من هذا أقوله للعمال عبيد المصانع: إذا سلمنا بأن استخدامهم، كما هو الحال الآن، كلولب آلة، كشيء يسد به العقل المبدع فراغا ما. أف من الاعتقاد بأن الأجرة

الكبيرة قد تؤدي إلى محو آثار الشيء الأساسي في ضائقتهم، أقصد استعبادهم اللاشخصي! أفل من الاقتناع بأن الزيادة من قدر هاته اللاشخصية، وسط دواليب آلة مجتمع جديد، قد يحول عار الاستعباد إلى فضيلة! أف من ذلك الثمن الذي يجعل المرء يتخلى عن شخصه ويتحول إلى ترس! هل أنتم متواطئون مع جنون الأمم الحالي، هاته الأمم التي تريد قبل كل شيء أن تنتج الكثير وتحقق أكبر قدر من الغنى؟ مهمتكم هي أن تقدموا لها تنزيلا آخر، أن تظهروا لها الكم الهائل من القوى الداخلية التي تبذرها لتحقيق ذلك الهدف الخارجي! ولكن أين هي قيمتكم الداخلية إن كنتم لا تستطيعون التنفس بحرية؟ إن كنتم لا تكادون تملكون أمر نفوسكم ؟ إن كنتم في الغالب تشعرون بالملل من أنفسكم كما من مشروب فقد برودته؟ إن كنتم تصغون باهتمام لصوت الجرائد وتنظرون شزرا إلى جاركم الغني، وتشعرون بالغيرة وأنتم ترون الصعود والهبوط السريع للسلطة، والمال والآراء ؟ — إن لم تعد لكم ثقة بالفلسفة التي أصبحت بالية، وبحرية عقل الإنسان الذي لا حاجيات له ؟ إذا كان الفقر الطوعي الرائع، والعزوبة وعدم مزاولة أية مهنة، الذين سيناسبون تماما المثقفين أكثر من بينكم، قد أصبح موضع سخريتكم؟ في مقابل ذلك يتردد دائما في أسماعكم صوت مزمار الاشتراكيين المضللين، — أولئك المضللين الذين يريدون إغراءكم بآمال غير معقولة! الذين يطلبون منكم أن تكونوا مستعدين ليس أكثر، مستعدين بين اليوم والغد، بحيث تنتظرون شيئا من الخارج، تنتظرون باستمرار، وتعيشون حياتكم كالمعتاد — إلى أن يتحول ذلك الانتظار إلى جوع وعطش، إلى حمى وجنون، ويبزغ في نهاية المطاف، بكامل الروعة، يوم الحيوان الظافر ! — على العكس من ذلك يجب أن يقول كل واحد منكم في قرارة نفسه : «الأفضل لي أن أهاجر لأحاول أن أكون سيدا في البلاد المتوحشة والبكر، ولأكون قبل ذلك سيد نفسي؛ علي أن أغير محل إقامتي ما دامت الاستعباد يتهددني هنا؛ لن أتجنب المغامرة والحرب، بل سأكون مستعدا للموت في أسوأ الحالات : لعل هاته العبودية غير اللائقة تنتهي سريعا، لعل هذا الميل نحو الامتلاء غيظا وسما وتآمرا يتوقف!» هاته هي العقلية التي يجب أن تكون لدى العمال الأوربيين: أن يبدؤوا منذ الآن في اعتبار أنه من المستحيل أن يشكلوا طبقة، لا أن يعتبروا أنفسهم مكيفين بشكل صارم ولكن غير منظمين

بالشكل الصحيح؛ يجب أن يوجدوا عصر الهجرة الكبيرة خارج أوربا كفرق النحل، هجرة لم نشهد لها مثيلا حتى اليوم، والاحتجاج عبر حرية الإقامة هاته، وهو فعل قوي، ضد الآلة، ورأس المال والخيار الذي يهددهم الآن : أن يكونوا عبيد الدولة، أو عبيد حزب ثوري. لتتخفف أوربا من ربع سكانها! سيكون ذلك تخفيفا عنها وعنهم! هناك فقط في المشاريع التي سينجزها بعيدا عن أوربا المستوطنون، الذين سيهاجرون بشكل جماعي، سنتعرف على مدى الرشاد والإنصاف، والحذر السليم الذين ربت عليهم أوربا الأم أبناءها، هؤلاء الأبناء الذين لم يعودوا يطيقون العيش فيها، وهي العجوز الغبية، والذين يتهددهم خطر أن يصبحوا كئيبين، ونزقين وطالبي لذة مثلها. ستسافر فضائل أوربا إلى خارج أوربا مع هؤلاء العمال، وهناك سيعمل ما بدأ يتحول في أرضه الأصلية إلى ضائقة خطيرة، ويتخذ منحى إجراميا، على حماية طبيعة متوحشة وجميلة وسيسمى بطولة. — هكذا ستعود رياح أكثر نقاء لتهب على أوربا المكتظة الآن بالسكان والمنطوية على نفسها! لا يهم أن يكون هناك نقص في عدد «الأيدي» العاملة ! ربما نتذكر آنذاك بأننا لم نتعود على الكثير من الحاجيات إلا منذ أصبحت تلبيتها في المتناول، — يكفينا أن ننسى بعض الحاجيات! وربما نجلب عندها بعض الصينيين : وهم سيجلبون معهم طريقة العيش والتفكير التي تناسب النمل الشغال. وقد يبث في دم أوربا المضطربة والتي تستنفذ قواها شيئا من الهدوء والتأمل الأسيويين، وقوة التحمل الأسيوية التي هي في أمس الحاجة إليها.

207

كيف يتصرف الألمان بشأن الأخلاق. — يستطيع الألماني تحقيق أشياء عظيمة، ولكن من المستبعد كثيرا أن ينجزها، لأنه يطيع حيث يستطيع ، مثلما تفعل العقول المجبولة على الكسل. إذا ألقي في أوضاع خطيرة تتطلب أن يظل وحيدا ويحاول التخلص من كسله، إذا لم يسمح له بأن يلبد كرقم في عدد (لأنه حين يكون كذلك يكون اقل قيمة من الفرنسي أو الإنجليزي) — فسيكتشف قواه : وعندها يصبح خطيرا، وشريرا، وعميقا، وجريئا ويظهر كنز الطاقة الكامنة التي يتمتع

بها، كنز لا يعتقد أي أحد (لا هو ولا غيره) أنه يمتلكه. حين يطيع ألماني نفسه، في مثل هاته الحالة، — ويكون ذلك استثناء كبيرا — فإنه يطيع بنفس التثاقل، والصلابة، والتحمل الذين يطبعون طاعته لملكه وقيامه بواجباته المهنية : آنذاك يكون في مستوى إنجاز أمور عظيمة لا توازي مطلقا «ضعف الشخصية» الذي يصف به نفسه. ولكنه في الأوقات العادية يخاف أن يعتمد كلية عل نفسه، يخاف الارتجال (هذا هو سبب استخدام ألماني للكثير من الموظفين واستهلاكها الكثير من المداد). — إنه لا يعرف الاستخفاف، يتفاداه بسبب خوفه؛ وأمام الأوضاع الجديدة التي تخرجه من خَدَره يكاد يتحول إلى عابث؛ يستمتع عند ذلك بندرة وضعه الجديد كما يستمتع بانتشاء، وهو بارع في الانتشاء! هذا هو ما يجعل الألماني يكاد يكون كثير العبث في السياسة الآن؛ إذا كان هنا يستفيد من الحكم المسبق الذي يقول أنه عميق وجدي، ويفرط في استخدامه في علاقته بالقوى السياسية الاخرى، فهو مزهو في دواخله بسبب الحق الذي خول له مرة أن يرفع قدره، وأنت يكون لمرة نزويا ومجددا، وأن يغير الأشخاص، والأحزاب والآمال كما يغير الأقنعة. لقد كان العلماء الألمان، الذين بدو حتى الآن أنهم الاكثر ألمانية من بين كل الألمان، وربما لا يزالون، مثلهم مثل الجنود الألمان، بسبب ميلهم الشديد وشبه الطفولي نحو الطاعة في كل ما يتعلق بالأمور الخارجية، وبسبب العزلة التي يفرضها عليهم العلم ومسؤوليتهم عن الكثير من الأشياء ؛ يعرفون المحافظة على مظهرهم الابي، البسيط والصبور، واستقلاليتهم عن الحماقات السياسية، وفي الأوقات التي تهب فيها رياح مغايرة يمكن كذلك أن ننتظر منهم أشياء عظيمة؛ فمثلما هم الان (أو مثلما كانوا) يمثلون شيئا أسمى لا يزال في مرحلته الجنينية. — الشيء الإيجابي والسلبي لدى الألمان هو كونهم كانوا أقرب من الشعوب الأخرى إلى الخرافة وإلى الحاجة للإيمان؛ الرذائل التي يرتكبونها، اليوم كما بالأمس، هي الإدمان على الخمر والإقدام على الانتحار (هاته الرذيلة الاخيرة علامة بلادة عقل يتخلى بسهولة عن الإمساك بزمامه)؛ تكمن الخطورة بالنسبة لهم في كل ما يقيد قوى العقل ويهيج الأهواء (كالإفراط في استخدام الموسيقى وشرب المشروبات الكحولية) : لان الهوى الالماني ينقلب ضد ما ينفعه، أنه يدمر نفسه، كهوى السكير. ليس للحماس في ألمانيا نفس القيمة التي

له في البلاد الأخرى، فهو هناك عقيم. إذا كان الألماني قد أنجز شيئا عظيما فقد فعل والخطر يتهدده، مسلحا بالشجاعة، كازا على أسنانه، بذهن جاد، مع ميل في الغالب إلى الشهامة. — أنصحكم بالعمل على تتبع علاقتكم مع الألمان، — لأن لدى كل واحد منهم شيء يعطيه، هذا إذا عرفنا كيف ندفعه للعثور عليه، والعثور عليه مجددا (لأنه لا يعرف النظام). وإذا اهتم شعب من هذا الصنف بالأخلاق فأية أخلاق سترضيه؟ سيريد بكل تأكيد أن تجعل من ارتباطه الشديد بالطاعة مثلا أعلى. «يجب أن يكون للمرء شيء يطيعه طاعة مطلقة» — هذا إحساس ألماني، هذا استنتاج ألماني: نجده في جوهر كل المذاهب الألمانية. كم هو مخالف لهذا ذلك الانطباع الذي نشعر به أمام أخلاق العصر الإغريقي! كل المفكرين الإغريق، مهما يكن التعدد الذي تبدو عليه صورتهم، يبدون لنا، كأخلاقيين، أشبه بأستاذ الرياضة البدنية الذي ينادي أحد الشباب: «تعال! اتبعني! مارس رياضتي! فربما تمكن بذلك من الفوز بجائزة أما كل الهلينيين.» التميز الشخصي — تلك هي الفضيلة لدى الإغريق. الخضوع، الطاعة العلنية أو الخفية، — تلك هي الفضيلة لدى الألمان. — قبل كانط وأمره القطعي قال لوثر، تحت وطأة نفس الإحساس، بأنه يجب أن يكون هناك كائن يستطيع الإنسان أن يثق به ثقة مطلقة، — كان ذلك هو دليله على وجود الله؛ أراد من الناس، بطريقة أكثر فظاظة وعامية من كانط، أن يطيعوا طاعة عمياء ليس فكرة ما بل شخصا، والهدف الذي قصده كانط بمروره عبر الأخلاق هو الوصول إلى طاعة الشخص: لأن ذلك هو الإجلال الذي يشعر به الألماني، مهما يكن الأثر الخفي من الإجلال الذي بقي في دينه. لقد كان للرومان والإغريق مشاعر أخرى وكانوا سيسخرون من «يجب أن يكون هنا كائن»: فحرية الإحساس المتوسطية لديهم ستقف ضد «الثقة المطلقة» وستشك في آخر ثنية من ثنايا قلبها في كل شيء وكل شخص، سواء كان إلها، أو إنسانا، أو فكرة. يذهب الفيلسوف الإغريقي ابعد من ذلك! عدم الإعجاب بأي شيء، — في هاته الكلمة يرى الفلسفة كلها. ويذهب أحد الألمان، إي شوبنهاور، إلى حد قول العكس: الإعجاب هو الفلسفة. وماذا لو وجد الألماني نفسه، مثلما يحدث أحيانا، في أوضاع يستطيع فيها أ، يقوم بأعمال كبيرة؟ ماذا لو حانت ساعة الاستثناء، ساعة التمرد؟ — لا أظن أن شوبنهاور سيقول، مصيبا في ذلك، بأن الميزة الوحيدة التي للألمان هي كون عدد الملحدين من بينهم يفوق عددهم

لدى غيرهم من الشعوب، — ولكنني أعلم شيئا : حين نضع الألماني في أوضاع يستطيع فيها القيام بأعمال عظيمة نجده في كل مرة يسمو على الاخلاق! وأي شيء سيمنعه من فعل ذلك ؟ ها هو الآن في وضع سيقوم فيه بشيء جديد، أي القيادة — قيادة نفسه أو الآخرين ! ولكن أخلاقه الألمانية لم تعلمه القيادة! لقد تم إغفال فن القيادة فيها !

الكتاب الرابع

208

مسألة ضمير. — «وكخلاصة، ما هو الشيء الجديد الذي تريدونه ؟» — كل ما نريده هو أن تصير العلل آثاما والمعلولات جلادين.

209

فائدة النظريات الشديدة الصرامة. — نكون متسامحين مع النقائص الأخلاقية لإنسان ما وإذا فحصناها بدقة فعلنا ذلك بأريحية، شريطة أن يعلن على الدوام إيمانه بأخلاق صارمة. مقابل ذلك نقوم دائما بالفحص الدقيق لحياة الأخلاقيين ذوي العقول الحرة : تقف وراء ذلك الفكرة المبطنة القائلة بأن زلة واحدة في الحياة هي أفضل برهان ضد معرفة غير مرغوب فيها.

210

الشيء «في ذاته». — كان الناس فيما مضى يسألون : ما الذي يضحك ؟ كما لو كانت خارجنا أشياء من خاصيتها الإضحاك وننهك أنفسنا في تخيلها (ولقد زعم احد علماء اللاهوت أن ما يجعلنا نضحك هي «سذاجة الإثم»). والآن نسأل : ما هو الضحك ؟ وكيف يحدث ؟ فكرنا كثيرا وفي نهاية المطاف قلنا بأنه ليس في ذاته شيئا جيدا، ولا جميلا، ولا ساميا، ولا خبيثا، وبأن حالات نفسية هي التي تجعلنا نضفي على أشياء خارجنا مثل تلك الصفات. ومن جديد سلبنا الاشياء تلك الصفات، أو على الأقل تذكرنا بأننا كنا قد أعرناها إياها : — لنحذر لأن تفقدنا هاته القناعة القدرة على الإعارة، ولنحذر أن نصبح أغنياء وبخلاء في ذات الوقت.

211

لمن يحلمون بالخلود. — تتمنون أن يظل وعيكم الجميل بذواتكم قائما على الأبد ؟ أليس هذا شيئا مخجلا ؟ هل نسيتم كل الأشياء الأخرى التي ستتحملكم إلى الأبد مثلما تحملتكم حتى الآن بصبر فيفوق الصبر المسيحي ؟ أم تظنون أن مظهركم سيجعلها تشعر برفاهية أبدية ؟ يكفي رجل واحد خالد على ظهر الأرض ليثير اشمئزاز كل ما يحيط به بقدر يدفع أغلبهم إلى الانتحار. وأنتم يا سكان الأرض المساكين، بتصوراتكم التي كونتموها عبر بضعة آلاف من الدقائق من غمر الزمن، تريدون أن تظلوا عبئا ازليا على الوجود الكوني الأزلي ! هل هناك شيء اشد إزعاجا من هذا ؟ — لنكن متسامحين مع إنسان بلغ السبعين من العمر ! — لم يسعفه خياله ليتصور «الملل الأزلي الذي سيشعر به»، — لم يكن لديه متسع من الوقت !

212

بماذا نعرف أنفسنا. — بمجرد ما يرى حيوان حيوانا آخر يقيس نفسه في عقله بمقارنة نفسه معه، وهو نفس ما كان يفعله الناس في العصور البدائية. ونتيجة ذلك هي كون الإنسان لا يعرف نفسه إلا من خلال قوة الدفاع والهجوم لديه.

213

رجال الحياة الفاشلة. — البعض مشكل من طينة تمكن المجتمع من تشكيلهم كيف يشاء : وسيجدون ذلك جيدا بكل الاعتبارات ولن يشتكوا من حياة فاشلة. والبعض الآخر مشكل من مادة خاصة جدا — ليست مادة نبيلة بالضرورة، وإنما نادرة وحسب — لكيلا يتضايقوا، إلا في حالة عيشهم وفقا للغايات الوحيدة الممكن أن تكون لهم : — في كل الحالات الأخرى يقع الضرر على المجتمع. لأن الفرد يحمل المجتمع كل ما قد يبدو له حياة فاشلة، وغير موفقة، وعبء فنور همته، وعجزه، ومرضه، ونزقه، وجشعه — وبالتالي يتكون حول المجتمع جو موبوء وثقيل، وفي أفضل الأحوال غيوم إعصار.

214

لماذا الاعتبارات ! — تعانون وتريدون منا أن نكون متسامحين معكم حين تدفعكم معاناتكم إلى ظلم الناس والأشياء ! ولكن ما أهمية الاعتبارات التي لنا ! أما أنتم فيجب عليكم أن تكونوا يقظين من أجل مصلحتكم ! ما أجمل استعاضتكم عن معاناتكم بإضراركم بحمكم ! من أنفسكم تنتقمون حين تحطون من قدر شيء ما؛ بذلك تعكرون صفو نظركم وليس نظر الآخرين : تتعودون على الرؤية الخاطئة والمنحرفة !

215

أخلاق الضحايا. — «التضحية بالنفس بحماس»، «التضحية بالمصالح الشخصية» — هذا هو الكلام الذي يتكرر في أخلاقكم، وأنا أصدق طواعية أنكم «صادقون»، مستخدما نفس الكلمة التي تستخدمونها : ولكنني أعرفكم أفضل مما تعرفون أنفسكم، وأعرف ما إن كان صدقكم سيتناسب مع مثل هاته الأخلاق. تنظرون من عليائها إلى تلك الأخلاق الأخرى المتزنة التي تتطلب الإمساك بزمام النفس، والصرامة، والطاعة، وتذهبون إلى حد وصفها بالأنانية، وهي كذلك حقا! — أنتم صادقون مع أنفسكم حين تقولون أنها تزعجكم، — يجيب أن تزعجكم ! لأنكم بتضحيتكم بأنفسكم بحماس، وبتضحيتكم بمصالحكم الشخصية، تتلذذون بانتشاء بفكرة اتحادكم بالواحد المقتدر، سواء كان إلها أو إنسانا، الذي تكرسون أنفسكم له : تستمتعون بقوته التي تأكدت من جديد من خلال هاته التضحية. إنكم لا تضحون بأنفسكم في الواقع إلا ظاهرا، تتخيلون أنكم آلهة وتستمتعون بأنفسكم كما لو كنتم آلهة. وبتقييمك من وجهة نظر هاته المتعة لتلك الأخلاق «الأنانية» البئيسة التي هي أخلاق الطاعة، والواجب، والعقل تجدونها أخلاقا ضعيفة : تزعجكم لأنها تتطلب تضحية حقيقية بالنفس وبالمصالح دون أن يتوهم المضحي، مثلكم، أنه يتحول إلى إله. باختصار، أنتم تريدون الانتشاء والإفراط، وهاته الأخلاق التي تحتقرونها تحارب لانتشاء والإفراط، — أعتقد بكل سرور أنها تزعجكم!

216

الأشرار والموسيقى. — هل استحقت غبطة الحب التامة التي نجدها في الثقة المطلقة أن يتقاسمها أشخاص مرتابون، وأشرار وحقودين ؟ لأن هؤلاء يستمتعون في هاته الغبطة بحالة معنوية رائعة تبدو لهم شيئا لا يصدق لم يؤمنوا بوجوده أبدا. وجاء يوم غمرهم فيه، كرؤيا، هذا الإحساس المناقض لبقية حياتهم الخفية والمرئية : كلغز لذيذ، وعجيبة لها بريق الذهب، تعجز عن وصفه الكلمات والصور. الثقة المطلقة تخرس الإنسان؛ بل هناك في هذا الخرس السعيد نوع من المعاناة والثقل، هذا هو ما يجعل هؤلاء، وقد عذبتهم السعادة، غالبا ما يبدون للموسيقى امتنانا أكبر من الذي يبديه الآخرون الأفضل منهم : لأنهم من خلال الموسيقى يرون ويسمعون، كما لو كانوا في غيمة ملونة، حبهم وقد أصبح بعيدا، أكثر تأثيرا وأقل ثقلا؛ الموسيقى بالنسبة لهم هي الوسيلة الوحيدة التي تمكنهم من التفرج على حالتهم الاستثنائية والمشاركة في مظهرها من بعيد وبشكل لطيف. كل من يحب يفكر وهو يستمع للموسيقى : «إنها تتحدث عني، تتحدث عوضا عني، إنها تعرف كل شيء!» —

217

الفنان. — يريد الألمان أن يسافر بهم الفنان إلى الهوى المنشودة؛ ويريد الإيطاليون أن يستريحوا، بفضله، من أهوائهم الحقيقية؛ ويريده الفرنسيون أن يمنحهم الفرصة ليبرهنوا على حكمهم ويتخذوه ذريعة ليثرثروا. فلنكن منصفين!

218

معاملة النقائص كفنان ! — إذا كان من الضروري أن تكون لنا نقائص ومن الضروري كذلك أن نعترف بها كقوانين نخضع لها، فإنني أتمنى أن يكون لكل واحد ما يكفي من القدرات الفنية ليتمكن من إبراز فضائله بواسطة نقائصه، بحيث يجعلنا، من خلال تلك النقائص، متعطشين لفضائله : وهذا ما عرف

الموسيقيون الكبار كيف يقومون ببراعة. غالبا ما نجد في موسيقى بتهوفن نبرة فظة، ومماحكة، وجزعة، ولدى موزار فرح رجل يجب أن يكتفي بها عقل وقلب رجل صادق، ولدى ريشار ڤاغنر قلقا هاربا وملمحا يكاد يجعل الاشد صبرا من الرجال يفقد مزاجه الرائق : ولكن آنذاك يسترجع ڤاغنر قواه مثل، مثل بتهوڤن وموزار. لقد جعلونا هم الثلاثة نتعطش لفضائلهم، من خلال نقائصهم، وجعلوا ذوقنا أكثر رهافة وإحساسا بكل قطرة عقل رنان، وجمال رنان، وطيبة رنانة.

219

الخداع في الإهانة. — لقد آلما قريبك بحماقتك ألما شديدا، وأفسدت عليه سعادته إلى الأبد، وها أنت الآن قد تغلبت على غرورك، وذهبت لإهانة نفسك أمامه، تعزو أمامه حماقتك للازدراء وتتخيل أنه بعد ذلك المشهد الصعب، الذي يشق عليك كثيرا، سيتم إصلاح كل شيء، أن الضرر الطوعي الذي ألحقته بشرفك سيعوض الضرر غير المقصود الذي أصاب سعادة الآخر : مفعما بهذا الشعور تعود أدراجك، وقد سلوت، بفضيلتك المستعادة. ولكن الآخر لم يبرحه الألم الذي شعر به من قبل، لم يجد في كونك أخرق وفي اعترافك بذلك أمامه ما يواسيه، بل يتذكر المشهد الصعب الذي قدمته بإذلال نفسك أمامه كما يتذكر جرحا جديدا أصبته به، ولكنه لا يفكر مع ذلك في الانتقام ولا يدري كيف سيتم إصلاح شيء ما بينك وبينه. الحقيقة هي أنك قد مثلت ذلك المشهد أمام نفسك أنت : ودعوت شاهدا للحضور، هاته المرة أيضا بسببك أنت وليس بسببه هو، — لا تترك نفسد تخدعك!

220

كرامة الخوف. — الاحتفالات، أزياء الأبهة والكرامة، الوجوه الجدية، الأجواء المهيبة، الخطابات الملتوية وكل ما يسمى كرامة : تلك طريقة يخفي بها الخوفَ الذين يحملونه في دواخلهم، يريدون بذلك أن يوحوا بالخوف (منهم هم أو مما يمثلونه). الذين لا يخافون — أي المرعبون على الدوام وبكل تأكيد — لا

يحتاجون للكرامة ولا للاحتفالات، فبكلماتهم ومواقفهم يدعمون ما يتمتعون به من سمعة الصدق والاستقامة سواء كانت حسنة أم قبيحة، وذلك ليبينوا عن وعيهم بطبعهم المرعب.

221

أخلاقية التضحية. — الأخلاقية التي تقيس نفسها حسب روح التضحية هي أخلاقية الناس شبه المتوحشين. يجب أن يحقق العقل انتصارا صعبا وداميا داخل الروح، عليه أن يسحق غرائز مناقضة رهيبة؛ ولا يمكن فعل ذلك دون شيء من القسوة، كما في التضحيات التي تتطلبها آلهة آكلي لحوم البشر.

222

حيث يجب أن نرغب في التطرف. — لا يمكن إثارة حماس الطباع الباردة إلا بدفعها للتطرف.

223

العين التي نخشاها. — ليس هناك ما يخشاه الفنانون، والشعراء والكتاب أكثر من العين التي تتنبه لخداعهم الصغير، التي تتنبه بعد برهة إلى أنهم قد توقفوا عند الحد قبل أن يخلدوا إلى فرحة تمجيد انفسهم، أو إعطاء الانطباعات السهلة؛ العين التي تتأكد من أنهم لم يسعوا لإعطاء أشياء صغيرة قيمة أكبر من حجمها، ومن أنهم لم يحاولوا التجميل وإثارة الحماس دون أن يكونوا متحمسين هم أنفسهم؛ العين التي ترى، من وراء كل الحيل التي يستخدمها فنهم، الفكرة كما أتتهم في البداية، ربما كرؤية ضوئية فاتنة، وربما كشيء يستعيرونه من كل الناس، كفكرة تافهة وجب عليهم أن يذيبوها، ويختصروها، ويطوروها، ويضيفوا إليها، ليجعلوا منها شيئا ذا بال، عوض أن تكون الفكرة هي التي تصنع منهم أناسا ذوي شأن. — أوه ! تلك العين التي تلاحظ في

العمل ما ينتاب كاتبه من قلق، وتجسس وطمع، وتقليده لغيره ومبالغته (التي ما هي إلا مبالغة حسودة)، التي تعرف خجله وفن إخفائه لذلك الخجل وإعطائه معنى لآخر أمام نفسه!

224

«العبرة» التي في مصاب القريب. — بينما هو يعاني وصل الناس «المشفقون»، «الرؤوفون»، الذين يصفون له مصابه. — ولما حان الوقت انصرفوا، راضين وقد أخذوا العبرة، وقد شبعوا من الذعر الذي أصاب قريبهم السيئ الحظ، كما يشبعون من الذعر الذي يصيبهم هم، وقد قضوا ظهيرة ممتعة.

225

وسيلة ليتم احتقارك بسرعة. — الإنسان الذي يتكلم كثيرا وبسرعة نحط من قدره بعد أن نعاشره ولو لفترة قصيرة، وهو ما يحدث حتى لو كان حديثه معقولا، — وليس فقط إذا أزعجنا، بل يكون ذلك مدعاة لأن نحط من قدره أكثر. لأننا نتخيل آنذاك أنه قد أزعج أناسا كثيرين غيرنا، ونضيف إزعاجه لنا إلى قائمة الإزعاج الذي نفترض أنه كان سببا فيه.

226

العلاقة مع المشاهير. — أ: لماذا تتجنب هذا الرجل العظيم؟ — ب: لا أريد أن أستخف به! عيوبنا لا تتطابق مع بعضها: أنا حسير النظر ومرتاب، وهو يحمل معه جواهره المزورة والحقيقية.

227

المقيدون. — احذروا كل العقول المقيدة! مثلا من النساء الذكيات اللواتي ألقى بهن قدرهن في وسط دنيء وضيق الأفق، هناك حيث يشخن. انظر إليهن

مستلقيات في الشمس، يبدون كسولات وشبه عمياوات : غير أنهن عند سماع أية خطوة غريبة، أو أي شيء غير متوقع، ينتفضن ويكشرن عن أنيابهن؛ ينتقمن من كل من عرف كيف يفلت من وسطهن القذر ذاك.

228

الانتقام والثناء. — هاته صفحة مليئة بالثناء ومع ذلك تقولن عنها أنها تافهة : ولو حزرتم أن فيها انتقاما خفيا لوجدتموها دقيقة واستمتعتم كثيرا بما تتضمنه من إشارات صغيرة وصور جريئة. ليس الإنسان هو الذي يتسم بالدقة، والثراء والإبداع بل انتقامه؛ وهو لا يكاد يتنبه لذلك.

229

كبرياء. — مع الأسف ! لا أحد منا يعرف ما يشعر به الذي تم تعذيبه بعد انتهاء التعذيب، حين يتم إرجاعه لزنزانته وسره لا يزال حبيس صدره ! لا يزال يغلق فمه لكي لا يبوح به. كيف تريدون أن تعرفوا ابتهاج كبرياء الإنسان!

230

«منفعة». — أضحت المشاعر متشابكة في الأمور الأخلاقية إلى حد أننا نثبت على أخلاق ما، لدى هذا الشخص، من خلال منفعتها، وندحضها لدى الآخر من خلال تلك المنفعة ذاتها.

231

الفضيلة الألمانية. — كم يجب أن يكون شعب ما منحط الذوق، وخنوعا أمام المناصب، والمراتب الاجتماعية، والأزياء، والفخفخة والأبهة، ليعتبر الشيء البسيط خبيثا، والإنسان البسيط — schlicht — إنسانا خبيثا — schlecht ! يجب دائما أن نعارض الكبرياء الأخلاقي للألمان بكلمة «خبيث» وحدها لا غير !

232

حوار. — أ : لقد بح صوتك يا صديقي من فرط الكلام ! — **ب** : لقد فندت آرائي إذن. دعنا من الحديث عن ذلك !

233

«أصحاب الضمائر الحية». — هل لاحظتم من هم الرجال الذين يولون أهمية كبيرة للضمير الأكثر صرامة ؟ الذين لديهم الكثير من الأحاسيس المثيرة للشفقة، الذين يفكرون في أنفسهم بخوف ويخافون الآخرين، الذين يريدون إخفاء سريرتهم ما أمكنهم ذلك، — يريدون إثارة الخوف في أنفسهم بتلك الصرامة المنصفة والدقة في الواجب، بفضل الانطباع الصارم والصلب الذي يجب أن يخلفه ذلك لدى الآخرين (خاصة لدى مرؤوسيهم).

234

خشية الشهرة. — أ : أن يخشى أحدهم شهرته، ويهين عن قصد الذين يثنون عليه، ويخاف سماع الأحكام التي تصدر في حقه، مخافة الثناء، — هذا شيء موجود بالفعل، — صدقوا أو لا تصدقوا ! — **ب** : هذا شيء موجود بالفعل ! اصبر قليلا، أيها الشاب المغرور !

235

رفض الشكر. — قد نرفض طلبا، ولكنه لا يحق لنا أبدا أن نرفض الشكر (أو نقبله ببرودة وبطريقة تقليدية، لأن ذلك يعني رفضه). سيعتبر ذلك إهانة كبيرة، ولكن لماذا؟

236

عقاب. — ما أغرب طريقتنا في العقاب ! فهي لا تطهر المجرم، ولا تعتبر تكفيرا عما اقترفت يداه : بل على العكس تدنس المجرم نفسه.

237

خطورة الحزب. — هناك في كل حزب تقريبا بلوى مثيرة للسخرية، ولكنها لا تخلو من خطورة : يعاني منها كل الذين دافعوا طيلة عدة سنوات عن رأي الحزب بوفاء وإجلال، والذين ينبهون فجأة ذات يوم بأن أحدا أقوى منهم قد أصبح هو المدافع عن الحزب. كيف سيتحملون التزام الصمت ؟ لهذا تصبح لهجتهم أكثر حدة، بل تتغير أحيانا.

238

الطموح إلى اللباقة. — حين لا يكون لذي طبع قوي ميل نحو القسوة، ولا ينشغل على الدوام بنفسه، فإنه يطمح لاشعوريا إلى اللباقة — تلك هي السمة المميزة له. أما الضعفاء، في المقابل، فيحبون الأحكام القاسية، — يتناغمون مع أبطال احتقار الإنسانية، والمفترين على الحياة، متدينين كانوا أو فلاسفة، أو يتحصنون وراء عادات صارمة، و«نزعة» متعنتة : يسعون بذلك لاكتساب شخصية ونوع من القوة. وحتى هذا يفعلونه بشكل لاشعوري.

239

تحذير للأخلاقيين. — لقد قام موسيقيونا باكتشاف كبير : وجدوا أن القبح المهم ممكن هو كذلك في فنهم ! لذلك يرتمون بانتشاء في بحر القبح وما حدث من قبل أبدا أن كان إنتاج الموسيقى أسهل مما هو عليه اليوم. لقد أصبحت لديهم الآن الخلفية العامة المظلمة التي يصبح لأدنى بارقة من الموسيقى بريق الذهب والزمرد، يجرؤون اليوم على جعل المستمع يرتبك ويتمرد، وتضيق أنفاسه، ليجعلوه

يشعر لاحقا، بعد أن يصاب بالإرهاق ويهدأ، بغبطة تهيئه لسماع الموسيقى. لقد اكتشفوا التناقض : فأصبحت التأثيرات القوية الآن ممكنة، دون أن يكلفهم ذلك شيئا كثيرا : لم يعد أحد يبالي بالموسيقى الجيدة. أسرعوا أيها الموسيقيون ! فالفن الذي يقوم بمثل هذا الاكتشاف تكون نهايته قد أوشكت. — آه ! لو كانت لمفكرينا آذان يسمعون بها ما يعتمل في نفوس موسيقيينا ! كم من الوقت سيكون علينا أن ننتظر قبل أن تتاح لنا فرصة مفاجأة الإنسان الباطني متلبسا بخبث يرتكبه بكل براءة ! لأن موسيقيينا لا يتنبهون بتاتا إلى كونهم يضمنون موسيقاهم قصة حياتهم الخاصة، قصة تقبيح النفس. فيما مضى كانت الموسيقى تكاد ترغم الموسيقي الجيد على أن يصبح إنسانا طيبا. — والآن!

240

أخلاقية خشبة المسرح. — يخطئ من يعتقد أن لمسرح شكسبير تأثيرا أخلاقيا، وأن مشاهدة ماكبث يخلص المرء نهائيا من شر الطموح : ويخطئ مرة أخرى حين يتصور أن شكسبير قد أحس بمثل ما يحس به هو. المهووس بطموح مجنون يتأمل مسرورا صورته تلك؛ وحين يموت البطل بسبب ذلك الهوى يكون ذلك هو التابل الأشد مرارة في المشروب تلك الفرحة الحار. فهل أحس الشاعر بذلك بطريقة مخالفة ؟ بمجرد ما يتم ارتكاب الجريمة يمضي الطموح إلى هدفه على طريقة الملوك لا يشبه المحتال في شيء. انطلاقا من هاته اللحظة بالذات يجذب أشباهه «بشكل شيطاني» ويدفعهم لتقليده؛ — بشكل شيطاني يعني هنا : يتمردون ضد المصلحة وضد الحياة لصالح فكرة وغريزة ما. هل تعتقدون أن تريستان وإيزولد يدينان الزنا لأنهما يموتان بسببه كلاهما ؟ سيعني ذلك قلب الشاعر رأسا على عقب، الشعراء الذين يحبون الهوى في ذاته، خاصة من هم مثل شكسبير، ولا يحبون البتة الاستعداد للموت الذي ينتج عنه : حين يكف القلب عن التعلق بالحياة تعلق القطرة بشفة الكأس. ليس الإثم وما ينتج عنه من عواقب وخيمة هو ما يهم هؤلاء الشعراء، شكسبير، وصوفوكليس (في مسرحيات أجاكس،

فيلوكطيط، وأوديب) : فرغم أنه من السهل أن نجعل من الطبيعة مرتكز المأساة التي تحدث في هاته المسرحيات نتفادى ذلك قطعا. كما أن الشاعر التراجيدي لا يريد أن يحذرنا من الحياة من خلال الصور التي يقدمها لنا عنها ! بل يصرخ على العكس : «إنها السحر نفسه، هاته الحياة المضطربة، المتغيرة، الخطيرة، المعتمة والتي غالبا ما تضيئها شمس حارة ! الحياة مغامرة، وسواء انحزتم لهذا الطرف أو ذاك فإنها تظل دائما مغامرة!» هكذا يقول في عصر سمته القلق والقوة، عصر ينتشي بفيض الدم والحيوية الذي يصيبه بالدوار، في عصر أشد خبثا من عصرنا : هذا هو ما يجعلنا بحاجة إلى تغيير وتكييف هدف مسرحيات شكسبير، أي ألا نفهمه البتة.

241

الخشية والذكاء. — إذا كان ما نؤكده الآن صحيحا، أي أنه لا يجب إرجاع سواد البشرة إلى الضوء : هاته الظاهرة قد تكون آخر الآثار الناتجة عن سورات الغضب المتكررة التي تراكمت على مدى عدة قرون (وعن تدفق الدم تحت الجلد) ؟ أما لدى بعض الأعراق الذكية فظاهرة الشحوب والهلع المتكررة لديها قد جعل في نهاي المطاف بشرتها بيضاء ؟ — لأن درجة الخوف مقياس للذكاء: والاستسلام المتكرر للغضب الشديد يعتبر مؤشرا على كون الحيوانية لا تزال قريبة وتريد أن تعود للهيمنة من جديد، — قد يكون اللون الأشهب الداكن هو اللون الأصلي للإنسان، — لون يجمع بين القرد والدب، كما ينبغي.

242

الاستقلال. — الاستقلال (الذي نسميه «حرية التفكير» حين يكون استقلالا ضعيفا) هو شكل العزوف الذي قبله العقل المهيمن في نهاية المطاف، — هذا العقل الذي بحث طويلا عما قد يهيمن عليه فلم يجد إلا نفسه.

243

الوجهتان. — إذا حاولنا تأمل المرآة في ذاتها فإننا لا نرى فيها إلا الأشياء التي تنعكس عليها. وإذا أردنا أن نمسك بتلك الاشياء فإننا لا نرى إلا المرآة. — تلك هي قصة المعرفة عموما.

244

متعة الواقع. — لا يمكننا فهم ميلنا الحالي للعثور على المتعة في الواقع — كلنا لنا نفس الميل — إلا إذا سلمنا بأننا قد كنا نجد متعتنا لأمد طويل، وبشكل كامل، في الخيالي. وهذا الميل كما هو الآن، الذي لا انتقاء فيه ولا رقة، لا يخلو من خطورة: — وأدنى خطورة ينطوي عليها هي غياب الذوق.

245

رقة الإحساس بالقوة. — كان نابليون يغتاظ من عدم إتقانه الحديث، وكان بهذا الصدد صريحا مع نفسه: ولكن رغبته في الهيمنة التي كانت تنتهز كل فرصة سانحة للظهور، والتي كانت دقيقة أكثر من عقله الدقيق، جعلت طريقته في الحديث أكثر سوء:بذلك كان ينتقم من غضبه (فقد كان يغار من كل أهوائه، لأنها كانت قوية) ليستمتع بهواه الاستبدادي. ثم يستمتع مرة ثانية بذلك الهوى مقارنة مع أذنيه وأحكام مستمعيه: وكأنهم يستطيبون أن يحدثهم بتلك الطريقة. بل كان يبتهج خفية حين تخطر له فكرة تخفيف الحكم وتضليل الذوق برق ورعد أعلى سلطة — الكامنة في اتحاد القوة والعبقرية —؛ هذا بينما يظل حكمه وذوقه على يقين بأنه لا يحسن الحديث. — نابليون، كنموذج الإنسان الكامل، الذي تحول من الإرادة إلى الحقيقة بغريزة واحدة، ينتمي للعصر الإغريقي، الذي نعرف علامته بطل سهولة — التركيب البسيط والتطور العبقري لباعث واحد أو عدد قليل من البواعث.

246

أرسطو والزواج. — أبناء العباقرة يصابون بالجنون، وأبناء الأفاضل يصابون بالبلادة — هذا مل لاحظه أرسطو. هل قصد بذلك أن يحث الاستثنائيين على الزواج.

247

أصل الطبع السيئ. — الظلم وعدم الاستقرار العاطفي لدى بعض الرجال، وكذلك اضطرابهم وعدم اتزانهم، هي العواقب الأخيرة الناتجة عن العديد من الأخطاء المنطقية، والخلاصات المتسرعة التي ارتكبها أسلافهم. أما أصحاب الطبع الحسن، في المقابل، فينحدرون من سلالات رصينة وقوية رفعت مكانة العقل عاليا، — ولا يهم أن تكون قد فعلت ذلك لغاية محمودة أو مذمومة.

248

التظاهر بدافع الواجب. — لقد تم تطوير الطيبة بتظاهر مستمر أراد أن يظهر على أنه طيب : حيثما وُجِدَت قوة كبيرة يتنبه الناس إلى ضرورة ذلك التظاهر، — فهو يوحي بالأمان والثقة، ويضاعف الحجم الحقيقي للقوة البدنية أضعافا كثيرة. الكذب أصل الطيبة، وإلا فهو الذي يغذيها. كما أن الصدق قد تكون بسبب الضرورة الملحة لوجود صدق ونزاهة ظاهريين : في وسط الأرستقراطية الوراثية. التظاهر المستمر يؤدي إلى ظهور الطبيعة : مع مرور الزمن يزول التظاهر من تلقاء نفسه، بعض الأعضاء والغرائز ثمرات نفاق لم نكن نتوقع ظهورها.

249

من الذي لا يعرف الوحدة ؟ — لا يعرف الجبان معنى أن يكون المرء وحيدا؛ هناك وراء كرسيه عدو كامن على الدوام. — آه ! من سيحكي لنا قصة هذا الشعور الدقيق الذي نسميه الوحدة!

250

الليل والموسيقى. — فقط في الليل وفي الجو شبه المظلم في الغابات المعتمة والكهوف استطاعت الأذن، عضو الخوف، أن تتطور كثيرا بالقدر الذي تطورت به بفضل طريقة عيش الإنسان في عصر الخوف، أي أطول عصر عاشته الإنسانية : أثناء النهار لا نحتاج الاذن كثيرا. هذا هو ما يجعل من الموسيقى فن الليل والظليل.

251

بطريقة رواقية. — يهدأ الرواقي هدوءا خاصا حين يجد نفسه في ضيق أثناء المراسم التي حددها هو لأعماله؛ آنذاك يستمتع بنفسه كمهيمن.

252

فكروا في هذا. — في اللحظة التي نعاقب فيها شخصا لا يكون هو ذلك الذي اقترف ما يستوجب العقاب. دائما يكون ذلك هو كبش الفداء.

253

البداهة. — يحزنني أن أقول أن هناك شيئا يجب أن نبرهن عليه بمزيد من الصرامة والعناد، ألا وهو البداهة. لأن أغلب الناس لا يملكون عيونا يرونها بها. ولكن البرهنة عليها مملة للغاية.

254

الذين يتوقعون. — ما يميز الشعراء، ويشكل خطورة عليهم، هو خيالهم الذي ينهكهم قبل الأوان : الخيال الذي يتوقع ما سيحدث أو ما قد يحدث،

ويستمتع بذلك ويعاني منه مسبقا، وعندما يحين أوان الحدث أو الفعل يجد نفسه منهكا. اللورد بايرون، الذي يعرف هذا حق المعرفة، كتب في مذكراته : «إذا رزقت ولدا فسيكون عليه أن يعمل عملا له علاقة بالنثر — إما رجل قانون أو قرصانا.»

255

حوار بشأن الموسيقى. — أ : ما قولك في هاته الموسيقى ؟ — ب : لقد فتنتني، ليس لدي ما أقوله. أنصت ! ها هي تعزف من جديد ! — أ : حسنا! لنكن نحن من يفتنها هاته المرة. هل يمكنني أن أضيف بعض الكلمات لهاته الموسيقى؟ وأن أريك مسرحية ربما لا تود مشاهدتها في الجلسة الموسيقية الأولى؟ — ب : تفضل، أنا أسمعك ! لدي أذنان، وأكثر من ذلك إن اقتضى الأمر. ادن مني ! — أ : ليس هذا هو ما أراد الفنان أن يقوله لنا حتى الآن، يعدنا فقط أنه يريد أن يقول شيئا، شيئا غير مسبوق، مثلما توحي بذلك حركاته. لأنها فعلا حركات. انظر ليه كيف يشير ! وينتصب ! ويومئ ! وها هي لحظة ذروة التوتر تبدو له وقد حانت : بعد عزف مقطوعتين بالأبواق سيقدم لنا موضوعه الرائع المزيَّن، البراق وكأن الأحجار الكريمة تنساب منه. هل هي امرأة حسناء ؟ أم حصان جميل ؟ باختصار، إنه ينظر حواليه، مبتهجا، إذ له نظرات مبهجة يجب التعرض لها؛ — الآن فقط أعجبه موضوعه تماما، الآن فقط أصبح مبدعا، يبدع مقاطع جديدة وجريئة. كم يبدع في إظهار موضوعه ! آه ! خذوا حذركم ! — فهو لا يتقن التزيين فقط، بل التجميل بالمساحيق ! يعرف جيدا لون الصحة، ويعرف كيف يظهرها، — إنه يعرف ذاته بدقة أكثر مما كنت أتصور. وها هو الآن قد اقتنع أنه أقنع مستمعيه، يقدم لهم مبتكراته كما لو كانت هي أهم الأشياء تحت الشمس، يشير إلى موضوعه بأصبع وقحة، كما لو كان موضوعا لا يستحق هذا العالم طيبته. — آه ! ما أشد ريبته ! يخشى أن يصيبنا التعب ! لذلك يلف ألحانه بقطع الحلوى، — ها هو يخاطب حواسنا الفظة ليهز مشاعرنا ويعود من جديد للهيمنة علينا. اسمعوا كيف يستدعي القوة الأساسية للإيقاعات، قوة العاصفة

والإعصار ! ولما رأى الآن هاته الإيقاعات تسحرنا، وتخنقنا وتستعد لسحقنا، أقدم على المزج بين موضوعه وبين العناصر، ليقنعنا، نحن الصم والمخلخلون قليلا، بأن صممنا وانفعالنا ناتجين عن موضوعه الخارق. ومن الآن فصاعدا أصبح المستمعون يؤمنون به : بمجرد ما يتردد صوت الموضوع تعود لذاكرتهم ذكرى تلك التأثيرات الأساسية التي تهز المشاعر، — يستفيد الموضوع الآن من هاته الذكرى، — وها هو قد أصبح «شيطانيا» ! ما أشد معرفة هذا الموسيقي بالنفس الإنسانية ! يستحوذ علينا باستخدام حيل خطيب شعبي. — ها هي الموسيقى قد بلغت نهايتها ! — ب : هذا أفضل ! فأنا لم أعد أطيق سماعك ! أفضل أن يتم خداعي مرات ومرات على معرفة الحقيقة على طريقتك ! أ : هذا ما كنت أود سماعه منك. أفضل الناس الآن كلهم على شاكلتك : ترضون بأن يتم خداعكم ! تأتون إلى هنا بآذان فظة ملؤها الطمع، ليس لكم وعي بفن الاستماع. امضوا إلى حال سبيلكم، لقد ألقيتم بصدقكم بعيدا عنكم. وبذلك تفسدون الفن والفنانين. حين تصفقون وتبتهجون يكون وعيكم بالفنانين بين أيديكم — والويل لهم إن هم تنبهوا إلى أنكم لا تميزون الموسيقى البريئة من الموسيقى المذنبة ! لا أريد أن أتحدث عن الموسيقى «الحسنة» والموسيقى «القبيحة»، — إذ نجد هذين الصنفين في النوعين اللذين ذكرتهما آنفا معا ! أسمي موسيقى بريئة تلك التي لا تفكر إلا في نفسها، ولا تؤمن إلا بنفسها، والتي بسببها هي نسيت العالم، — الصدى التلقائي للوحدة العميقة، التي تحدث نفسها عن نفسها، ولا تعرف أن هناك في الخارج مستمعين يرهفون السمع لها، وآثارا، وسوء تفاهم وإخفاقات. — في التام أقول إن الموسيقى التي استمعنا لها قبل قليل هي من هذا النوع النبيل والنادر، وكل ما قلته عنها آنفا كان كذبا، — اغفروا لي خبثي، إن شئتم ! ب : آه ! أنتحب أنت أيضا هاته الموسيقى ؟ إذن سنغفر لك الكير من ذنوبك.

256

سعادة الخبثاء. — هؤلاء الرجال الصامتون، الذين يغلفهم الكدر والخبث، يتوفرون على شيء لا يمكنكم منازعتهم إياه، استمتاع نادر وفريد بالبطالة اللطيفة،

هدوء كهدوء الغسق والغروب، مثلما يعرفه وحده القلب الذي سبق أن افترسته الأهواء، ومزقته وسممته.

257

كلمات حاضرة في ذهننا. — نعرف كيف نعبر عن أفكارنا فقط بالكلمات التي هي تحت تصرفنا. أو بالأحرى، حتى أعبر عن كل شكوكي : لا تأتينا في كل لحظة إلا الفكرة التي لدينا في ذاكرتنا الكلمات التي تستطيع التعبير عنها بصورة تقريبية.

258

مجاملة الكلب. — يكفي أن نداعب وبر الكلب ليتأثر ويفتننا كم قد يفعل أي متملق آخر — وله طريقته الخاصة في أن يكون لطيفا. لم لا نتحمله إذن؟

259

المداح القديم. — «يلزم الصمت بشأني رغم أنه يعرف الحقيقة الآن ويستطيع قولها. ولكنها حينها ستبدو كما لو كانت انتقاما — وهذا الرجل الجدير بالتقدير يقدر الحقيقة عاليا!»

260

تميمة المستقلين. — الذي لا يستطيع بتاتا أن يستغني عن سيده يجب أن يتوفر على شيء يثير الخوف ويوجه السيد، كالنزاهة مثلا، أو الصراحة، أو اللسان السليط.

261

لماذا هذا السمو ! — تعرفون مع الأسف هاته السلالة الحيوانية ! صحيح أنها تعجب نفسها حين تمشي على رجلين «كإله»، — وكلن حين تعود للمشي على أربع تعجبني أنا أكثر : هذا أمر طبيعي لا مثيل له!

262

شيطان القوة. — ليست الحاجة إلى القوة، أو الرغبة فيها، هي شيطان الإنس، بل حب القوة. حتى وإن منحناهم كل شيء، الصحة، والغذاء، والسكن، والنفقة، — فسيظلون تعساء ومتقلبي الاطوار، لأن الشيطان لا يمل الانتظار، إنه يريد أن يتم إرضاؤه. إذا أخذنا منهم كل شيء وأرضينا شيطانهم فإنهم سيصبحون سعداء تقريبا، — سعداء كما قد يكون الناس والشياطين. ولكن لماذا أكرر هذا ؟ لقد قاله لوثر من قبل، وبأفضل مما أقوله، في هاته الأبيات : «لو أخذوا منا أجسادنا وما نملك، والشرف، والمرأة والولد : سندعهم يفعلون، — سيبقى لنا ملكوت الرب !» أجل ! أجل ! الـ«ملكوت»!

263

التناقض وقد أصبح جسدا وروحا. — هناك في ما نسميه العبقرية تناقضا فسلجيا. فمن — جهة تمتع العبقرية بكثير من الحركة الهمجية، غير المنظمة، وغير المقصودة، — وتتوفر إلى جانب ذلك على مرآة تظهر الحركتين الواحدة بجانب الأخرى، متشابكتين، وغالبا ما تظهرهما متعارضتين. ونتيجة ذلك هب أن العبقري غالبا ما يكون تعيسا، وإذا شعر بالسعادة نتيجة إبداعه فلأنه ينسى بأنه حين يقوم بأسمى عمل يمكنه القيام به فإنه يقوم بشيء خارق وأخرق (هكذا هو الفن كله) — وأنه يجب عليه أن يقوم به.

264

الرغبة في الخطأ. — الغيورون الفطنون لا يسعون لمعرفة خصمهم عن كثب، وذلك لكي يشعروا بأنهم متفوقون عليه.

265

للمسرح عصره. — حين ينحط خيال شعب ما يظهر لديه ميل لتشخيص أساطيره على خشبة المسرح، ويتحمل الأفظاظ الذين يخلون محل الخيال، — أما بالنسبة للعصر الذي كان فيه راوي الأساطير الملحمية، فالمسرح والممثل الهزلي المتنكرين في صورة الأبطال كانا يعوقان الخيال بدل أن يساعداه على التحليق: كانا قريبين جدا، ومحددين، وثقيلين، خاليين من الحلم أو مما يبعث على التحليق.

266

بلا رحمة. — لا يعرف الرحمة، ويعلم ذلك: كم يتقن إخفاء ذلك! بفضيلة صارمة، ونظرة جدية، وارتياب فطري في الناس والمخلوقات، وبمظاهر فظة، وباحتقاره لنوع راق من الحياة، بتعظيمه لنفسه وبتطلباته، بفلسفة ساخرة، — بل لقد عرف كيف يصبح إحدى الطباع الدائمة لما ينقصه.

267

لماذا هو شديد الإباء! — يتميز الطبع النبيل من الطبع الفظ بكونه لا يتوفر مثله على عدد من العادات ووجهات النظر: شاءت الصدفة ألا يرثها ولا يتلقاها عن طريق التربية.

268

من معضلة إلى أخرى. — كم كان صعبا في أثينا أن يحاول الخطيب كسب دعم الناس لقضية ما دون أن ينفرهم بسبب الشكل، أو دون أن يبعدهم عن القضية بسبب الشكل ! ما أصعب أن نكتب اليو م بنفس الطريقة في فرنسا.

269

المرضى والفن. — أول ما يجب أن نعالج به الكآبة وتعاسة الروح هو تغيير النظام الغذائي وممارسة عمل بدني شاق. ولكن ما يلجأ إليه الناس في مل هاته الحالات هو ما يجعلهم ينتشون : كالفن مثلا، — مسيئين لأنفسهم وللفن ! ألا ترون أنكم حين تلجأون للفن، وأنتم مرضى تجعلون الفن مريضا؟

270

تسامح ظاهري. — هاته كلمات طيبة، متسامحة ومتفهمة، بخصوص العلم ولصالح العلم، ولكنني أنظر إلى ما وراء تسامحكم مع العلم ! في زاوية من زوايا قلبكم تعتقدون أن العلم غير ضروري لكم، وأنه من الشهامة أن تقبلوا به بل وتدافعوا عنه، ما دام العلم ليس شهما بخصوص رأيكم ؟ هل تعلمون أنه لا يحق لكم بتاتا أن تكونوا متسامحين هكذا ؟ وأن هذا التسامح إهانة لشرف العلم أشد من الاحتقار الذي يكنه له أحد الكهنة أو أحد الفنانين المتهورين ؟ ينقصكم الوعي الدقيق بما هو صحيح وحقيقي، لا تقلقون أو تتعذبون إذ تجدون العلم مناقضا لمشاعركم، تتجاهلون الرغبة الشديدة في المعرفة التي تلتهب في دواخلكم كقانون، لا تشعرون أن الرغبة في التواجد بالعين في كل مكان «نعرفه» شيء واجب، وكذلك ألا ندع أي شيء «معروف» يفلت منا. إنكم تجهلون هذا الذي تتسامحون معه كثيرا ! وجهلكم به هو الذي يجعلكم تبدون متسامحين! أنتم، أنتم على الخصوص، سيشع في عيونكم الحقد والتطرف لو أن العلم أراد لمرة واحدة أن ينير وجوهكم بعينيه ! إننا لا نبالي بالتسامح الذي تبدونه — بخصوص العلم ! ولا بخصوصنا نحن! — وما أهميتنا نحن !

271

بهجة العيد. — أولئك الرجال الذين يطمحون بشدة للقوة هم الذين يشعرون بالسرور حين يتم إخضاعهم ! أن يغوصوا فجأة عميقا في إحساس ما كأنما يغوصون في دوامة ! ترك الأزمة تنتزع من أيديهم ليظلوا متفرجين على حدث لا يدرون إلى أين سيقودهم ! أيا يكن الشخص أو الشيء الذي يسدي لنا هاته الخدمة فهي خدمة كبيرة : نحن سعداء ومبهورون، ونشعر حولنا بصمت غير عادي، كأننا في قلب الأرض. أن نكون لمرة واحدة مجردين من أية قوة ! لعبة في يد القوى الأساسية ! نشعر في تلك السعادة بالراحة، بتخففنا من العبء الثقيل، وهبوطا غير متعب، كأنما ألقي بنا في جاذبية عمياء. حلم الإنسان هو الذي يرتقي الجبال، وبعد أن يجعل من القمة هدفه ينام في الطريق من فرط الإرهاق ويحلم بالسعادة المضادة — بالتدحرج بلا عناء إلى سفح الجبل. — أصف السعادة كما أتصوره في مجتمعنا الحالي، في أوربا وأمريكا، المنهك والمتعطش للقوة. هنا وهناك يريد الناس أن يعودوا للعجز، — الحروب، الفنون، الديانات، والعباقرة يوفرون لهم هاته المتعة. حين نستسلم لشعور مؤقت يلتهم كل شيء ويخنقه — وهي بهجة العيد الحديث ! — نشعر بعد ذلك بقدر أكبر من الحرية، والراحة، والبرد، والصرامة ونطمح حينها، بلا هوادة، لبلوغ العكس : القوة.

272

تطهير العرق. — من المحتمل ألا تكون هناك أعراق نقية، بل فقط أعراق تم تطهيرها، وهي نادرة. الأكثر شيوعا هي أعراق مختلطة نصادف لديها حتما، إلى جانب نقص الانسجام بين أطراف الجسد (مثلا حين لا يكون هناك انسجام بين العيون والفم)، نقصا في الانسجام في العادات وأحكام القيمة. (لقد علِم ليڤينستون ما يقال : «خلق الله البيض والسود، وخلق الشيطان الملوَّنين.») الأعراق المختلطة تنتج دائما أخلاقيات مختلطة، في نفس الوقت الذي تنتج فيه

قافات مختلطة : وغالبا ما تكون تلك الأخلاقيات أكثر خبثا، وقسوة، وقلقا. نقاوة العرق هي آخر ما نحصل عليه بعد عمليات لا حصر لها من التمثل، والإدماج والإبعاد، ويتجلى التطور نحو نقاوة العرق في اقتصار قوة عرق ما، أكثر فأكر، على القيام ببعض الوظائف المختارة، بينما كان عليها في السابق أن تقوم في الغالب الأعم بعد أشياء متناقضة : وهذا الاقتصار سينظر إليه دائما على أنه علامات افتقار ويجب التزام الحذر والاعتدال في الحكم عليه. وحين تتم عملية التطهير بنجاح تعود كل القوى التي كانت تضيع في الصراع ما بين الصفات غير المنسجمة لتضع نفسها تحت تصرف الجسم كله : وهذا هو سبب كون كل الأعراق التي تم تطهيرها تغدو أقوى وأجمل. يقدم لنا الإغريق نموذج عرق وثقافة تم تطهيرهما بهذا الشكل : نأمل أن يتم الوصول يوما إلى خلق عرق وثقافة أوربيين نقيين بشكل موفق.

273

الثناء. — تتنبه إلى أن شخصا ما يريد أن يثني عليك : تعض على شفتيك، ينقبض قلبك، مع الأسف ! لتتركك هاته الكأس وشأنك ! ولكنها لا تتركك، بل تدنو منك ! فلنشرب إذن كأس بذاءة لسان المادح العذبة، لنتغلب على الاشمئزاز والاحتقار الشديد اللذان يوحي بهما جوهر ثنائه، لتظهر على وجهنا ملامح فرحة الاعتراف بالجميل ! — أراد أن يكون لطيفا معنا ! الآن وقد حدث ذلك نعلم أنه يشعر بالابتهاج، لقد انتصر علينا، — وعلى نفسه هو كذلك، هذا الحيوان ! إذ لم يكن من السهل عليه أن ينتزع من نفسه ذلك الثناء.

274

حق الإنسان وامتيازه. — الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يستطيع حذف نفسه من الوجود، كما يحذف جملة غير موفقة، إذ لم يحالفه النجاح، — وهو يفعل ذلك حفاظا على شرف الإنسانية، أو رحمة بها، أو لاشمئزازه منها.

275

الإنسان وقد تحول. — ها قد أصبح فاضلا فقط لكي يسيء للآخرين. لا تنظروا إليه بإحراج!

276

غالبا ! ودون أن نتوقعه ! — كم من المتزوجين تنبهوا ذات صباح أن زوجتهم الشابة مملة عكس ما كانوا يتصورون ! حتى لا نقول شيئا عن تلك النساء القويات الأبدان الضعيفات العقول!

277

الفضائل الحارة والفضائل الباردة. — نستخدم كلمة الشجاعة للتعبير عن شجاعتين : الشجاعة كحزم بارد لا يتزحزح، وعن الشجاعة باعتبارها بسالة مندفعة ونصف عمياء ! أحمق من يتخيل أن الحرارة هي التي تضيف «الجودة» إلى الفضيلة، وأشد حمقا منه الذي يعزو إضافتها إلى البرودة ! لقد اعتبرت الإنسانية الشجاعة الباردة الدم أو المندفعة مفيدة، بل ونادرة حتى لا تجعلها تلمع ضمن جواهرها بلونين مختلفين.

278

الذاكرة المجاملة. — على صاحب المنصب العالي أن يجعل من ذاكرته ذاكرة مجامِلة، أي أن يحتفظ بكل شيء حسنٍ فعله الناس دون سواه : بذلك يضمن من جانبهِم تبعية لطيفة له. ويمكن للإنسان أن يتصرف مع نفسه كالتالي : توفره على ذاكرة مجامِلة أو لا هي النقطة الحاسمة في الحكم على الموقف الذي يتخذه من نفسه، ومنَ النبالة، والطيبة أو الريبة في ملاحظته لميوله ونواياه، وحتى من جودة ميوله ونواياه في نهاية المطاف.

279

في أي شيء نصبح فنانين. — الذي يتخذ من شخص ما صنمه يحاول أن يبرر سلوكه أمام نفسه بجعله منه مثلا أعلى؛ إنه يجعل من نفسه فنانا، بخصوص شخص صنمه، كي لا يعذبه ضميره. وإن عانى فإنه لا يعاني من جهله، بل من كذبه على نفسه بتصنعه للجهل. — ولا يمكن استنزاف البؤس والفرحة الداخليين لمثل هذا الإنسان — وكل الذين يهيمون حبا من هذا الطراز — بدلاء عادية. —

280

صبياني. — الذي يعيش كالصبيان — أي الذي لا يصارع لكسب لقمة العيش ولا يؤمن أن لأفعاله دلالة نهائية — يظل صبيانيا.

281

يريد «الأنا» أن يرى كل شيء. — يبدو أن الإنسان لا يقوم بالفعل إلا من أجل التملك: اللغات التي تعتبر كل ما يقوم به الإنسان يؤدي إلى تملكه لشيء ما تسمح لنا بهذا الافتراض («لقد تكلمت، وصارعت، وانتصرت»)، كل هذا يعني: أنا الآن أملك كلمتي، ومصارعتي، ونصري). يا لشراهة الإنسان! لا يريد أن يدع الماضي يفلت منه، يريد أن يحتفظ به هو كذلك!

282

خطر الجمال. — هاته امرأة جميلة وذكية؛ مع الأسف! كم كانت ستصبح أكثر ذكاء لو لم تكن جميلة!

283

طمأنينة البيت وطمأنينة النفس. — يرتبط مزاجنا المعتاد بالمزاج الذي نجعل محيطنا يحافظ عليه.

284

تقديم الخبر الجديد كما لو كان قديما. — كثير من الناس من يغتاظون حين نقدم لهم خبرا جديدا، يستشعرون التفوق الذي يعطيه ذلك الخبر لأول من يعرفه.

285

أين تنتهي «الأنا» ؟ — أغلب الناس يتولون حماية الشيء الذي يعرفونه، وكأن معرفتهم له تجعله ملكا لهم. حاجة الأنا للاستئثار بالأشياء لا حدود لها: يتكلم المسنون كما لو كان الزمان كله يمشي خلفهم وهم رأس ذلك الجسد الهائل، وهؤلاء النسوة يفتخرن بجمال أبنائهن، ولباسهن، وكلبهن، وطبيبهن، ومدينتهن، ولكنهن لا يجرؤن على قول «أنا كل هذا». —

286

حيوانات أليفة في البيوت. إنه لشيء مقزز هاته العواطف التي يبديها الناس تجاه النباتات والحيوانات، وهم الذين عملوا على إتلافها والقضاء عليها منذ البداية كما لو كانت أعداءهم اللدودين، وفي نهاية المطاف يريدون من ضحاياهم المنهكة والمحطمة تلك أن تبدي لهم مشاعر لطيفة ! أما هذا النوع من «الطبيعة» ينبغي على الإنسان أن يتحلى بالجدية، إن كان بالفعل إنسانا يفكر.

287

صديقان. — كانا صديقين، ولكنهما لم يعودا كذلك، لقد تخلص كل واحد منهما من صداقته، الأول لاعتقاده أنه لم يكن يحظى بالتقدير الذي يستحقه، والثاني لاعتقاده أنه كان يحظى باعتراف أكبر من اللازم — وقد كانا مخطئين في ذلك كلاهما ! — لم يكن أي واحد منهما يعرف نفسه بما فيه الكفاية.

288

كوميديا النبلاء. — الذين لا يوفقون في الألفة النبيلة والودية يحاولون جعل الناس يخمنون نبلهم من خلال ما يبدونه من تحفظ وصرامة وازدراء للألفة : كأنهم يخجلون من إظهار شعورهم بالثقة.

289

حيث لا يمكننا معارضة فضيلة ما. — حين يتحدث الجبناء في ما بينهم لا يكون من اللائق القدح في الشجاعة، فالذي يفعل ذلك يكون محط ازدراء الآخرين؛ والقساة يغضبون حين يتم القدح في الرحمة.

290

تبذير. — لدى سريعي الانفعال الذين لا يمكن توقع رد فعلهم لا يكون للكلمات والأفعال الأولى التي تصدر عنهم نفس معناها الحقيقي (فهي وليدة الظروف وتحاكي روح تلك الظروف)، وبمجرد ما يلفظون تلك الكلمات ويقومون بتلك الأفعال غالبا ما تتم التضحية بالكلمات والأفعال التي تليها، والتي تكون مطابقة لمعناها الحقيقي، للتخفيف من حدة سابقتها أو جعل الناس ينسونها.

291

زهو. — الزهر كبرياء متكلف ومتصنَّع ؛ ولكنه لا يستطيع ولا يريد أن يتظاهر بما تتفرد به الكبرياء أو يتصنعه، — بهذا يكون الزهو هو نفاق العجز عن التصنع، شيئا صعبا غالبا ما يفشل. لو سلمنا بأن المزهو فضح نفسه، وهو ما يحدث غالبا، فإن ثلاثة هموم تكون في انتظاره : نحقد عليه لأنه أراد أن يخدعنا، ولأنه أراد أن يبدو متفوقا علينا، — وفي الأخير نسخر منه لأنه فشل في كلتا الحالتين. لهذا ننصح بتفادي الزهو.

292

نوع من الجهل. — حين نسمع شخصا ما يتكلم فإنه يكفينا أحيانا أن نسمع طرقة نطقه لأحد الحروف (كحرف الراء مثلا) لتنتابنا الشكوك بخصوص صدق شعوره : فنحن لم نتعود على ذلك الحرف ويلزمنا أن نبذل جهدا لتكراره، — يبدو لنا «مفتعلا». هذا هو مجال الجهل الفاحش : وهو نفسه ما يحدث مع أسلوب كاتب له عادات تختلف عن عادات كل الناس. هو وحده من يشعر بأن ما يفعله طبيعي تماما، وربما يكون ما يعتبره «مفتعلا» — بمجرد أن يستسلم للموضة والذوق السليم — هو ما سيجعله يعجب الناس ويكسب ثقتهم.

293

معترف بالجميل. — إذا أضفنا ولو نزرا يسيرا إلى عرفاننا أو رحمتنا فإننا سنعاني بسببه كما نعاني بسبب رذيلة، ورغم الاستقلالية والإرادة التي نتوفر عليهما نبدأ في الشعور بتبكيت الضمير.

294

قديسون. — الرجال الشهوانيون هم الذين يتجنبون معاشرة النساء ويرغمون على تعذيب أجسادهم.

295

خدمة الناس بلطافة. — إحدى المهام الدقيقة في فن الخدمة هي القيام على خدمة صاحب طموح جامح لا يريد منا بتاتا، وهو الأناني في كل شيء، أن نعتبره أنانيا للغاية (فذلك جزء من طموحه)، يريد أن يتم فعل كل شيء وفق إرادته وما يمليه عليه مزاجه، ولكن بطريقة تجعله يبدو مضحيا بنفسه ولا يريد لنفسه أي شيء إلا نادرا.

296

المبارزة. — من مزاياي أنني أستطيع، كان يقول أحدهم، أن أجعل شخصا يبارزني حين أكون في أمس الحاج لذلك؛ لانني محاط برفاق لا تنقصهم الشجاعة. المبارزة هي الطريقة الوحيدة التي بقيت أمانا للانتحار بشرف، ومن المؤسف أنها طريقة ملتوية وغير مضمونة النتيجة.

297

مشؤوم. — نفسد ولا شك الشاب الذي نعلمه أن يقدر عاليا ذاك الذي يفكر مثله أكثر من الذي يفكر بطريقة مخالفة.

298

عبادة الأبطال والمتعصبون لها. — المتعصب للمثل الأعلى الذي من لحم ودم يكون في الغالب على صواب حين يجحد — ويكون مرعبا في جحوده: فهو يعرف ما يجحده مثلما يعرف نفسه، لأنه أتى منه، وهو هو عينه، ولأنه يخشى في قرارة نفسه أن يتم إرغامه على العودة إليه، يريد بطريقته في الجحود أن يجعل رجوعه إليه مستحيلا. ولكن بمجرد ما يؤكد يغمض عينيه قليلا ويشرع في نسبة الكمال لمثله الأعلى (وغالبا ما يفعل ذلك فقط ليجرح شعور الذين ظلوا في المنزل الذي غادره هو)؛ قد نسمي هذا الشكل من التأكيد تأكيدا فنيا، — ولكن فيه شيئا من الخداع. الذي يتخذ من شخص ما مثله الأعلى يرفعه عاليا جدا بحيث لا يعود يراه بوضوح، ها هو الآن يفسر من زاوية «مشرقة» ما لا يزال قادرا على رؤيته، أي أنه ينظر إلى تماثله، وخطوطه غير الغامضة، وغموضه. سيكون عليه، بما أنه يريد أن يقدس هذا المثل الأعلى الذي يرفرف بعيدا وفي الأعالي، أن يشيد له معبدا خاصا بعبادته ليحميه من تدنيس العامة له. وأن يجلب إليه كل الأشياء الجليلة والمقدسة لتي لا تزال في حوزته ليستفيد المثل الأعلى من سحرها، وتغذيه لينمو ويصبح ربانيا أكثر فأكثر. لقد تمكن في

الأخير من إتمام إلهه، ولكن الويل له ! فهناك من يعرف كيف تم ذلك، إنه وعيه الفكري، وهناك من بدأ يحتج لاشعوريا، إنه المؤله نفسه الذي أصبح لا يطاق، تحت تأثير التقديس، والمديح والبخور، وكشف، بكل وضوح وبطريقة فظيعة، عن لاألوهيته وعن مزاياه المفْرِطة في الإنسانية. لا يبقى أمام هذا المتعصب إلا منفذ واحد : يتحمل سوء المعَاملة، هو وأمثاله، ويعود من جديد لتفسير تلك التعاسة على أنها مجد كبير، بخداعه لنفسه والإقدام على كذب نبيل؛ يقف ضد نفسه ويشعر، وقد أسيئت معاملته بهذا الشكل وقام بتفسير تلك المعاملة القاسية، كأنه شهيد، — هكذا يصل إلى قمة زهوه. — عاش أناس من هذا الصنف وسط حاشية نابليون : أجل، ربما كان نابليون هو من بث في روح هذا القرن ذلك السجود المثير للخيال أمام «العبقري» و«البطل»، وهو شيء لم تكن تعرفه عقلانية القرن الماضي، هو الذي لم يخجل بايرون من أن يقول أمامه بأنه ليس سوى «دودة أمام ذلك الكائن». (وقد استخدم كارلايل تعابير عن هذا السجود، ذلك المدمدم المشوَّش والمدعي الذي قضى سحابة حياته في تحويل عقول الإنجليز إلى عقول رومانسية : دون جدوى!)

299

شجاعة ظاهرية. — قد يكون اقتحام المرء صفوف الأعداء علامة على جبنه.

300

رحيم بالمتملق. — آخر حكمة لدى الطموحين الشرهين هي ألا يظهروا احتقار الناس الذي تخلفه في أنفسهم رؤية المتملقين : بل أن يبدو رحيمين حتى بهؤلاء، كإله لا يملك إلا أن يكون رحيما.

301

«قوة الشخصية». — «ما أقوله أفعله» — يبدو أن طريقة التفكير هاته تنم عن قوة الشخصية. كم من أفعال لا نقوم بها، ليس لأننا اخترناها بسبب الجانب المعقول فيها، بل لأنه عندما فكرنا فيها هيجت فينا ، بهاته الطريقة أو تلك، الطموح والغرور بحيث نتوقف عندها حين نقوم بها بشكل أعمى. بذلك تزيد من إيماننا بقوة شخصيتنا وراحة ضميرنا، أي قوتنا إجمالا : بينما اختيار الأفعال المعقولة يجعلنا نشك في أنفسنا نوعا ما ونشعرُ بأننا ضعفاء.

302

صحيح مرة، ومرتان، وثلاثا. — يكذب الناس كثيرا، ولكنهم لا يفكرون في الأمر بعد ذلك ولا يؤمنون به عموما.

303

تسلية العارف بالناس. — يعتقد أنه يعرفني وأنه حاذق حين يتصرف بهاته الطريقة أو تلك في علاقته بي : أتجنب إخراجه من هذا الضلال. لأنه سيعتبر ذلك شرا وسيعاملني بالمثل، أما الآن فهو يريد لي الخير، لأنني أجعله يشعر بالتفوق. — وهذا آخر يخشى ألا أتذكر أنني أعرفه، وهو ما يجعله يشعر بالدونية. لذلك يتصرف معي بفظاظة وبشكل غير منطقي ويسعى لتضليلي بشأنه، — حتى يتفوق علي مرة أخرى.

304

مدمرو العالم. — هذا إنسان عجز عن إتمام شيء ما فجعل يصرخ وهو يستدير : «ليفن العالم !» هذا الإحساس القبيح هو أوج الغيرة التي تريد استنتاج ما يلي : إن لم أستطع الحصول على شيء واحد فلن يحصل العالم كله على شيء ! لا يجب للعالم كله أن يوجد !

305

البخل. — يزداد بخلنا كلما اشترينا شيئا زهيد الثمن، — لماذا ؟ هل لأن الفرق الضئيل في الثمن هو الذي يثير نظر البخل الخسيس؟

306

المثل الأعلى الإغريقي. — ما الذي كان في عوليس يثير إعجاب الإغريق؟ أولا قدرته على الكذب والرد بأعمال انتقامية مرعبة تدل على دهائه؛ ثم ارتفاعه على مستوى الظروف؛ والظهور، كلما اقتضى الأمر ذلك، أكثر نبلا من النبيل؛ معرفته كيف يكون كل ما يريد؛ وإصراره البطولي؛ وتوظيفه لكل الوسائل؛ النباهة — نباهة عوليس تثير إعجاب الآلهة، تبتسم حين تفكر فيها : — كل هذا يشكل المثل الأعلى عند الإغريق ! المثير في كل هذا هو أنهم لا يشعرون بتاتا بالتناقض بين المظهر والجوهر وبالتالي لا يولونه أية قيمة أخلاقية. هل عرف العالم قط كوميديين بارعين مثلهم؟

307

وقائع ! أجل وقائع خيالية ! — ليس من واجب المؤرخ أن يهتم بالأحداث كما جرت في الواقع، بل فقط كما يفترض أن تكون قد حدثت : فهذا هو ما جعلها تحدث التأثير الذي أحدثته. كما أنه لا يتعامل إلا مع أبطال مفترضين. ماذا يكون موضوعه، أي ما نسميه التاريخ العالمي، إن لم يكن آراء مفترضة حول أعمال مفترضة نتجت عنها بدورها آراء وأعمال تبخرت حقيقتها على الفور ولم تعد تعمل إلا كبخار، — أنه تناسل مستمر لأشباح في السحب البعيدة التي هي سحب الحقيقة المنيعة. كل المؤرخين يحكون عن أشياء لم تقع، أو تم تصورها فقط.

308

عدم إتقان التجارة تميز. — ألا يبيع الأستاذ، أو الموظف أو الفنان فضيلته إلا بأعلى سعر، أو أن يبيعها بفائدة ربوية — هو ما يجعل من الموهبة أو العبقرية مسألة تخص البقال. احرسوا على ألا تكونوا ماهرين مع حكمتكم !

309

الخوف والحب. — تقدمت معرفتنا العامة للناس بفعل الخوف أكثر منه بفعل الحب، لأن الخوف يريد أن يخمن من يكون الآخر، وما يعرفه، وماذا يريد : إذا أخطأنا قد نجعل أنفسنا في خطر أو نلحق بها ضررا. أما الحب فيميل لأن يرى في الآخر أجمل الأشياء، أو إلى السمو به قدر ما يستطيع : وإذا أخطأ فسيشعر بالسرور ويرى في ذلك امتيازا، — لذلك يخطئ عن قصد.

310

الحليمون. — اكتسب الحليمون طبعهم هذا من الخوف الدائم الذي زرعه المعتدون الأجانب في قلوب أسلافهم، — كانوا يلطفون، ويهدؤون، ويطلبون الصفح، ويحَذرون، ويسَلون، ويتملقون، ويتذللون، ويكتمون الألم والغيظ، ويُملسون قسمات وجوههم — وقد انتقل هذا العمل الآلي، الدقيق والمتوافق، إلى أبنائهم وأحفادهم. وإن كان لهؤلاء مصير مناسب فإنه لن يجعلهم عرضة للخوف الدائم : ومع ذلك فهم لا يفتأون يعزفونها على آلتهم الموسيقية.

311

ما نسميه الروح. — الحركات الداخلية التي يقوم بها الإنسان بسهولة، وبالتالي يقوم بها برضا وعن طيب خاطر، مجموع هاته الحركات يسمونه الروح؛ — يعتبر الإنسان بلا روح حين يظهر أنه يشق عليه القيام بهاته الحركات الداخلية.

312

كثيرو النسيان. — في تفجر الغضب وفي الهذيان أثناء الحلم والجنون يتعرف الإنسان على تاريخه البدائيي وتاريخ الإنسانية : الحيوانية وتكشيراتها المتوحشة ؛ آنذاك تعود به الذاكرة بعيدا إلى الوراء، وفي مقابل ذلك تطور تحضره بفضل نسيانه لتلك التجارب الاصلية، أي بفضل تكاسل هاته الذاكرة. والمنتمي لسلالة راقية من كثيري النسيان الذي ظل بعيدا عن مثل هاته الأشياء لا يفهم الناس، — وإنها لميزة أن يكون هناك، من حين لآخر، أفراد «لا يفهمونهم»، أفراد أصلهم نطفة ربانية وأنجبهم العقل.

313

الصديق الذي لم نعد نرغب فيه. — نتمنى أن يتحول إلى عدو لنا ذلك الصديق الذي لا نستطيع أن نحقق له كل ما يرتجيه منا.

314

صحبة المفكرين. — وسط بحر الصيرورة نستيقظ على جزيرة أصغر من سلة منطاد، نحن المغامرون والطيور المهاجرة، وهناك ننظر حولنا برهة من الزمن : بأسرع ما يمكن وبكل الفضول الممكن، فقد تهب علينا ريح في أية لحظة وتطردنا من هناك، أو تبتلعنا موجة فتمحو أثرنا من على تلك الجزيرة ! وفي هذا الفضاء الضيق نلتقي طيورا مهاجرة أخرى ونسمع عن طيور أقدم منها، — وهكذا نعيش لحظة عذبة من المعرفة والتخمين، نزقزق جميعا وأجنحتنا ترفرف، بينما عقلنا يتسكع فوق المحيط، وهو لا يقل فخرا عن المحيط نفسه !

315

السخاء. — إعطاء شيء مما نملك، والتخلي عنه لغيرنا — هذا شيء يسعدنا حين يكون دلالة على ثراء كبير. السخاء من هذا الطراز.

316

الطوائف الضعيفة. — الطوائف التي تشعر أنها ستظل قليلة العدد تسعى لاستقطاب أعضاء أذكياء، تريد أن تعوض بالكيف النقص الذي تعاني منه في الكم. يشكل هذا خطرا لا يستهان به على الذكاء.

317

حكم المساء. — الذي يفكر في المهمة التي كان عليه إنجازها خلال يومه أو طيلة حياته، عند بلوغه النهاية وشعوره بالتعب، غالبا ما تكون ملاحظاته سوداوية : ولا يجب أن نلوم اليوم أو الحياة بسبب ذلك، بل التعب هو الملوم. — حين نكون منهمكين في عملنا الخصيب غالبا ما لا نجد الوقت الكافي للحكم على الحياة أو الوجود، كما لا نفعل ذلك إبان الاستمتاع : وإن حدث عرضا أن توقفنا رغم كل شيء فإننا لا نحكم بأن الذي انتظر اليوم السابع والاستراحة ليرى بأن كل ما أنجزه جيد على صواب، — لقد فاتته اللحظة الأفضل.

318

احذروا النظاميين. — هذه كوميديا النظاميين : يريدون أن يملأوا نظاما ما ويجعلوا الأفق حوله مستديرا، لذلك عليهم أن يحاولوا تقديم مزاياهم الضعيفة بنفس الأسلوب الذي يقدمون به مزاياهم القوية، — يريدون أن يظهروا أن لهم قوة تامة لا تفاوت فيها.

319

كرم الضيافة. — المعنى الذي يجب أن نعطيه لكرم الضيافة هو القضاء على العداوة عند الغريب؛ بمجرد ما يكف المرء عن الشعور بأن هناك في بيته عدوا يقل ميله لإكرام الضيف؛ يزدهر كرم الضيافة كلما كثرت الافتراضات السيئة.

320

خطورة البراءة. — الأبرياء يكونون دائما ضحايا، بما أن براءتهم لا تمكنهم من التفريق بين الاعتدال والمبالغة، وأن يأخذوا حذرهم من أنفسهم في الوقت المرغوب. وهكذا تعود الزوجات الشابات البريئات، أي الجاهلات، على المتعة الشهوانية المتكررة ، ولاحقا تقل فترات الحصول على هاته المتعة، حين يمرض أزواجهن أو يشيخون قبل الأوان ؛ فاعتقادهن أن المضاجعة المتكررة هي القاعدة ومن حقهن الحصول عليها يخلق لديهن حاجة تجعلهن فيما بعد عرضة لإغراءات شديدة ولأسوأ من ذلك. ولكي ننظر إلى الأمر من زاوية أعم وأسمى نقول : الذي يحب إنسانا أو شيئا ما، دون أن يعرفه، يصبح هدفا لشيء لن يحبه لو استطاع أن يراه. حيثما تكون التجربة، والحذر والإجراءات الاحترازية ضرورية يعاني البريء معاناة شديدة، إذ يكون عليه أن يشرب ثمالة شيء ما والسم الخفي فيه. لننظر إلى الإجراءات التي يقوم بها كل الأمراء، والكنائس، والطوائف، والأحزاب، وجمعيات الحرفيين : ألا يستخدمون كلهم البريء كطعم في كل الحالات الشائكة والتي تحط من قدر الإنسان ؟ — كاستخدام عوليس للبريء نيوبتولمين لسرقة قوس وسهام ناسك ليمنوس العجوز والمريض. — لقد جعلت المسيحية من الجهل فضيلة بازدرائها للعالم، ربما لأن نتيجة هاته البراءة تكون، مثلما أشرت إليه آنفا، هي الإثم، والإحساس بالذنب، واليأس، أي فضيلة تؤدي إلى الجنة مرورا بالجحيم : لأن المداخل المعتمة للخلاص المسيحي وحدها هي التي يمكن أن تنفتح، والآن يفعل فعله الوعد ببراءة ثانية تكون بعد الموت : — إنها واحدة من أجمل ابتكارات المسيحية !

321

أحوال الطقس. — الطقس غير العادي والمتقلب يجعل الناس يرتابون في بعضهم البعض؛ يصبحون متعطشين للابتكار، إذ عليهم أن يغيروا عاداتهم. لهذا يحب الطغاة البلدان التي يكون فيها الطقس أخلاقيا.

322

أن نحيا دون طبيب ما أمكن. — يبدو لي أن المريض يحيا مستخفا بالحياة حين يكون له طبيب أكثر مما يفعل حين يعتني هو نفسه بصحته. في الحالة الأولى يكفينا أن نلتزم بدقة بكل ما وصفه لنا الطبيب؛ وفي الحالة الثانية نلاحظ بوعي أكبر الشيء الذي تريد تلك الوصفات أن تحافظ عليه، أقصد صحتنا، نلاحظ أمورا أكثر، نصف لأنفسنا ونمنع عنها أكثر مما قد يفعله الطبيب عند تدخله. — كل القواعد لها هذا التأثير: تصرفنا عن الهدف الذي ترمي إليه القاعدة وتجعلنا أقل اكتراثا. ولو أن الإنسانية سلمت كل شيء، كلية وبصدق، للرب، طبيبها، طبقا للمبدأ القائل «وفق مشيئة الرب»، لبلغ عدم اكتراثها حد الاندفاع والتدمير.

323

إظلام السماء. — هل تعرفون انتقام الخجولين الذين يتصرفون بين الناس كمن سرقوا أعضاء أجسادهم؟ انتقام المتواضعين، على الطريقة المسيحية، الذين يتسللون خلسة في كل مكان على الارض؟ انتقام الذين يصدرون الحكم دائما على الفور، ودائما على الفور يتوصلون بالتكذيب؟ انتقام السكارى من كل صنف الذين يعتبرون الصباح أشأم وقت في اليوم؟ وانتقام ذوي العاهات من كل صنف، والمرضى وخائري العزم الذين لم يعودوا يريدون الشفاء؟ عدد هؤلاء العوام المتعطشين للانتقام، وبالأحرى عدد أعمالهم الانتقامية أكبر من أن يحصى؛ سهام خبثهم تملأ الأجواء باستمرار إلى درجة أن الشمس احتجبت والسماء أظلمت — ليس فقط بالنسب لهم، بل بالنسبة لنا، وللآخرين كذلك: وهو أمر أشد علينا مما لو جلفوا جلودنا وقلوبنا. ألسنا نجحد الشمس والسماء أحيانا لمجرد كوننا لم نرهما منذ أمد طويل؟ — إذن: الوحدة! الوحدة بسبب هذا!

324

فلسفة الكوميديين. — الوهم الذي يجعل الممثلين الهزليين الكبار سعداء هو اعتقادهم أن الشخصيات التاريخية التي يمثلون أدوارها كانت حالتهم المعنوية

مثل حالتهم هم وقت أدائهم لأدوارهم؛ — ولكنهم مخطئون في ذلك أيما خطأ : فقوتهم في المحاكاة والتكهن التي يريدونها قوة مستبصرة تنفذ فقط إلى مسافة تكفي لتفسير الحركات، والنبرات، والنظرات، وكل ما هو خارجي على العموم؛ وهو ما يعني أنهم يدركون ظل روح بطل عظيم، أو رجل دولة، أو محارب، او رجل طموح، أو حسود، أو يائس، ينفذون إلى تخوم الروح، ولكنهم لا ينفذون إلى عقل الذي يمثلون دوره. سيكون ذلك اكتشافا كبيرا لو أن الممثل الهزلي المستبصر يكفي، بدل المفكر، والعارف، والمتخصص، لتسليط الضوء على حالة معنوية ما ! يجب ألا ننسى أبدا، كلما سمعنا الحديث عن مثل هاته المزاعم، بأن الممثل الهزلي ما هو إلا قرد مثالي شديد القردية بحيث لا يستطيع حتى الإيمان ب«الجوهر» وب«الاساسي» : يتحول كل شيء في نظره إلى لعب، واداء، وموقف، ومشهد، وكواليس وجمهور.

325

أن نحيا ونؤمن على الهامش. — لا زالت الوسيلة التي بها يصبح المرء نبي عصره وصانع معجزاته كما كانت في الماضي لم تتغير : عليه أن يعيش على الهامش، بقليل من المعرفة، بعض الأفكار والكثير من الزهو، — وفي الأخير سيشعر بأن الإنسانية لا يمكنها الاستغناء عنه لأنه من الواضح جدا أنه يستطيع الاستغناء عنها. بمجرد ما يصبح هذا الشعور قويا لديه يحظى بتصديق الناس له. في الأخير أوجه نصيحة لمن قد يحتاج إليها (تلقاها ويسلي من شيخه الروحي بوهلر) : «ادع إلى الإيمان حتى تجده، عندها ستدعو إليه لأنك تملكه !»

326

معرفة الظروف. — نستطيع تقييم قوانا، لا قوتنا. لا تقوم الظروف فقط بكشفها لنا ثم إخفائها عنا بالتناوب، بل تزيد من حجمها كذلك أو تنقص منه. يجب أن نعد أنفسنا عظمة متغيرة قد تبلغ قدرتها الإنتاجية أسمى ما يمكن بلوغه إذا كانت الظروف ملائمة : علينا إذن أن نفكر في الظروف ونتحمس كثيرا لمراقبتها.

327

حكاية. — لم يكتشف أي فيلسوف أو شاعر دونجوان المعرفة حتى الآن. لا يحب الأشياء التي يكتشفها، ولكنه يتمتع بالعقل والشهوة ويستمتع بمطاردة المعرفة والكيد لها — تلك المعرفة التي يتبعها إلى أعلى وأبعد نقطة في السماء ! إلى أن لا يبقى له ما يطارده عدا ذلك الشيء المؤلم في المعرفة، كالسكير الذي ينتهي بشرب الافسنتين وماء النار. لذلك ينتهي به المطاف إلى اشتهاء الجحيم، — إنها آخر معرفة تغويه. ربما يخيب أملها هي الأخرى ككل ما سبق وأن عرفه ! سيكون عليه إذن أن يتوقف أمدا طويلا، متسمرا بسبب الخيبة كتمثال من حجر، آملا أن يتعشى بالمعرفة، عشاء لن يحظى به أبدا ! — لأن عالم الأشياء برمته لن يجد لقمة يطعمها هذا الجائع.

328

ما نخمنه من النظريات المثالية. — نجد النظريات المثالية بكل تأكيد لدى الناس العمليين ؛ لأنهم يحتاجون إشعاع هاته النظريات من أجل سمعتهم. يستحوذون عليها فطريا دون أن يشعروا بأدنى قدر من الرياء : تماما كما لا يشعر الإنجليزي بالرياء بسبب مسيحيته وتقديسه ليوم الأحد. وبالعكس : التأمليون الذين يجب أن يحترسوا ضد الارتجال بمختلف أشكاله ويخشون أن يعرفوا بالتحمس يكتفون بالنظريات الواقعية المتصلبة : يستولون عليها بنفس الضرورة الغريزية دون أن يفقدوا بذلك صدقهم.

329

المفترون على المرح. — الذين سبق أن أصابتهم الحياة بجرح عميق يثيرون الشك في المرح كله، وكأن المرح يكون دائما طفوليا وساذجا، وتكشف عن غباوة مثيرة للشفقة والعطف، كالإحساس الذي ينتابنا حين نرى طفلا مشرفا على الموت يداعب لعبه فوق السرير. مثل هؤلاء الرجال يرون تحت كل الورود قبورا مخفية؛

تبدو لهم المسرات، والضجيج، والموسيقى المرحة كأوهام يقبل عليها طوعا رجل مصاب بمرض خطير ويريد أن يستمتع، للحظة واحدة، بنشوة الحياة. وما هذا الحكم على المرح إلا انعكاس هذا المرح على الخلفية القاتمة للتعب والمرض: هو كذلك شيء مؤثر وغبي ويثير الشفقة، شيء طفولي، وساذج حتى، ولكنه ينبع من تلك الثقة الثانية التي تأتي بعد الشيخوخة وتسبق الموت.

330

ليس كفاية بعد. — لا يكفي أن نبرهن على شيء ما، يجب أن نحمل الناس على القيام به أو أن نسمو بهم إليه. لهذا يجب على المدرَّب أن يتعلم كيف يقول حكمته: وغالبا بطريقة تجعلها تبدو جنونا!

331

الحق والحد. — الزهد هو الطريقة الحقيقية التي يفكر بها الذين يجبي عليهم أن يقضوا على غرائزهم الشهوانية، لأن هاته الغرائز حيوانات ضارية. ولكن بالنسبة لهؤلاء فقط.

332

الحشو في الأسلوب. — الفنان الذي لا يستطيع التعبير عن أسمى مشاعره من خلال عمل فني، ليتخفف منها بذلك، ويريد على العكس أن يعبر عن إحساسه بالسمو يصبح متورما ويصبح أسلوبه كله حشو.

333

«إنسانية». — لا نعتبر الحيوانات كائنات أخلاقية. وهل تعتقدون أن الحيوانات تعتبرنا كائنات أخلاقية؟ — قال حيوان يعرف الكلام: «الإنسانية حكم مسبق لا نعاني منه نحن الحيوانات على الأقل.»

334

الإنسان الخير. — يلبي الإنسان الخير حاجة عقلية لديه بفعله للخير. وكلما كانت هاته الرغبة قوية كلما قل وضعه لنفسه مكان الذي يحتاج لمساعدته، أي الذي يمكنه من تلبي هاته الحاجة؛ يصبح قاسيا بل وجارحا في بعض الحالات. (الإحسان والتصدق عند اليهود معروفين بكونهما أعنف قليلا منهما لدى غيرهم من الشعوب.)

335

لكي نعتبر الحب حبا. — نحتاج لأن نكون صرحاء مع أنفسنا ولنعرفها جيدا لنستطيع من أن نظهر للآخرين ذلك التصنع الرفيق الذي نسميه الحب والطيبة.

336

ما الذي تستطيعه؟ — أزعج أحد الأبناء الأشرار وغير المهذبين أباه وأغضبه طيلة اليوم، فقتله عند المساء وقال لباقي أفراد الأسرة وهو يتنهد تنهيدة الخلاص: «أخيرا سننام في هدوء!» هل نعلم ما قد تدفعنا إليه الظروف!

337

«طبيعي». — أن نكون طبيعيين، على الأقل في عيوبنا، — ربما يكون هذا آخر كلمة ثناء نقولها في حق فنان متكلف، كوميدي وغير طبيعي في كل شيء. هذا هو ما سيجعله يطلق العنان بوقاحة لعيوبه.

338

ضمير البدل. — قد يكون هذا الإنسان ضمير ذاك، ويكون هذا بالغ الأهمية حين لا يكون الثاني بلا ضمير.

339

تحول الواجبات. — حين لا تعود الواجبات صعبة الإنجاز، حين تتحول بعد تمرين طويل إلى أذواق لطيفة وحاجيات، فإن حقوق الآخرين، التي ترتبط بها واجباتنا، والتي أصبحت هي أذواقنا، تصبح شيئا آخر: أقصد أنها تصبح فرصة نشعر خلالها بمشاعر لطيفة. ومنذ تلك اللحظة يصبح «الآخر»، بفضل حقوقه، جديرا بأن نحبه (عوض أن يكون مبجلا أو مرعبا، كما كان من قبل). نبحث عما يرضينا الآن وقد تعرفنا على مجال قوته ونعمل على المحافظة عليه. حين لم يعد أتباع مذهب الطمأنينة يشعرون بضغط المسيحية ولم يجدوا في الرب إلا الفرحة أصبح شعارهم هو: «كل شيء لمجد للرب!» ومهما يكن ما فعلوه في هذا الاتجاه فغنه لم يكن قربانا؛ وهو ما يعني: «كل شيء لأجل متعتنا!» المطالبة بأن يكون الواجب صعبا شيئا ما، كما يفعل كانط، هي مطالبة بألا يدخل أبدا ضمن التقاليد والعادات: تحمل هاته المطالبة في ثناياها بقية ضئيلة من القسوة الزهدية.

340

البداهة تقف ضد المؤرخ. — كون الأطفال يخرجون من بطون أمهاتهم شيء مبرهن عليه جيدا: ولكن الأطفال كبار المتواجدين قرب أمهم يجعلون هاته الفرضية تبدو غير معقولة: تقف البداهة ضدها.

341

مزية الجهل. — قال أحدهم بأنه كان في طفولته يحتقر النزوات والدلال التي تميز الطبع السوداوي بشكل جعله يجهل طبعه إلى حدود متصف عمره: وقد كان هو الطبع السوداوي. وقد صرح بأن ذلك هو أفضل ممكن على الإطلاق.

342

لا تخلطوا. — أجل! إنه يقلب الشيء من كل وجوهه فتظنون أنه باحث حقيقي عن المعرفة. ولكنه يريد فقط أن يخفض ثمنها — يريد شراءها!

343

أخلاقية مزعومة. ــ تريدون ألا تستاؤوا من أنفسكم أبدا، ألا تعانوا منها أبدا، ــ وتسمون هذا ميلكم الأخلاقي ! حسنا ! سيقول أحدهم أن ثمة جبنكم. الشيء الأكيد هو أنكم لن تقوموا أبدا برحلة حول العالم (الذي هو أنتم) وستظلون صدفة في حد ذاتكم، قطعة مدر على مدر. هل تعتقدون أن الجنون هو الذي يدفعنا نحن المخالفين لكم في الرأي إلى السفر عبر صحارينا، ومستنقعاتنا وقممنا الجليدية، وبأننا قد اخترنا طواعية الالام والاشمئزاز كالزهاد المقيمين على عمود؟

344

لطافة في الخطأ. ــ إذا كان هوميروس قد خلد للراحة أحيانا، كما يقال، فقد كان أحكم من كل الفنانين الطموحين الذين لا يتوقفون. يجب أن نسمح للمعجبين باسترجاع انفاسهم بتحويلهم من حين لآخر إلى رقباء؛ فلا أحد يطيق طيبة مستمرة، ومتالقة ويقظة؛ وعوض أن يكون أستاذ من هذا النوع محسنا يصبح فظا نبغضه حين يمشي أمامنا.

345

ليست سعادتنا حجة لصالح أو ضد. ــ كثير من الناس من لا يقدر إلا على سعادة ضئيلة : ولا يعتبر عجز حكمتهم عن منحهم قدرا أكبر من السعادة حجة ضدها، كما لا تعتبر استحالة شفاء بعض الناس ومعاناة بعضهم من أمراض مزمنة حجة ضد الطب. حتى ولو تمكن كل واحد من العثور على تصور للوجود يسمح له بالحصول على أكبر قدر من السعادة فإن حياته ستظل مثيرة للشفقة ولا يحسده عليها أحد.

346

أعداء النساء. ــ «المرأة عدونا» ــ الذي يحدث الرجال بهاته الطريقة، باعتباره رجلا، ينطق بلسان الغريزة غير المروضة فيه، والتي لا تكره نفسها فقط بل وسائلها أيضا.

347

مدرسة الخطيب. – الذي يصمت عاما كاملا ينسى الثرثرة ويتعلم الكلام. كان الڤيتاغوريون أفضل رجال الدولة في عصرهم.

348

الإحساس بالقوة. – لا بد من التمييز بين أمرين: الذي يريد اكتساب الإحساس بالقوة يستخدم لأجل ذلك كل الوسائل ولا يحتقر كل ما قد يغذي هذا الإحساس. أما الذي يملك هذا الإحساس – فيصبح متطلبا ونبيلا في ذوقه؛ ويندر أن نجد شيئا يرضيه.

349

ليس مهما إلى هذا الحد. – في كل مرة نحضر فيها وفاة شخص ما تراودنا فكرة كوننا نختنق من جراء إحساس زائف باللياقة: نشعر بأن فعل الوفاة أقل أهمية مما يدعيه الإجلال التقليدي الذي تحظى به، وبأن المحتضر ربما فقد في حياته أشياء أهم مما سيفقده بعد قليل. ليست النهاية هنا هي الهدف.

350

كيف نعد بالأفضل. – حين نقطع وعدا فإن الذي يعد ليست هي الكلام إنما ما هو مسكوت عنه وراء الكلام. تضعف الكلمات وعدا باستنزاف جزء من القوة التي تعد وإفراغها من حمولتها. ساعدوا الناس إذن وأنتم تضعون أصبعا على أفواهكم، – بذلك تكون أمنياتكم أكيدة.

351

نجهله عموما. – نلاحظ أثناء الحديث أن الواحد يجتهد نصب الفخ هناك حيث يقفز الآخر، ليس بدافع الخبث، كما قد يظن الناس، بل بدافع المتعة التي

يجدها في دِقته؛ وآخرون يعدون النكتة ليصنع أحدهم الأنشوطة أو يهيئون الحلقة ليصنعها عند جر هاته الحلقة : ليس بدافع العطف، كما قد يظن الناس، بل بدافع الخبث والاحتقار للذكاء العامي.

352

المركز. — يكون هذا الإحساس : «أنا مركز العالم!» كثيفا عندنا حين يرهقنا الخجل فجأة؛ آنذاك نشعر بالذهول وسط مكسرات الأمواج ونشعر وكأن بصرنا أغشي عليه بسبب عين هائلة تنظر إلينا من كل مكان، ترمقنا وتنفذ إلى دواخلنا.

353

حرية خطابية. — «يجب أن نقول الحقيقة، حتى ولو أدى ذلك إلى تحطيم العالم!» — هكذا يصيح فيخت بأعلى صوته! — حسنا! ولكن يجب قبل ذلك أن نمتلك هاته الحقيقة! — ولكنه يزعم أنه يجب على كل واحد أن يعبر عن رأيه، حتى وإن أدى ذلك إلى — قلب كل شيء رأسا على عقب. يبدو لي هذا شيئا قابلا للنقاش.

354

الشجاعة في المعاناة. — تسمح لنا بنيتنا الحالية بتحمل قدر معين من الانزعاج، ومعدتنا قد ألفت هذا النوع من الأغذية العسيرة الهضم. ولو غابت عنا لربما وجدنا مأدبة الحياة بلا طعم : ولولا رغبتنا في المعاناة لأجبرنا على ترك الكثير من المسرات تفلت منا.

355

معجَب. — الذي يبدي إعجابه إلى حد صلب الذي ل يبدي إعجابه يعد من بين جلادي حزبه، — نحذر أن نضع يدنا في يده حتى وإن كنا من حزبه.

356

أثر السعادة. — أول أثر تخلفه السعادة هو الإحساس بالقوة : إحساس نريد إظهاره، لغيرنا، أو لأنفسنا، أو لتمثلات وكائنات وهمية. والطرق المألوفة في إظهاره هي : تقديم الهدايا، السخرية، التدمير، كل هذا ينبع من غريزة أساسية مشتركة.

357

نعرات أخلاقية. — الأخلاقيون الذين لا يعرفون حب المعرفة ولا يعرفون إلا متعة الإيذاء — هؤلاء الأخلاقيون لهم عقل المدن الصغيرة ومللها؛ يجد أحدهم لذة قاسية ومثيرة للشفقة في مراقبة أصابع جاره ومباغتته بتقديم إبرة له بشكل يجعله تخزه. لقد ظل فيهم شيء من خبث الأطفال الصغار الذين لا يستطيعون تسلية أنفسهم دون وطاردة كائن حي أو ميت وإيذائه.

358

أسباب غير وجيهة. — تبغض هذا الشخص وتقدم أسبابا كثيرة تبرر بغضك له، — ولكنني أصدق بغضك ولا أصدق أسبابك ! إنك تضخم الأمور أمامي حين تقدم لنفسك ولي ما يحدث غريزيا على أنه استنباط منطقي.

359

الموافقة على شيء ما. — نوافق على الزواج، أولا لأننا لا نعرفه بعد، وثانيا لأننا تعودنا عليه، وثالثا لأننا عقدناه، — أي أن الأمر كذلك في جميع الحالات تقريبا. ومع ذلك فهذا لا يبرهن على أي شيء لصالح قيمة الزواج.

360

منافع. — «القوة التي يقال عنها الكثير من السوء أفضل من العجز الذي لا يجلب إلا خيرا»، — هذا ما كان يشعر به الإغريق. وهو ما يعني أنهم كانوا يعتبرون الإحساس بالقوة أسمى من أية منفعة أو صيت حسن.

361

الظهور بمظهر القبح. — يرى الاعتدال نفسه جميلا؛ وماذا عساها أن تفعل إذا كان غير المعتدلين يرونها فظة وعديمة الطعم، وبالتالي قبيحة.

362

مختلفون في البغض. — لا يبدأ بعض الناس في البغض إلا عندما يشعرون بالضعف والضجر؛ وإلا فهم عادلون وسامون. وآخرون لا يبدأون في البغض إلا حين تلوح لهم إمكانية الانتقام: وإلا فلا يبدون أي غضب لا في أنفسهم ولا أمام الملأ، ويصرفون النظر كلما سنحت لهم الفرصة.

363

رجال الصدفة. — في كل ابتكار يكون للصدفة الحظ الأوفر، ولكن أغلب الناس لا يصادفون هاته الصدفة.

364

اختيار المحيط. — لنحترس من أن نعيش في محيط لا يمكننا فيه أن نصمت كما ينبغي ولا أن نعبر عن أفكارنا السامية، بحيث لا يبقى لنا ما نتحدث عنه سوى شكاوانا وحاجياتنا وحكاية تعاستنا. هكذا نصبح مستائين من أنفسنا ومن هذا

المحيط، ونضيف للتعاسة التي تدفع إلى الشكوى الغيظ الذي ينتج عن وجودنا في وضع الإنسان الذي يشتكي. يجب على العكس أن نعيش هناك حيث لا نخجل من الحديث عن أنفسنا وحيث لا نحتاج لذلك. ولكن من يفكر في مثل هاته الامور، أو في اختيار محيطه ! يتحدث المرء عن «قدره»، يخضع ويتنهد قائلا : «يا لي من أطلس تعيس!»

365

غرور. — الغرور هو الخوف من الظهور بمظهر أصيل، هو إذن غياب الكبرياء، ولكنه ليس بالضرورة غيابا للأصالة.

366

تعاسة المجرم. — المجرم الذي تم اكتشاف جريمته لا يعاني من جريمته، وإنما من الخجل والغيظ الناجمين عن الحماقة التي ارتكبها، أو من حرمانه من عنصر ألفه، ويجب أن يكون المرء دقيقا بشكل نادر ليتمكن من التمييز في هاته الحالة. كل الذين عملوا في السجون أو في الإصلاحيات يندهشون من كونهم نادرا ما يصادفون مجرمين يعبرون عن «ندمهم» بشكل لا لبس فيه : وإنما فقط من يحنون إلى تلك الجريمة القبيحة التي ارتكبوها والتي يهيمون بها.

367

إظهار السعادة دائما. — حين كانت الفلسفة موضوع منافسة عمومية، في اليونان إبان القرن الثالث، كان هناك عدد من الفلاسفة الذين يشعرون بالسعادة من جراء الفكرة المبطنة حول الغيظ الذي قد تسببه سعادتهم للذين يعيشون وفق مبادئ أخرى يجدون فيها عذابهم : كانوا يعتقدون أن السعادة ستمكنهم أفضل من أي شي آخر من دحض تلك المبادئ ويظنون أنه يكفيهم، لتحقيق هذا الهدف، أن يظهروا السعادة على الدوام، وسيؤدي بهم ذلك، مع مرور الزمن، لأن يصبحوا سعداء فعلا ! ذلك كان مصير الكلبيين مثلا.

368

سبب جهل الآخرين لنا. — أخلاقية القوة العصبية التي تمضي في تزايد تكون مرحة ومضطربة؛ وأخلاقية القوة العصبية التي تتناقص، عند المساء أو عند المسنين، تدفع بصاحبها للسلبية، والهدوء، للانتظار والسوداوية، بل إلى أفكار سوداء أحيانا. والذي يمتلك إحدى هاتين الأخلاقيتين لا يعرف التي تنقصه وإذا رآها عند الآخرين اعتبرها لاأخلاقية أو ضعفا.

369

للتعالي عن العجز. — هناك أفراد يحتاجون دائما، ليرسخوا شعورهم بكرامتهم وأهميتهم، إلى أشخاص آخرين يقرعونهم ويعنفونهم : أشخاص من أولئك الذين يسنح عجزهم وجبنهم لغيرهم أن يقوم أمامهم بأفعال سامية ومجنونة دون أن تتم معاقبته ! يجب أن يكون محيطهم مثيرا للشفقة ليتمكنوا من التعالي لحظة على عجزهم ! — بعضهم يحتاج لفعل ذلك إلى كلب، وآخرون إلى صديق، وآخرون إلى امرأة أو حزب، وبعضه يحتاج، وهي حالة نادرة، إلى عصر بأكمله.

370

إلى أي حد يحب المفكر عدوه. — يجب ألا تحتفظ أبدا أو تخفي، أمام نفسك، أي شيء مما قد تتم به معارضة أفكارك ! اقطع على نفسك نذرا بهذا ! هذا جزء من الاستقامة الأساسية. يجب كذلك أن تقوم بحملة ضد نفسك كل يوم. لم يعد من شأنك الانتصار أو احتلال قلعة ما، بل من شأن الحقيقة، — كما أن هزيمتك لم تعد من شأنك هي الأخرى!

371

خبث القوة. — يجب أن نفهم العنف الناتج عن الانفعال، عن الغضب مثلا، من الناحية الفسلجية، على أنها محاولة لتفادي اختناق وشيك. وكثيرا

ما كانت أعمال لا حصر لها من الغطرسة التي تعرض لها أشخاص آخرين ناجمة عن احتقان مفاجئ جراء حركة عضلية قوية : وربما وجب علينا أن ننظر من هاته الزاوية إلى «خبث القوة» كله. (يجرح خبث القوة الآخرين دون أن ندري، – يجب أن يسلط الضوء على نفسه، خبث الضعف يريد أن يؤذي ويرى آثار المعاناة.)

372

إكراما للعارفين. — بمجرد ما يشرع شخص ما، سواء كان رجلا أو امرأة، دون أن يكون من العارفين، في لعب دور القاضي يجب أن نحتج على الفور. التحمس أو الابتهاج أمام شيء أو إنسان ما ليسا حجحا : كما أن النفور والبغض ليسا حجحا كذلك.

373

اللوم الدال. — «لا يعرف الناس» — تعني في فم البعض : «لا يعرف السفالة»، وفي فم الآخرين : «يعرف السفالة جديا ولا يعرف الفريد.»

374

قيمة التضحية. — كلما نازعنا الدولة والأمراء الحق في التضحية بالفرد (في طرقة تحقيق العدالة، وتجنيد الجيش، إلخ.) كلما زادت قيمة التضحية بالنفس.

375

التحدث بوضوح. — هناك عدة دواع تدعونا لإبراز مخارج الحروف أثناء الحديث : الاحتراس من أنفسنا عند استخدامك لغة جديدة لم تألفها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى الاحتراس من الآخرين بسبب حماقتهم أو فهمهم البطيء.

نفس الشيء ينطبق على الأمور الروحانية : أحيانا يكون كلامنا ملحا، وشاقا، لأننا لو تكلمنا بخلاف ذلك لم فهمنا الذين نكلمهم. وبالتالي لا يسمح باستخدام الأسلوب الممتاز إلا عند مخاطبة مستمعين ممتازين.

376

النوم كثيرا. — ماذا علينا أن نفعل لتنشيط أنفسنا حين يصيبنا التعب ونمل أنفسنا ؟ هذا ينصحنا بطاولة اللعب، وآخر بالمسيحية، وثالث بالكهرباء. بيد أن أفضل ما هنالك، يا عزيزي السوداوي، هو أن ننام كثيرا، بالمعنى الحقيقي والمجازي للكلمة ! بذلك سنتمكن في نهاية المطاف من ملاقاة صبحنا ! إتقان فن الحياة هو أن نعرف كيف ندرج النوم بمختلف أشكاله في حياتنا في الوقت المناسب.

377

ما يجب استنتاجه من مثل أعلى غريب الأطوار. — حيث يكمن النقص لدينا يضل حماسنا. لا شك أن المبدأ الغريب الأطوار «أحبوا أعداءكم!» قد ابتكره بعض اليهود، أفضل من عرف الكراهية على الإطلاق، والذين سطروا أفضل تمجيد للعفة هم الذين كانوا، إبان شبابهم، يحيون حياة الدعارة والفحش.

378

يد نظيفة وجدار نظيف. — لا يجب أن نرسم على الجدار لا الرب ولا الشيطان. فبذلك سنفسد جدارنا ونفسد محيطنا.

379

محتمل ومستبعد. — كانت امرأة تحب رجلا، وتقدره أكثر من تقديرها لنفسها وتقول في نفسها مرات ومرات : «إذا أحبني هذا الرجل فستكون ذلك

بمثابة نعمة يجب علي أن أسجد لها وأضع وجهي في التراب!» نفس الشيء حدث لذلك الرجل، ومع تلك المرأة، وكان هو كذلك يكرر في قرارة نفسه مثل تلك الكلمات. ولما تمكنا في الأخير من التحدث إلى بعضهما البعض وباح كل واحد منهما للآخر بمكنون قلبه خيم الصمت ورافقه التردد. ثم قالت المرأة بصوت فاتر: «من الواضح أننا مختلفان عمن أحببنا! إن كنت كما تقول لا أكثر فقد أذللت نفسي دون جدوى لكي أحبك؛ لقد أذلني الشيطان مثلك تماما.» — هاته القصة المستبعدة الحدوث لا تقع أبدا، — لماذا؟

380

نصيحة مجرَّبة. — لا نجد من بين كل وسائل المواساة وسيلة تفيد الذي يحتاج المواساة أكثر من الوسيلة التي تؤكد أنه لا توجد مواساة تناسب حالته. يجعله هذا يشعر بأنه متميز فيعود لرفع رأسه على الفور.

381

معرفة المرء «خصوصيته». — غالبا ما ننسى أن الصورة التي يكنها عنا الأجانب الذين يروننا لأول مرة تكون مخالفة تماما للصورة التي لدينا عن أنفسنا: غالبا ما لا يرون إلا خصوصية ملفتة للنظر وتحدد الانطباع الذي يكونونه عنا. وهكذا يستطيع الرجل الهادئ والحصيف، إن كان له شارب كبير، أن يجلس في ظل ذلك الشارب في أمن وأمان، — ترى فيه العيون العادية ما يكمل الشارب الكبير، أعني: طبعا عسكريا يغضب بسرعة وربما يذهب على حد ممارسة العنف — وبالتالي يتصرفون أمامه وفق ما يقتضيه ذلك.

382

البستاني والبستان. — الأيام الرطبة والمعتمة، الوحدة، الكلمات الخالية من الحب التي توجه لنا، تنتج عنها خلاصات أشبه بالفطر: تظهر أمامنا ذات صباح،

دون أن نعرف من أين أتت، وتنظر إلينا رمادية وكئيبة. الويل للمفكر الذي ليس بستانيا، بل مجرد الأرض التي يغرس فيها نباتاته!

383

كوميديا الشفقة. — مهما يكن الدور الذي نلعبه في تحديد مصير شقي ما فإننا نقوم في حضوره بشيء من التمثيل الهزلي، لا نقول الكثير من الأشياء التي نعتقدها وكما نعتقدها، نفعل ذلك بيقظة الطبيب عند رأس سرير مريض يشرف على الموت.

384

المتفردون. — هناك رجال جبناء لهم رأي سيئ في أفضل ما يتضمنه عملهم الفني ولا يفلحون في تبليغ قيمته للناس: وبنوع من الانتقام يكونون رأيا سيئا عن تعاطف الآخرين معهم، بل لا يؤمنون بالتعاطف؛ يخجلون من أن يظهروا راضين عن أنفسهم ويبدو أنهم، وبعناد، يتلذذون بأن يصبحوا مثيرين للسخرية. — نجد هذا الطبع عند الفنانين السوداويين.

385

المغرورون. — نحن كخشبة عرض السلع في المتاجر، نمضي وقتنا في تنظيم، وإخفاء، وإبراز المزايا المزعومة التي يصفنا بها الآخرون — لنخدع أنفسنا.

386

المثيرون للشجون والسذج. — ربما تكون عادة سوقية ألا يفوت المرء فرصة الظهور بمظهر المثير للشفقة: وذلك بسبب المتعة التي يجدها في تخيل المشاهد يضرب صدره ويشعر أنه تافه وتعيس. وبالتالي ربما يكون من علامات النبل

الاستمتاع بالمواقف المثيرة للشفقة والتصرف أثناءها بطريقة غير لائقة. كان النبلاء قديما في فرنسا يمتلكون هذا النوع من التميز والرقة.

387

كيف نفكر قبل الزواج. — إذا سلمنا بأنها تحبني فكم ستزعجني مع مرور الزمن ! وإذا سلمنا بأنها لا تحبني فسيكون هناك أسباب أكبر لكي تزعجني مع مرور الزمن ! — كل ما أجده هنا هو طريقتين للإزعاج لا غير — فلنتزوج!

388

الاحتيال دون تأنيب الضمير. — يعتبر أمرا مقززا في بعض البلدان أن يتم خداع المشتري حين يقتني أشياء تافهة، كما في منطقة تيرول مثلا، لأننا نجد أنفسنا هناك مرغمين، إلى جانب السوق الرديء، على التكيف مع الوجه البشع والطمع الشديد للبائع اللئيم، وكذلك مع تبكيت الضمير والعداوة الفظة التي تتولد لديه تجاهنا. أما في البندقية فإن المخادع يفرح غاية الفرح لنجاحه في النصب على المشتري ولا يكن أية ضغينة للمخدوع، بل يكون على استعداد لمعاملته بحفاوة وممازحته، إذا لمس لديه استعدادا لذلك. — خلاصة القول: على المحتال أن يكون لديه مزاج الاحتيال ولا يشعر بالندم جراء احتياله: يكاد هذا يصلح بين الإنسان المخدوع والخدعة.

389

مع شيء من الرعونة. — حين يُعامَل بعض الكرماء بلطف يمنعهم شيء من الرعونة من أن يكونوا مهذبين ولطفاء فيسعون على الفور لمقابلة ذلك التعامل بإسداء خدمة جدية لصاحبه أو بدعمه بقوتهم. إنه لأمر مؤثر أن نرى كيف يقدمون في خجل دينارهم الذهبي في الوقت الذي قدم لهم الآخر فلسا ذهبيا فقط.

390

إخفاء النباهة. — حين نفاجئ شخصا وهو يخفي عنا نباهته فإننا ننعته بالشرير : خاصة إذا اشتبهنا في كونه فعل ذلك بدافع اللطف والعطف.

391

اللحظة غير المناسبة. — اليقظون لا يكذبون إلا لحظة : آنذاك يكونون قد كذبوا على أنفسهم، ويظلون واثقين من أنفسهم ونزهاء.

392

شروط الأدب. — الأدب شيء جميل جدا، وهو في الحقيقة واحدة من الفضائل الرئيسية الأربعة (وإن كان في المرتبة الأخيرة) : وحتى لا نزعج بعضنا بهذا الأدب يجب أن يكون أدب الذي لي شأن معه أكثر من أدبي قليلا أو أقل منه قليلا، — وإلا تجذرنا معا، فالبلسم لا يطيب فقط بل يلصقنا في مكاننا.

393

فضائل خطيرة. — «لا ينسى أي شيء، ولكنه يغفر كل شيء.» — إذن سيكرهه الناس مرتين، لأنه يخجلهم مرتين، مرة بذاكرته، ومرة بحلمه.

394

بلا غرور. المولعون لا يفكرون كثيرا في ما يفكر فيه الآخرون، حالتهم تسمو بهم فوق الغرور.

395

التأمل. — لدى هذا المفكر تأتيه حالة التأمل الخاصة بالمفكرين دائما بعد حالة الخوف، ولدى ذاك تأتيه دائما بعد حالة الرغبة. فالتأمل يرتبط بالإحساس

بالأمان لدى المفكر الأول، ولدى المفكر الثاني يرتبط بالإحساس بالشبع – وهو ما يعني أن الأول لديه إحساس بالشجاعة، والثاني إحساسا بالاشمئزاز والحياد.

396

الصيد. – يذهب هذا إلى الصيد ليصطاد حقائق ممتعة، وذاك لاصطياد حقائق – مزعجة. لذلك يستمتع الاول بالصيد أكثر مما يستمتع بالغنيمة.

397

التربية. – التربية إتمام لعملية الإنجاب، وغالبا ما تكون إصلاحا لاحقا لها.

398

بم نعرف المتحمس أكثر. – المتحمس أكثر من بين شخصين يتصارعان، أو متحابين أو معجبين ببعضهما يكون وضعه دائما مريحا أقل من وضع الآخر. نفس الشيء ينطبق على شعبين.

399

الدفاع عن النفس. – يملك بعض الناس الحق في التصرف بهاته الطريقة أو تلك؛ ولكن عندما يريدون الدفاع عن أفعالهم يقال بأن لا حق لهم في ذلك – وهذا خطأ.

400

ضعف أخلاقي. – هناك طباع أخلاقية لينة تخجل من نجاحاتها ومن ندمها على فشلها.

401

نسيان خطير. — نبدأ بنسيان محبة الآخرين وننتهي بعدم العثور فينا على أي شيء يستحق الحب.

402

تسامح كغيره من التسامح. — «البقاء دقيقة إضافية على الجمر الملتهب والاحتراق به قليلا، — هذه لا يضر بالناس ولا بثمار القسطل! هاته المرارة والقسوة القليلتين تمكنان الإنسان من الإحساس بمدى لطافة القلب وليونته.» — أجل! هكذا تكون أحكامكم، يا طالبي اللذة! يا آكلي لحوم البشر الرائعين!

403

لكل كبرياؤه. — النساء هن اللواتي يشحب لونهن إذا خشين ألا يكون عشيقهن جديرا بهن؛ والرجال هم الذين يشحب لونهم إذا خشوا ألا يكونوا جديرين بعشيقاتهم. أقصد هنا النساء الكاملات، والرجال الكاملين. أولئك الرجال الذين تكون لهم، في الأوقات العادية، ثقة بالنفس وإحساس بالقوة، يشعرون، حين يحبون، بالخجل وبنوع من الشك في أنفسهم؛ ولكن هؤلاء النسوة يعتبرن أنفسهن مخلوقات ضعيفة، مستعدات للاستسلام، غير أنهن إذا أحببن تساءل كبرياؤهن وإحساسهن بالقوة: من هو الجدير بي؟

404

الذي نادرا ما ننصفه. — لا يمكن لبعض الناس أن يتحمسوا لأمر مفيد أو عظيم دون أن يقترفوا، هنا أو هناك، ظلما كبيرا: إنه شكل أخلاقيتهم.

405

الترف. — حب الترف متجذر في أعماق رجل ما: يبوح بأن روحه تهوى السباحة في بحر الوفرة والإفرط.

406

ضمان الخلود. — على الذي يريد قتل خصمه أن يتفكر في كون قتله قد يضمن له الخلود في نفسه.

407

ضد مزاجنا. — حين تكون الحقيقة التي يجب علينا أن نقولها مناقضة لطبعنا — مثلما يحدث في الغالب ـ، نقولها وكأننا لا نعرف كسف نكذب، وهو ما يثير الشكوك فينا.

408

حيث يلزم الكثير من اللطف. — بعض الناس يجدون أنفسهم أمام خيارين لا غير : إما أن يكونوا أشرارا أمام الملأ، وإما أن يكونوا حملة للصليب خفية.

409

مرض. — يجب أن نعني بالمرض : دنو شيخوخة قبل الأوان، والقبح والأحكام التشاؤمية : ثلاثة أشياء متلازمة.

410

الهلوعون. — الأشخاص المتصفون بالرعونة والهلع هم الذين يصيرون مجرمون بكل سهولة : لا يتقنون الدفاع الخفيف عن النفس، المناسب للهدف أو للانتقام؛ بسبب البلادة وعدم النباهة لا يصرفون حقدهم بطريقة أخرى غير الإبادة.

411

دون حقد. — تريد أن تودع هواك ! افعل ولكن دون أن تحقد عليه ! وإلا أتاك هوى آخر. — روح المسيحي الذي تحرر من الخطيئة غالبا ما تهلك بعد حين

بسبب حقدها على الخطيئة. انظروا على وجوه المسيحيين الكبار ! إنها وجوه حاقدين كبار.

412

روحاني وضيق الأفق. — لا يعرف كيف يقدر أي شيء خارج ذاته؛ وحين يريد تقدير أناس آخرين يكون عليه دائما أن يبدأ بتحويلهم ليصبحوا مثله. ولكنه روحاني ليقوم بذلك.

413

المتهمون الخواص والعموميون. — انظروا عن كثب إلى أولئك الذين يتهمون ويسألون تجدونهم يكشفون بذلك عن مزاجهم : وليس من النادر أن يكون هذا المزاج أسوأ من مزاج الضحية التي يقتفي أثر جريمتها. يتخيل المتهم بكل براءة أن خصم الجريمة الشنعاء أو المجرم يجب أن يكون، بطبعه، ذا مزاج طيب، أو أن يتم اعتباره طيبا على الأقل، — بحيث يستسلم لنزواته، أو بالأحرى: ينسكب.

414

العميان الطوعيون. — هناك نوع من الوفاء والتحمس الشديدين لشخص ما أو حزب يكشف لنا أننا نشعر في قرارة نفوسنا أننا أسمى من ذلك الشخص أو ذلك الحزب، وأنه بسبب ذلك نحقد على أنفسنا. نعمي عيوننا طواعية إن صح القول لنعاقبها على كونها رأت أكثر مما ينبغي.

415

علاج الحب. — لا نجد علاجا فعالا ضد الحب، في أغلب الحالات، مثل ذلك العلاج القديم الفعال : مبادلته الحب.

416

أين هو العدو اللدود ؟ — الذي يعرف كيف يدافع عن قضيته ويعي ذلك جيدا غالبا ما يميل للتسامح مع خصومه. ولكن تخيل المرء انه يدافع عن قضية عادلة وعلمه أنه لا يتقن الدفاع عنها هما اللذان يجعلانه يلاحق خصومه بحقد دفين وشديد. — فليحدد كل واحد وفق هاته الحسابات أين سيبحث عن خصومه!

417

حدود التواضع. — لقد وصل أكثر من شخص إلى ذلك التواضع القائل: أومن بهذا لأنه مخالف للعقل، ويضحي بعقله هو : ولكن لا أحد، على حد علمي، توصل إلى ذلك التواضع القريب جدا من هذا التواضع والذي يقول : أومن بأن هذا مخالف للعقل.

418

كوميديا الصادق. — هناك من الناس من هم صادقون، — ليس لأنهم يكرهون تصنع المشاعر، بل لأنهم لن يوفقوا في تصنعها بطريقة مقنعة. إنهم لا يثقون في موهبتهم ككوميديين لذلك يفضلون الصدق، «كوميديا الصادق».

419

الشجاعة في الحزب. — تقول النعاج المسكينة لقائدها : «امض دائما أمامنا ولن تنقصنا الشجاعة أبدا لنتبعك.» ولكن القائد المسكين يقول لنفسه : «اتبعوني دائما ولن تنقصني الشجاعة لأقودكم.»

420

حيلة الضحية. — هناك حيلة الرغبة في الخطأ بشأن الذي ضحينا من أجله، وذلك بمنحه فرصة الظهور لنا بالمظهر الذي نريده أن يظهر به.

421

عبر الآخرين. — هناك أناس لا يريدون أن نراهم إلا وهم يرسلون أشعتهم عبر الآخرين. تلك علامة حكمة عظيمة.

422

إرضاء الآخرين. — لماذا يفوق الإرضاء كل المتع الأخرى ؟ — لأننا بهاته الطريقة نرضي غرائزنا الخمسين دفعة واحدة. ربما تكون تلك فرحات صغيرة جدا: ولكن إذا جمعناها كلها في يد واحدة فإن يدنا ستمتلئ مثلما لم تمتلئ أبدا، — وقلبنا كذلك !



الكتاب الخامس

423

في الصمت الكبير. — ها هو البحر، هنا سننسى المدينة. صحيح أن الأجراس تدق إيذانا بالصلاة للعذراء — ضجيج جنائزي وأخرق، ولكنه لطيف، عند ملتقى الليل والنهار — انتظروا لحظة ! ها قد ساد الصمت الآن ! يمتد البحر شاحبا ولامعا، لا يستطيع الكلام. والسناء تلعب بالأحمر، والأخضر والأصفر لعبة المساء الأبدية والصامتة، ولا تستطيع الكلام. والأجراف، الصغيرة والأرصفة التي تهرع إلى داخل البحر، كأنما لتجد فيه أشد الأمكنة عزلة، كلها لا تستطيع الكلام. هذا الصمت الذي يفاجئنا، ما أجمله وأقساه بشكل تنشرح له الروح ! — يا للتدليس الذي نجده في هذا الجمال الصامت، مع الأسف ! كم كانت ستحسن الكلام، وتسيئه كذلك، لو شاءت ! ما لسانها الأخرس والسعادة المتألمة المنطبعة على وجهها إلا مكر تسخر به من حنوك ! فليكن ! لا أخجل ما أن تسخر مني مثل هاته القوى. ولكنني أشفق عليك، أيتها الطبيعة، لأنه يجب عليك أن تصمتي حتى حين يكون مكرك هو الذي يخرس لسانك : أجل، أشفق عليك بسبب مكرك ! ها هو الصمت يشتد ويشتد، وقلبي ينتفخ مجددا : يصيبه الرعب من حقيقة جديدة، هو كذلك لا يستطيع الكلام، لقد اتفق مع الطبيعة على الازدراء، حين — يريد الفم إن يلقي بكلمات وسط هذا الجمال يستمتع هو كذلك بمكر الصمت. يصبح الكلام والفكر كريهين لدي : ألا أسمع وراء كل كلمة ضحكة الخطأ والخيال وروح الوهم؟ ألا يجب علي أن أسخر من شفقتي؟ أن أسخر من سخريتي؟ — أيها البحر ! أيها المساء ! أيها السيدان الماكران ! تعلمون الإنسان أن يكف عن كونه إنسانا ! هل عليه أن يخضع لكما؟ هل عليه أن يصير كما أنتما الآن، شاحبا، ولامعا، وأخرسا، وهائلا، يرتاح في نفسه؟ مرتفعا إلى فوق نفسه؟

424

لمن الحقيقة؟ — كانت الأخطاء حتى الآن هي القوى المفعمة بالمواساة: والآن ننتظر نفس من الحقائق المعترف بها أن تقوم بنفس الخدمة، — ولكن انتظارنا يطول. كيف، هل تكون الحقائق عاجزة حتى عن المواساة؟ — هل تكون هاته حجة ضد الحقائق؟ أي شيء يجمعها بالحالة المرضية للمعانين والمنحطين حتى نطلب منها أن تكون مفيدة لهم؟ إننا لا نبرهن على أي شيء ضد حقيقة نبتة ما إذا أثبتنا أنها لا تستطيع المساهمة مطلقا في لاج أناس مرضى. كان الناس فيما مضى مقتنعين بأن الإنسان هو غاية الطبيعة، إلى درجة أنهم كانوا يسلمون بأن المعرفة لا يمكن أن تكشف عن شيء لا شافيا ومفيدا للإنسان، بل وبأنه لن يكون هناك في العالم أي شيء غير ذلك. — ربما نستنتج من كل هذا أن الحقيقة، كجوهر وكمجموعة، لا توجد إلا بالنسبة لمن هم أقوياء ومترفعين، مرحين وهادئين (كأرسطو مثلا)، وبأن هؤلاء هم وحدهم من سيبحثون عنها: فالآخرون يبحثون عن علاجات يستخدمونها، مهما تكن الخيلاء التي يفتخرون بها بفكرهم وحرية هذا الفكر، — ولا يبحثون عن الحقيقة. هذا هو سبب كون هؤلاء لا يفرحون بالعلم فرحة حقيقية ويتهمونه بالبرودة، والجفاف واللاإنسانية: هذا هو حكم المرضى على ألعاب الأصحاء. — لم تكن آلهة الإغريق، هي كذلك، ماهرة في المواساة، ولما مرضت الإنسانية الإغريقية هي كذلك تسبب مرضها في زوال تلك الآلهة.

425

نحن الآلهة المنفية! — بارتكاب الإنسانية أخطاء حول أصلها، ومصيرها، وبالمتطلبات التي قامت على تلك الأخطاء، سمت بنفسها عاليا و«تفوقت على نفسها» باستمرار: وبسبب هاته الأخطاء، ظهرت في العالم أشكال من المعاناة التي تفوق الوصف، واضطهادات، وشكوك متبادلة وجهل الواحد بالآخر، وعدد أكبر من المصائب التي حلت بالفرد في ذاته وحوله. أصبح الناس كائنات معانية نتيجة لأخلاقهم: ما ربحوه منه هو الإحساس بأنهم طيبتهم وسموهم أكبر من الأرض وأنهم عابرون على ظهرها. «المتكبر الذي يعاني»، لا يزال هذا هو نموذج الإنسانية الراقي.

426

عمى الألوان لدى المفكرين. — كان الإغريق يرون العالم بطريقة مخالفة لطريقتنا، ويجب أن نعترف بأنهم لم يكونوا يبصرون الأزرق والأخضر، فبدل الأزرق يرون الأسمر الداكن، وبدل الأخضر يرون الأصفر (وكانوا يصفون بنفس الكلمة لون الشعر الداكن، لون التُرُنجان والبحار الجنوبية، وبنفس الكلمة كذلك لون النباتات الخضراء وبشرة الإنسان، والعسل والراتينج الأصفر : مما جعل كبار الفنانين لديهم، مثلما تمت البرهنة على ذلك، ينقلون العالم المحيط بهم فقط بالأسود، والأبيض، والأحمر والأصفر). — كم ستكون الطبيعة قد بدت لهم مختلفة وقريبة من الإنسان، بما أنهم كانوا يرون أن الوان الإنسان هي المهيمنة حتى في الطبيعة، وبأن الطبيعة تسبح إن صح القول في أثير الإنسانية الملون ! (الأزرق والأخضر يجردان الطبيعة من إنسانيتها أكثر مما يفعل أي لون آخر.) بسبب هذا العيب تطورت لدى الإغريق تلك السهولة البالغة، المميزة للإغريق، في اعتبار الظواهر الطبيعية آلهة وأنصاف آلهة، أي رؤينها على شكل إنسان. — ولنستخدم هذا رمزا لافتراض آخر. كل مفكر يلون عالمه الخاص والأشياء المحيطة به بألوان أقل من الموجودة فعلا، وهناك لا يراها. ليس هذا عيبا فقط. فبفضل هذا التقريب وهذا التبسيط يحصل في الأشياء بين الألوان الساحرة والتي يمكن أن تؤدي إلى إغناء الطبيعة. ربما كانت تلك هي السبيل التي أوصلت الإنسانية إلى تعلم الاستمتاع بعرض الحياة : بفضل كون الحياة قدّمت لهه بنغمتين، وبالتالي بشكل منسجم : تعودت، إن صح القول، على هاته النغمات البسيطة قبل أن تمر إلى تنويعات عليها أكثر تنوعا. ولا يزال بعض الأفراد حتى الآن يحاولون جاهدين أن يتخلصوا من عمى جزئي ليتمكنوا من أن يحيوا حياة أكثر غنى وتمايزا؛ حياة لا توفر لهم متعا جديدة فحسب، بل ترغمهم على التخلي عن بعض المتع القديمة.

427

تزيين العلم. — مثلما تولد فن الحدائق الذي عفا عليه الزمن من الإحساس: «الطبيعة قبيحة، ومتوحشة، ومملة، — فلنزينها (تزيين الطبيعة!)» — كذلك لا يزال يتولد عن الإحساس : «العلم قبيح، وجاف، ويائس، وعنيد، وممل، — فلنزينه!»

شيء نسميه الفلسفة. تريد الفلسفة ما تريده كل الفنون وكل القصائد : التسلية قبل كل شيء. ولكنها تريد ذلك، طبقا لكبرياء وراثية فيها، بطريقة أرقى وأسمى، أمام نخبة من العقول. تريد أن تخلق لنفسها فن الحدائق الذي سيكون سحره الأساسي، كما بالنسبة للأكثر «عامية»، خلق وهم بصري (بمعابد، ومشارف، وكهوف، ومتاهات، وشلالات، حتى نعبر بالصور)، تقديم تلخيص للعلم مع تسليط مختلف الأضواء عليها وإضافة ما يكفي من الأمواج إليها فجأة، وكذلك من الغباوة والحلم حتى نتمكن من التجول فيها «كما في الطبيعة المتوحشة»، ولكن دون عناء ولا ملل، — ليس هذا بالطموح الهين : والمهووس به يحلم حتى بجعل الدين شيئا زائدا عن الحاجة، الدين الذي كان يشكل لدى الناس فيما مضى أسمى شكل من أشكال فن المتعة. — أخذ هذا الشيء مجراه وهو يمضي فيه ليبلغ منتهاه ذات يوم : وقد بدأت أصوات معارضة للفلسفة ترتفع الآن وقول بأعلى صوتها : «العودة إلى العلم، إلى الطبيعة ولطبيعية العلم!» — معلنة ربما عن مرحلة يتم فيها اكتشاف الجمال الباهر في أجزاء العلم «المتوحشة والمرعبة»، تماما كما لم يتم اكتشاف معنى جمال المواقع في جبال الألب والصحاري إلا منذ عهد روسو.

428

صنفان من الأخلاقيين. — الرؤية الشاملة، لأول مرة، لقانون طبيعي، أي البرهنة على هذا القانون (كقانون سقوط الأجسام مثلا، أو انعكاس الضوء والصوت)، مخالف تماما لتفسيره، وهو من اختصاص عقول متميزة. بهذا يتميز كذلك أولئك الأخلاقيون الذين يشاهدون القوانين والعادات الإنسانية ويسجلونها — الأخلاقيون الذين لهم دقة في الأذن والأنف والعين — عن الأخلاقيين الذين يفسرون ما لاحظوه. يجب أن يكون هؤلاء الأخيرون مبتكرين ويكون لهم خيال خصب أغنته المعرفة وتوقد الذكاء.

429

العشق الجديد. — لماذا نخشى العودة إمكانية العودة إلى الهمجية ونكرهها؟ هل لأنها قد تجعل الناس أكثر تعاسة مما هم عليه؟ لا أبدا ! لقد كان الهمجيون دائما

أكثر سعادة منا : هذا أمر لا ريب فيه. — ولكن غريزة المعرفة لدينا جد متطورة بحيث لا نستطيع الاستمتاع بالسعادة معزولة عن السعادة، أو بسعادة وهم راسخ وقوي؛ مجرد تصورنا لمثل تلك الظروف يجعلنا نعاني ! القلق المرتبط بالاكتشاف والتخمين يسحرنا كثيرا، وقد أصبح ضروريا لنا كضرورة الحب البائس للمحب : لن يستغني عنه لصالح اللامبالاة مهما كان الثمن؛ — أجل، ربما نكون نحن كذلك محبين تعساء ! لقد تحولت المعرفة عندنا إلى عشق لا ترعبه أية تضحية ولا يخشى، في الحقيقة، إلا شيئا واحدا، هو أن تذوى جذوته من تلقاء نفسها؛ نعتقد صادقين أن الإنسانية، الرازحة تحت عبء هذا العشق، يجب أن تعتبر نفسها الآن أعظم من ذي قبل وتتم مواساتها بشكل أفضل. حين لم تكن قد تجاوزت بعد الإرضاء الذي يصاحب الهمجية. ربما يقود عشق المعرفة الإنسانية إلى الهلاك ! — حتى هاته الفكرة لا سلطان لها علينا. فهل أفزعت الكنيسةَ مثلُ هاته الأفكارُ؟ أليس العشق والموت شقيقان؟ أجل، إننا نكره الهمجية، — نفضل أن نرى الإنسانية تهلك ولا نرى المعرفة تعود القهقرى ! وفي نهاية المطاف : إذا لم تهلك الإنسانية بسبب بالعشق فإنها ستهلك بالضعف، فأيهما نفضل؟ هذا هو السؤال الجوهري. هل نريد أن ينتهي المطاف بالإنسانية في النار والنور أم في الرمل؟

430

هذا بطولي أيضا. — فعل الأشياء القذرة، التي لا نجرؤ حتى على الحديث عنها، والتي تعتبر مع ذلك مقيدة وضرورية، — هذا أيضا شيء بطولي. الإغريق لم يخجلوا من إدراج تنظيف هرقل لإسطبل ضمن أعماله العظيمة.

431

آراء الخصوم. — لكي نقيس مدى حذق أو ضعف العقول الأكثر ذكاء علينا أن ننظر إلى طريقة إدراكها لآراء خصومها وردها عليها : هاته الطريقة تكشف العيار الطبيعي لكل عقل. — الحكيم الكامل يرفع خصمه، عن غير قصد، إلى درجة الكمال ويخلص معارضاته من الشوائب والعوارض : وحين يكون خصمه قد صار إلها ذا أسلحة براقة يدخل معه في صراع.

432

الباحث والمغوي. — ليست هناك منهجية علمية تكون هي الوحيدة التي تفتح لنا المنفذ إلى المعرفة ! يجب أن نتعامل مع الأشياء كما لو كنا نجرب، بأن نكون طيبين معها تارة، وأشرارا تارة أخرى، ونناوب في تصرفاتنا بين العدل، والعشق والفتور. هذا يعامل الأشياء كشرطي، وذاك كمُعَرف، وآخر كمسافر وفضولي. وستتمكن من أن ننتزع منها جزءا إما بالرفق وإما بالعنف؛ واحد يدفعه الإجلال الذي تلهمه إياه أسرارها إلى الأمام، ليرى بوضوح، وآخر يدفعه لذلك عدم التحفظ والمكر في تفسير الغوامض. نحن الباحثون، كالفاتحين، والمستكشفين، والبحارة، والمغامرين، لنا أخلاقية جريئة ويجب أن نعتبر النظر إلينا على أننا أشرار أمرا جيدا.

433

الرؤية بعينين جديدتين. — إذا سلمنا بأننا نقصد بالجمال في الفن تصوير الإنسان السعيد — وهذا أمر أعتبره حقيقيا — وفق الفكرة التي يكونها عصر ما، أو شعب، أو شخص عظيم يسن قوانينه بنفسه، عن الإنسان السعيد : فأية إشارة سيعطينا الفن الذي يبدعه الفنانون الحاليون، والذي يسمى الواقعية، عن سعادة عصرنا؟ أكيد أن هذا هو شكل الجمال الذي نفهمه الآن بسهولة ونستمتع به بشكل أفضل. بالتالي يجب أن نقول بأن السعادة الحالية، أي سعادتنا، تجد في الواقعية ما يعبر عنها خير تعبير، بنقل المشاعر بكامل حدتها وتصوير الواقع بأمانة ما أمكن ذلك، أي ليس في الواقع، بل في معرفة الواقع. لقد أصبحت لنتائج العلم مكانة واسعة وعميقة بشكل جعل فناني هذا القرن يتحولون، عن غير قصد، إلى ممجدين ل«السعادة الكبرى» العلمية!

434

التوسط. — الأصقاع البسيطة مفتوحة أمام رسامي المناظر الكبار، والأصقاع المتفردة والنادرة مفتوحة أمام صغارهم. أي أن الأشياء العظيمة في الطبيعة ولدى

الإنسانية يجب أن تتوسط لصالح الصغار، والرديئين والمغرورين من المعجبين، – هذا في الوقت الذي يتوسط فيه الفنان الكبير لصالح الأشياء البسيطة.

435

ألا نموت خفية. – لا تتلاشى قدرتنا وعظمتنا دفعة واحدة بل مع توالي ما يفتتهما؛ النبات الذي ينمو حولنا، ويتسلل إلى وسط الأشياء ويمسك بها يخرب ما هو عظيم فينا، – تفاهة محيطنا، ما نراه كل يوم وكل حين، آلاف الجذور الصغيرة للإحساس الحقير التي تنمو حولنا في وظائفنا، ومن نعاشرهم، واستعمال زماننا. إذا لم نتنبه لهاته الأعشاب الضارة فإنها ستقتلنا خفية! – وإن شئتم أن تموتوا فموتوا فجأة وعلى الفور: وحينها ستبقى أطلالكم شامخة في كبرياء! لا فقط قببا خلدية كالتي نخشى أن تبقى منكم الآن! ينمو عليها العشب والأعشاب الضارة، الظافرون الصغار الحقراء مثل الذين سبقوهم والذين هم أتعس من أن ينتصروا.

436

ذمامة. – هناك بديل مر لا تسمح الشجاعة والخُلُق لكل إنسان بأن يواجهها: اكتشافه، وهو مسافر على متن سفينة، بأن القبطان والربان يرتكبان أخطاء خطيرة وأنه أعلم منهما بفن الملاحة – وتساؤله إثر ذلك: ماذا لو تزعمت تمردا ضدهما وأخذتهما أسيرين؟ ألا يلزمك تفوقك بهذا؟ أليس لهما الحق في سجنك لأنك تحرض الركاب على العصيان؟ – هذا شيء يرمز لأوضاع أكبر وأصعب: وفي الأخير يظل هناك سؤال مفتوح، معرفة ما يضمن، في مثل هاته الحالات، تفوقنا، وثقتنا في أنفسنا. النجاح؟ لكي يتحقق يجب أن نكون قد أنجزنا الفعل الذي يحمل في طياته كل الأخطار، – أخطار لا تهددنا نحن فقط، بل السفينة كذلك.

437

امتيازات. — الذي يسيطر على نفسه حقا، أي الذي أخضعها نهائيا، يعتبر أنه من حقه أن يعاقب نفسه، ويعفو عنها، ويشفق عليها: لا يحتاج لمنح ذلك الحق لأي كان، ولكنه يظل حرا في استشارة شخص آخر، كصديقه مثلا، — وهو يعرف أنه بذلك يخوله حقا وبأن امتلاك القوة وحده هو الذي يخول إعطاء الحقوق.

438

الإنسان والأشياء. — لماذا لا يرى الإنسان الأشياء؟ لأنه يسد الطريق: يحجب الأشياء.

439

العلامات المميزة للسعادة. — لكل أحاسيس السعادة شيئان مشتركان، كمال الإحساس والحدة التي تنتج عنه؛ بحيث يشعر الإنسان بالارتياح كالسمكة في الماء فينتفض. بعض المسيحيين الطيبين سيفهم الآن معنى الحيوية المفرطة في التعبير عن المشاعر.

440

الاعتزال. — اعتزال المرء العالم دون أن يعرفه، كالراهبة، — معناه أن يفرض على نفسه عزلة عقيمة، وربما سوداوية. عزلة لا تمت بأية صلة لعزلة المفكر في إطار الحياة التأملية: فهو حين يختار هاته العزلة لا يرغي بتاتا في اعتزال العالم؛ وإصراره على الاستمرار في الحياة العملية سيكون نقيض الاعتزال، والسوداوية، وتدمير الذات — إنه يعتزل هاته الحياة لأنه يعرفها، لأنه يرف نفسه. بذلك يقفز إلى مياهه، بذلك يكسب سكينته.

441

لماذا يبدو لنا القريب بعيدا أكثر فأكثر. — كلما فكرنا في ما كان، وما سيكون، كلما بدا لنا ما هو موجود في الحاضر بالمصادفة مقلصا. إذا عشنا

بين الأموات وهلكنا باحتضارهم فماذا يكون «الأقارب» بالنسبة لنا؟ نصبح وحيدين أكثر، — لأن موج الإنسانية هادر حولنا من كل جانب. شوقنا لكل ما هو إنساني لا يفتأ يزداد — لذلك ننظر إلى كل ما يحيط بنا وكأنه أصبح غير مهم، وأشبه ما يكون بالشبح. — ولكن برودة نظرتنا مهينة !

442

القاعدة. — «القاعدة دائما أهم عندي من الاستثناء» — الذي يفكر بهذا الشكل يكون قد مضى بعيدا في المعرفة وأصبح من الخبراء.

443

من أجل التعليم. — لقد اكتشفت بالتدريج العيب الكبير في طريقة التربية والتعليم لدينا. لا أحد يتعلم كيف يتحمل الوحدة، أو يطمح لذلكن أو يعلمه لغيره.

444

الذهول أمام المقاومة. — إذا بدا لنا شيء ما شفافا في نهاية المطاف فإننا نتصور منذ تلك اللحظة أنه لن يقوى على مقاومتنا بعد ذلك — ونندهش آنذاك لقدرتنا على الرؤية عبرها دون أن نتمكن من اختراقها ! إنه نفس الجنون ونفس الذهول الذي يصيب الذبابة حين تجد نفسها أمام زجاج نافذة.

445

الذي يخطئ بشأنه الأكثر نبلا. — في نهاية المطاف نعطي أحدا مل أفضل ما نملك، كنزنا، — فلا يبقى للحب ما يعطيه: ولكن الذي يقبل تلك الأعطية لا يجد فيها بكل تأكيد أفضل ما يملك، وبالتالي تنقصه تلك المعرفة الكاملة والأخيرة التي يعول عليها الذي يعطي.

446

تصنيف. — نجد في المقام الأول المفكرين السطحيين، وفي المقام الثاني المفكرين العميقين — أي الذين ينفذون إلى عمق الأشياء -، وفي المقام الثالث المفكرين الأساسيين، أي الذين يريدون الغوص إلى أعمق نقطة في شيء ما، — وهو أكثر قيمة من الهبوط إلى عمقها فقط ! — وفي المقام الأخير المفكرين الذين يغطسون رأسهم في المستنقع : وهو ما لا يعتبر دليلا على العمق، ولا على التفكير العميق ! إنهم مفكرو الحضيض.

447

الأستاذ والتلميذ. — على الأستاذ أن يحذر مريديه من نفسه، هذا جزء من إنسانيته.

448

تبجيل الواقع. — كيف لنا أن نشاهد هذا الحشد من الجماهير المبتهجة دون أن تذرف عيوننا وتصفق أيدينا ! كنا في ما مضى نزدري ما يجعلهم فرحين، وكنا سنفعل نفس الشيء الآن لو لم نعش نحن كذلك تلك الفرحة ! إلى أين قد تقودنا الأحداث إذن ! ما هي آراؤنا ! لكي لا نضل أو نجن يجب أن نتهرب من التجارب. هكذا تهرب أفلاطون من الواقع ولم يشأ أن يرى من الأشياء إلا تلك الصور المثالية الشاحبة؛ كان شديد الحساسية وكان يعرف مدى السهولة التي تتدفق بها أمواج الحساسية على عقله — كان على الحكيم بالتالي أن يقول : «أريد أن أبجل الواقع، ولكنني سأدير له ظهري لأنني أعرفها وأخشاها؟» — كان عليه أن يفعل مثلما تفعل بعض القبائل الإفريقية أمام ملكها : لا تقترب منه إلا وهي تمشي القهقرى معبرة بذلك عن تبجيلها وخشيتها في نفش الوقت.

449

أين هم فقراء العقل؟ — كم أشمئز من فرض أفكاري على شخص آخر ! أريد أن أفرح بكل فكرة تأتيني، بكل تقلب خفي يحدث في وتبرز من خلاله أفكار الآخرين قيمتها في مقابل أفكاري ! ومن حين آخر نعيش احتفالا أكبر، حين يسمح لنا بأن نغدق على الناس ثروتنا الروحية، مثل المُعَرِّف الذي يجلس في ركن ما، متشوقا لمجيء من يحتاج للمواساة، من يحدثه عن تعاسة أفكاره، ليغدق عليه من عطاياه ما يملأ قلبه ويده، ويخفف عن روحه المكروبة ! لا يريد المعرف أن ينال مجدا فقط : بل لا يريد العرفان كذلك، لأنها لا تخجل أمام وحدته وصمته وتفشي سرهما. بل يريد أن يعيش بلا اسم أو ساخرا بلطف، في غموض شديد لا يثير الغيرة أو العداوة، مسلحا بمخ سالم من الحمى، بحفنة من المعرفة، وبجيب مليء بالتجارب، أن يكون للعقل طبيبا كطبيب الفقراء ويساعد هذا أو ذاك، حين تثير فيه آراؤه البلبلة، دون أن يدري من الذي ساعده ! ألا يسعى لأن يكون أمام هذا على صواب أو يحتفل بالانتصار، وإنما التحدث إليه بطريقة تجعله يكتشف الصحيح بنفسه، من خلال إشارة خفية، أو معارضة، ثم ينصرف فخورا بسبب ذلك ! أن يكون كنزل متواضع لا يرد أي شخص محتاج، ولكن الناس ينسونه بمجرد مغادرته ويسخرون منه ! أن لا يكون متميزا في أي شيء، ألا يكون أكله هو الأفضل، ولا هواؤه هو الأنقى، ولا عقله هو الاكثر مرحا، — بل أن يعطي باستمرار، وينتج، ويتواصل، ويصير أشد فقرا ! أن يكون صغيرا ليكون في متناول الكثير من الناس ولا يذل أحدا ! أن يتحمل الكثير من الظلم وأن يزحف كالديدان عبر كل أشكال الرعب ليتمكن من النفاذ، عبر سبل خفية، إلى الكير من النفوس المختبئة ! دائما بنفس الحب، ونفس الانانية ونفس الاستمتاع بالذات ! أن تكون له سلطة ويظل مع ذلك خفيا عن الانظار، متخليا عن ذلك ! أن يظل على الدوام مستلقيا تحت شمس المودة واللطف ويعرف مع ذلك أن السمو في متناول اليد ! — سيكون ذلك هو الحياة ! وسيكون من دواعي ا، نحيا حياة طويلة !

450

إغراء المعرفة. — النظرة التي يتم إلقاؤها عبر باب العلم تؤثر على العقول العاشقة كأشد الإغراءات إغراء؛ وهكذا يكون من المتوقع أن تصبح

تلك العقول عقولا واسعة الخيال، وشاعرة في أفضل الأحوال : فرغبتها في سعادة المعرفة كبيرة شديدة. ألا تؤثر في كل حواسكم نغمة الإغراء اللطيف الذي به يعلن العالم عن نبئه الجديد : «تخلصوا من الوهم، وسيختفي قولكم "الويل لي" في نفس الوقت؛ وباختفاء "الويل لي" سيختفي الألم كذلك» (ماركوس أوريليوس).

451

المحتاجون لمضحك الملك. — أصحاب الجمال، والطيبة، والقوة، لا يكادون يعرفون الحقيقة الكاملة والمتداولة عن شيء أبدا، عن أي موضوع، — لأن الناس يكذبون عن غير قصد في حضرتهم، لانهم يكونون تحت تأثيرهم، وطبقا لذلك التأثير يقدمون لهم ما يستطيعون قوله من الحقائق مكيفة (يزورون لون الوقائع ودرجتها، يحذفون بعض التفاصيل أو يضيفونها ويحتفظون لانفسهم بما لا يمكن تكييفه). إذا أراد هذا الصنف من الرجال أن يعرفوا الحقيقة كاملة رغم كل شيء فيجب أن يستأجروا مضحك الملك، — وهو شخص يمتاز بجنون عدم القدرة على التكيف.

452

نفاذ صبر. — نجد لدى رجال الفكر والرجال العمليين درجة من نفاذ الصبر تجعلهم، عند أدنى فشل يصيبهم، ينتقلون إلى نقيض ما هم عليه، وتجعلهم يهيمون به وينجزون فيه أعمالا، — إلى أن يخرجهم منه عدم محالفة النجاح لهم هناك أيضا : وهكذا يظلون هائمين على وجوههم، مغامرين وعنيفين، مخالطين للكثير من الممالك والطباع البشرية المختلفة، وقد يصبحون في نهاية المطاف ذوي خبرة كبيرة بفضل معرفتهم الواسعة بالناس والأشياء التي اكتسبوها أثناء مغامراتهم، وبفضل تهذيبهم لغرائزهم. وهكذا يتحول عيب في المزاج إلى مدرسة في النبوغ.

453

شغور أخلاقي. — من يستطيع الآن أن يصف لنا ما سيحل محل الأحاسيس والأحكام الأخلاقية؟ — وإن كنا نعلم أنها ترتكز على أسس معيبة، وأن صرحها مستحيل الإصلاح : يتناقص إقرارها يوما بعد يوم، ولا يتناقص إقرار العقل. لكي نقوم من جديد بتشييد صرح قوانين الحياة والعمل لا يمكننا التعويل على علوم الفسلجة، والطب، وعلم الاجتماع والوحدة، لأنها ليست واثقة من نفسها بما فيه الكفاية : ومع ذلك فهي العلوم التي بإمكاننا أن نستعير منها أحجار الأساس لمثل أعلى جديد (إن لم يكن ذلك المثل الاعلى ذاته). إننا نعيش إذن حياة تمهيدية أو متأخرة، وفق ذوقنا أو مواهبنا، وأفضل ما يمكن أن نفعله في فترة الشغور الأخلاقي هاته هو أن نكون سلاطين نفوسنا ما أمكن، وأن نبني دويلات تجريبية صغيرة. نحن تجارب : فلنكن تجارب عن طيب خاطر!

454

توقفٌ. — لم أكتب ذا الكتاب لتتم قراءته من البداية على النهاية بسرعة، ولا ليقرأ بصوت مسموع؛ على القارئ أن يفتحه أغلب الوقت، خاصة وهو يتفسح أو وهو مسافر؛ يجب أن يستطيع الغوص إلى أعماقه، ثم ينظر حوله فلا يرى شيئا مألوفا.

455

الطبيعة الأولى. — الطريقة التي بها تتم تربيتنا اليوم تكسبنا طبيعة ثانية: تصبحا طبيعتنا حين يقولون عنا أننا أصبحنا ناضجين، ومتحررين، وقابلين للاستخدام. وقليلون منا من يستطيعون يوما، كالحية، أن يتخلصوا من هاته الطبيعة وقد أصبحت الطبيعة الأولى تحتها ناضجة. أما لدى الأغلبية فتكون بذرتها قد قتلت تماما.

456

فضيلة في إطار الصيرورة. — التأكيدات والوعود كالتي يقدمها لنا الفيلسوف الإغريقي حول الانسجام بين الفضيلة والغبطة، أو تلك التي تقدمها لنا المسيحية بقولها: «اجعلوا هدفكم الاول هو ملكوت الرب وستنالون كل ما تبقى فضلا عنه!» — لم تتم صياغتها يوما بصدق تام، ولكن دون الإحساس بالذنب: كانت تلك المقولات التي يريدون اعتبارها صحيحة تقدم بجرأة، كما لو كانت هي الحقيقة نفسها، وإن كانت متعارضة مع الظاهر، دون أن يشعر مقدموها بندم ديني أو أخلاقي — لأنهم بتبجيلهم الكبير للفضيلة أو للرب أخلوا بالحقيقة، عن غير قصد أناني ! لا يزال عدد من الناس الطيبين يكتفون بهاته الدرجة من الحقيقة: حين يشعرون بأنفسهم مترفعين يعتقدون انه يسمح لهم بالاستخفاف بالحقيقة. لنتفكر في عدم وجود الصدق ضمن الفضائل المسيحية ولا ضمن الفضائل السقراطية؛ إنه فضيلة شابة، لا تزال غير مكتملة النضج، غالبا ما لا يعرفونها أو يخلطون بينها وبين غيرها؛ إنها بالكاد تعي نفسها، فهي لا تزال في طور التطور، ويمكننا عرقلتها أو تسريعها، وفق ميول عقلنا.

457

آخر كتمان. — هناك من الناس من يدخل في مغامرة كمغامرة الباحثين عن الكنوز: يكتشفون صدفة لدى نفس أجنبية تلك الأشياء التي ظلت تخفيها ويستمدون منها معرفة غالبا ما يكون من الصعب حملها ! قد نعرف الأحياء والأموات، في بعض الظروف، ونطلع على أسرار أرواحهم إلى حد يصبح معه من الصعب علينا أن نفسر ذلك للآخرين: فكل كلمة نقولها تجعلنا نخشى أن نفشي أسرارهم. — قد أتخيل بسهولة أنني أشد المؤرخين حكمة أصابه الخرس فجأة.

458

النصيب الكبير. — هناك شيء شديد الندرة يجعلك تطير فرحا: أقصد الإنسان الذي تم تكوين عقله بطريقة رائعة والذي يملك كذلك شخصية، وميولا ويقوم في الحياة بالتجارب التي تناسب ذلك.

459

سخاء المفكر. — كان لروسو وشوبنهاور ما يكفي من الكبرياء ليجعلا شعار حياتهما هو : تكريس الحياة للحقيقة vitam impendere vero. وكم عانى كبرياؤهما معا لكونهما لم ينجحا في تكريس الحياة للحقيقي ! الحقيقي، مثلما فهمه كل واحد منهما — أي رؤية حياتهما تجري بجانب معرفتهما، ككمان جهير نزوي لا يريد أن ينسجم مع اللحن. — وستكون المعرفة في وضع محزن لو قيست فقط بقدر انسجامها مع جسد المفكر ! كما سيكون المفكر هو كذلك في وضع محزن لو أن غروره كان كبيرا جدا بحيث يكون هذا الضبط وحده هو ما يستطيع تحمله. هذا هو ما تبرز فيه أجمل فضيلة لدى المفكر : سخاؤه في التضحية بنفسه، بحياته، حين يبحث عن المعرفة، وهو مهان، وبسخرية كبيرة — وهو يبتسم.

460

استخدام أوقاتنا الخطيرة. — نتعلم كيف نعرف إنسانا أو وضعا ما بشكل مخالف حين توشك كل حركة أن تجعل الخطر يحدق، بالنسبة لنا ولأقاربنا، بالشرف، والحياة أو بالموت : لا شك أن تيبيريوس قد فكر عميقا في نفس الإمبراطور أوغسطس ومُلكه، وعرفهما أفضل مما قد يعرفهما المؤرخ اللبيب. وبالمقارنة معه فإننا نعيش في حالة من الأمن الشامل لا تساعدنا على أن نعرف النفس الإنسانية معرفة جيدة : فأحدنا يكتسب معرفته بها إرضاء لنزواته، وآخر لأنه لا عمل له، وثالث بفعل العادة؛ لا يقولون أبدا لأنفسهم : «اعرفْ وإلا هلكتَ !» ما دامت الحقائق لا تكتب على أجسادنا بطعنات السكين فإننا ننظر إليها في قرارة نفوسنا بما يشبه الازدراء : تبدو لنا «أحلاما مجنحة»، قد نبلغها أو لا نبلغها، حسب مل تمليه مشيئتنا، — وكأننا نستطيع أن نفيق منها كما نفيق من حلم !

461

هنا رودس، هنا سالط. — موسيقانا التي تستطيع أن تتخذ أي شكل لأنها، كشيطان البحر، ليست لها شخصية خاصة بها : هاته الموسيقى سكنت فيما مضى

عقل العالم المسيحي، وحولت مثله الأعلى إلى تناغمات : لماذا لا تعثر على تلك التناغمات الصافية، والمرحة، والشاملة التي تناسب المفكر المثالي؟ — موسيقى يستطيع أن يهدهدها بلا تكلف تحت القباب الواسعة لنفسه؟ — كانت موسيقانا حتى الآن عظيمة، وجيدة: ولم تكن تعرف المستحيل. فلتظهر لنا أنها تستطيع التعبير عن هاته الأشياء الثلاثة : العظمة، النور العميق والدافئ، وفرحة المنطق السامي!

462

علاج بطيء. — تتكون أمراض الجسد المزمنة كما تتكون أمراض الروح المزمنة، ونادرا ما تتكون إثر تقصير الجسد والروح مرة واحدة تقصيرا شديدا في حق العقل، إنما بعد التقصير في ذلك عدة مرات تقصيرا ضئيلا لا يكاد يثير الانتباه. — فالذي يتنفس تنفسا قليلا جدا، يوما بعد يوم، ولا يدخل إلى رئتيه إلا كمية صغيرة جدا من الهواء، وبالتالي لا يطلب منهما القيام بمجهود كاف ولا يشغلهما بما فيه الكفاية، يصاب في نهاية المطاف بالتهاب رئوي مزمن : ولا يمكن علاج مثل هاته الحالة إلا بمعالجة العادات السيئة، شيئا فشيئا، بعادات مضادة وبعض التمارين، كأن يلزم المريض بهذا نفسه بأن يتنفس على رأس كل ربع ساعة بشكل عميق وقوي (مستلقيا على بطنه إن أمكن؛ عليها حينه أن يستعين بساعة تعد الثواني وتدق على رأس كل ربع ساعة). هاته العلاجات بطيئة ودقيقة، وعلى الذي يريد أن يعالج روحه أن يفكر، هو كذلك، في تغيير أصغر عاداته. هذا شخص يخاطب المحيطين به عشر مرات في اليوم بكلام سمته الفتور والسوء ولا يكترث لذلك كثيرا، ولا يتنبه إلى انه سيكون، بعد عشر سنين، قد جعل من ذلك قانون العادة الذي سيجبره آنذاك على إزعاج المحيطين به عشر مرات. ولكن يمكنه أن يتعود على الإحسان إليهم عشر مرات في اليوم !

463

اليوم السابع. — «تطرون هذا باعتباره خلقي؟ ما قمت إلا بتخلصي مما يزعجني ! روحي أسمى من غرور الخلاقين. — تطرون هذا باعتباره استسلامي؟ ما قمت إلا بتخلصي مما يزعجني ! روحي أسمى من غرور المستسلمين.»

464

حياء الذي يعطي. — إنه لأمر لا كرم فيه أن يمثل الإنسان باستمرار دور الذي يعطي وينشر معروفه بالظهور في كل مكان ! الكرم في أن يعطي المرء وينشر معروفه وهو يخفي اسمه وفضله ! أو ألا يكون له اسم على الإطلاق، كالطبيعة العمياء التي تواسينا لأننا لا نجد فيها من يعطي وينشر معروفه، إنسان «يبدو الإحسان على وجه» ! إنكم تفسدون علينا حتى هاته المواساة، فقد وضعتم إلها في هاته الطبيعة — ففقد كل شيء حريته وأصبح يعاني من الإكراه. كيف؟ ألن يكون لنا الحق أبدا في أن نكون وحيدين مع أنفسنا؟ هل سنكون دائما تحت المراقبة، والحراسة، ويتم إزعاجنا، ومكافأتنا؟ إذا كنا سنجد على الدوام أحدا حولنا فسيكون من المستحيل القيام بأفضل أفعال الشجاعة والطيبة. قد نغرى للتعامل مع أي شيطان بسبب هذا التطفل السماوي، بسبب هذا الجار الخارق الذي لا مفر منه ! — ولكن لا داعي لذلك، لم يكن ذلك إلا حلما ! فلنستيقظ!

465

أثناء اللقاء. — أ : إلام تنظر؟ مضى وقت طويل وأنت متسمر هكذا؟ — : إنه نفس الأمر الذي يحدث معي دائما، ودائما أجده جديدا ! الاهتمام الذي يثيره لدي شيء ما يجعلني أتبعه على مسافة بعيدة بحيث أصل في نهاية المطاف إلى عمقها وأتنبه إلى أنها لا تستحق كل ذلك العناء. في نهاية كل تلك التجارب أشعر بنوع من الحزن والذهول. يحدث لي هذا بشكل مصغر إلى حدود ثلاث مرات في اليوم.

466

ما نفقده بالشهرة. — ما أحسن أن نستطيع التحدث إلى الناس ونحن مجهولون ! تسلبنا الآلهة «نصف فضائلنا» حين تحرمنا من جهل الناس بنا وتجعلنا مشهورين.

467

صبر مضاعف ! — «بهذا تتسبب في المعاناة لكثير من الناس.» — أ'رف ذلك وأعرف أنه علي أن أتألم لذلك مرتين، بسبب إشفاقي عليهم من المعاناة، وبسبب كونهم سينتقمون مني. ورغم هذا فمن الضروري أن أتصرف على هذا النحو.

468

إمبراطورية الجمال أكبر. — مثلما نتجول في الطبيعة، لطيفين ومسرورين، لنباغت في كل شيء جماله الخاص، كأنما في حالة تلبس، كذلك نبذل مجهودا، تارة والسماء مشمسة، وتارة وهي مكفهرة ومنذرة بالعاصفة، لنرى هذا الجانب من الشاطئ بصخوره، ووشائعه، وأشجار الزيتون والصنوبر، بمظهر الكمال: وكذلك علينا نحن أيضا أن نتجول وسط الناس، كالمستكشفين والمفتشين، محسنين ومسيئين إليهم ليظهر لنا جمالهم الخاص، مشمسا عند هذا، وعاصفا عند ذاك، لا يتفتح عند هذا ثالث في منتصف النهار وتحت سماء ممطرة. أمن الممنوع أن نستمتع بالرجل الخبيث كما نستمتع بمنظر طبيعي، له سماته الجريئة ومؤثراته الضوئية الخاصة به، والحالة أن هذا الإنسان نفسه يبدو لنا، ما دام يجعل من نفسه إنسانا طيبا يحترم القانون، كخطأ في الرسم أو كرسم ساخر ويسبب لنا المعاناة كعيب في الطبيعة ؟ — هذا ممنوع بكل تأكيد : لم يكن مسموحا بالبحث عن الجمال حتى الآن إلا في ما هو طيب أخلاقيا، — وهو ما يجعل عدد الأشياء الجميلة التي نعثر عليها قليلا جدا ويجبرنا على البحث عن أشياء جميلة خيالية بلا لحم أو دم ! — فكما لدى الأشرار أنواع عديدة من السعادة، والتي لا يشتبه الفضلاء في وجودها، كذلك توجد لديهم أنواع عديدة من الجمال : ولا تزال الكثير منها لم تكتشف بعد.

469

لاإنسانية الحكيم. — يجب أن تظهر لدى الحكيم، من حين آخر، علامة إنسانية متسامحة ولينة إلى جانب مظهره الثقيل الذي يحطم كل شيء والذي، كما

يقول النشيد البوذي، «يمشي وحيدا كوحيد القرن»؛ ليس فقط في هاته الخطوات السريعة وفي طريقة فهم الأشياء والتعبير عنها، أو في هاته الإشراقات والسخرية من الذات، بل كذلك في نوع من التناقض، والعودة العرضية إلى السخافات الشائعة. لكي لا يكون الحكيم الذي يريد أن يعلم الناس كالمرداس الذي يتقدم كالقدر عليه ان يستخدم عيوبه لتجميل نفسه، وحين يقول «احتقروني!» فإنه يلح في طلب أن يكون هو المدافع عن حقيقة مغتصبة. يريد أن يمضي بكم إلى الجبال، قد يعرض حياتكم للخطر: لذلك يسمح لكم عن طيب خاطر بأن تنتقموا، قبل ذلك أو بعده، من مرشد مثله، — بدفعه هذا الثمن يضمن لنفسه أن يسير أمام الآخرين، كالقائد الموجِّه. — هل تذكرون الفكرة التي راودتكم حين قادكم ذات يوم عبر مغارة مظلمة، على درب زلِق؟ كان قلبكم يخفق وأنتم تقولون لأنفسكم بحماس: «قد يفعل هذا المرشد أفضل من مجرد الزحف على هذا الدرب! إنه ينتمي لصنف من الكسالى كثيري النمول — ألا نشرفه كثيرا بتظاهرنا بإعطائه قيمة، باتباعنا إياه؟»

470

في مأدبة الحشد الغفير. — كم نكون سعداء حين نأكل، كالعصافير، من يد إنسان واحد يرمي لها الحبوب دون أن ينظر إليها عن كثب، دون أن يعرف ما إن كانت تستحق ذلك! أن أعيش كعصفور يأتي ثم يحلق وهو لا يحمل في منقاره أي اسم! تلك سعادتي أن آكل حتى الشبع في مأدبة الحشد الغفير.

471

حب آخر للقريب. — المظهر المضطرب، والصاخب، الذي لا مثيل له، والعصبي يتعارض مع العشق الكبير: هذا العشق الذي يظل في أعماق الإنسان كنار جمر خامدة وقاتمة، تجمع هناك الحرارة والاندفاع، يمكن الإنسان من النظر إلى الخارج، بهدوء ولامبالاة، ويطبع الملامح بنوع من البرودة. مثل هؤلاء الناس يكونون قادرين عند الاقتضاء على إظهار المحبة للقريب، — ولكنها محبة مختلفة

عن محبة الناس الاجتماعيين والمتعطشين لإعجاب الآخرين : تتجلى بوضوح في عطف لطيف، تأملي وهادئ. ينظر هؤلاء الرجال من أعلى برجهم، الذي هو حصنهم وسجنهم : — ونظرهم إلى الخارج، نحو ما هو غريب ومختلف، يريحهم.

472

لا تبرر أبدا. — أ : لماذا ترفض أن تبرر؟ — ب : أستطيع تبرير هذا وعدة أمور أخرى، ولكنني أحتقر اللذة التي في التبرير : لأن كل ذلك لا يهمني كثيرا، وأفضل أن تظل عيوبي لصيقة بي على جعل هؤلاء الحقراء يتلذذون بغدر ويقولون : «إنه يولي أهمية كبيرة لهاته الأمور!» هذا بالضبط هو ما ليس صحيحا ! ربما يكون علي أن أولي اهتماما أكبر لنفسي لأصحح الأفكار الخاطئة التي يكونها الناس عني؛ — إنني لا أكترث ولا أبالي كثيرا بنفسي، وبالتالي بما أكون السبب في إثارته.

473

أين يجب أن نبني بيتنا. — إن كنت تشعر بنفسك عظيما وتنتج أكثر وأنت وحيد فإن معاشرة الناس ستقلل من شأنك وتجعلك عقيما : والعكس صحيح. حيثما شعرت بلطف قوي كلطف الأب فثمة يجب أن تشيد بيتك — سواء كان ذلك وشط الحشد الصاخب أو في مملكة الصمت. حيثما يكون أبوك فثمة وطنك ubi pater sum, ibi patria.

474

الطرق الوحيدة. — «الجدل هو الطريق الوحيدة الموصلة إلى الخالق، إلى ما وراء حجاب الظاهر» — هذا ما زعمه أفلاطون بنفس الإجلال والعشق الذي زعم به شوبنهاور ذلك بخصوص نقيض الجدل، — وقد أخطأ كلاهما. لأن الذي يريدان أن يريانا الطريق إليه لا وجود له على الإطلاق. ألم تكن كل أشكال العشق الكبير الذي عرفته الإنسانية حتى اليوم، كهذا العشق، عشقا للعدم؟ وهذا الإجلال كله كان إجلالا للعدم؟

475

الثقل. — إنكم لا تعرفونه : يمكنه أن يشد إليه الكثير من الأثقال ويصعد بها إلى الأعالي. وإذ ترونه يشد إليه تلك الأثقال تحكمون، من خلال انطلاقتكم الضعيفة، بأنه يريد البقاء في الأسفل.

476

عيد حصاد العقل. — يوما عن يوم تزداد وتتراكم التجارب، وأحداث الحياة، والتأمل فيها، والأحلام التي يثيرها ذلك التأمل، — فتتكون من ذلك ثروة ضخمة ومثيرة للحماس ! مظهرها يصيبنا بالدوار؛ لم أعد أفهم كيف يمكن وصف فقراء العقل بالسعداء ! — ولكنني أحسدهم أحيانا، حين أكون متعبا : فتدبير مثل هاته الثروة أمر صعب، وكثيرا ما تقضي هاته الصعوبة على السعادة بكل أشكالها.
— واأسفاه ! ليتنا نستطيع الاكتفاء فقط بتأمل ثروتنا ! ليتنا كنا بخلاء بمعرفتنا !

477

متحرر من الشك. — أ : «هناك من يخرج من الشك الأخلاقي الشامل ضجرا وضعيفا، منخورا، بل نصف منهك، — اما أنا فأخرج منه بشجاعة أكبر وصحة أفضل، وبغرائز استعدت السيطرة عليها. حين يكون النسيم حادا، والبحر في حالة مد، ولا تعود هناك أخطار صغيرة يجب التغلب عليها، أبدأ في الشعور بالراحة. لم أتحول إلى دودة رغم أنني اضطررت في كثير من الأحيان للعمل والنخر كالدودة.» ب : «لأنك لم تعد تشك، بل تجحد !» — أ : «وقد تعلمت من ذلك أيضا أن أقول نعم.»

478

لنمض. — راعوا جانبه ! دعوه لوحدته ! هل تريدون تحطيمه تماما ؟ لقد تشقق ككأس أفرغنا فيه سائلا شديد السخونة، — وهو مصنوع من مادة ثمينة !

479

الحب والحقيقة. — لقد أصبحنا، بسبب الحب، مجرمين خطيرين على الحقيقة، أصبحنا بفعل العادة لصوصا ومخبئين للمسروقات نطالب بحقائق أكثر من التي نقبلها، — لهذا يجب على المفكر أن يجعل الذين يحبهم يفرون منه بين الفينة والاخرى (ليسوا بالضبط هم من يحبونه)، وذلك ليكشفوا عن منخسهم وخبثهم ويكفوا عن إغرائه. لهذا سيكون لطيبة المفكر أن يكون لها قمرها النامي والمتناقص.

480

لا يمكن تفاديه. — أيا يكن ما يصيبك فإن الذي لا يريد لك خيرا سيجد في ما أصابك ذريعة ليقلل من شأنك ! لو عانيت من أشد الاضطرابات في العقل والمعرفة وتمكنت في الأخير، كمتماثل للشفاء، وبابتسامة من يعتصره الالم، من بلوغ الحرية ومملكة النور الصامتة فسيكون هناك دائما من يقول : «إنه يستخدم مرضه كحجة، وعجزه كدليل على عجز كل الناس؛ غروره هو الذي يدفعه للمرض ليشعر بتفوق الذي يتألم.» ولو افترضنا أن شخصا حطم قيوده وأصيب بجروح بسبب ذلك فسيلمح آخر إلى ذلك ساخرا بقوله : «ما أشد رعونته، سيقول، كل من ألف قيوده ودعته حماقته لتحطيمها سيصيبه ما أصاب هذا!

481

ألمانيان. — إذا قارنا كانط وشوبنهاور وع أفلاطون، وسبينوزا، وباسكال، وروسو، وغوته، من حيث الروح وليس العقل : سنتنبه إلى أن هذين المفكرين هما الأضعف : أفكارهما لا تمثل تاريخا عاشقا للروح، ليست هناك رواية يمكن تخمينها، ولا أزمات، ولا كوارث أو ساعات ضيق، كما أن فكرهم ليس سيرة غيرية غير مقصودة للروح، بل هو عند كانط سيرة غيرية للمخ، وعند شوبنهاور وصف وانعكاس لطبع (طبع «لا يتغير») والفرحة المأخوذة من «المرآة» نفسها، أي من عقل من الطراز الأول. يظهر كانط، حين نراه من خلال أعماله، شجاعا

ومحترما بالمعنى الأفضل لهاتين الكلمتين، ولكن تافها: تنقصه الشمولية والقوة؛ لم يعش كثيرا وطريقته في العمل تأخذ منه الوقت الذي يلزمه ليعيش أمورا ما، — لا أريد الحديث، طبعا، عن «أحداث» الخارج الفظة، وإنما عن الاقدار والتغيرات التي تطرأ على الحياة التي تطبعها الوحدة والصمت، حين يكون لها ما تتسلى به ومع ذلك تستنزف قواها في العشق والتأمل. ويتقدمه شوبنهاور بشيء ما: نجد لديه نوعا من القبح الشديد الطبيعي، في الحقد، والرغبات، والغرور، والريبة، له ميول أكثر شراسة، وقد كان له الوقت وأوقات الفراغ لتلك الشراسة. غير أنه ينقصه «التطور»، كما ينقص التطور أفقَه الفكري؛ لم يكن له «تاريخ».

482

اختيار من نعاشر. — هل تستكثرون علينا سعينا لمعاشرة رجال أصبحوا لطفاء، ومقبولين من طرف ذوقنا ومغذين، كثمار القسطل التي أدخلناها الفرن في الوقت المناسب وأخرجناها منه في اللحظة المناسبة؟ رجالٍ ينتظرون من الحياة شيئا قليلا ويفضلون قبولها كهدية على استحقاقها، وكأنها جاءتهم محمولة من قبل العصافير والنحل؟ رجالٍ لن يشعروا أبدا، من فرط كبريائهم، أنهم قد كوفئوا؟ ولن يكون لهم وقت لمجاملة المجد من فرط جديتهم في العشق والمعرفة واستقامتهم؟ — هؤلاء الرجال نسميهم فلاسفة، وسيجدون دائما لأنفسهم اسما أكثر تواضعا.

483

التقزز من الإنسان. — أ: ابحث عن المعرفة! أجل! ولكن على شكل إنسان! كيف؟ هل علي أن أشاهد باستمرار نفس الملهاة، وألعب باستمرار دورا في نفس الملهاة؟ ألا أتأمل الأشياء إلا بهاتين العينين نفسهما؟ وكم سيكون هناك من الكائنات التي لا تعد المؤهَّلةُ أعضاؤُها للمعرفة! — تلك الأعضاء! ربما يعني هذا: استحالة المعرفة! بؤس واشمئزاز! — ب: لقد انتابتك نوبة خبيثة، — العقل يهاجمك! ولكنك غدا ستجد نفسك من جديد في قلب المعرفة، وبالتالي في

قلب الجهل، أعني في خضم الفرحة التي يدخلها عليك كل ما هو إنساني. هيا بنا إلى البحر !

484

طريقنا. — حين نقوم بالخطوة الحاسمة وننخرط في السير على الطريق التي هي «طريقنا» فجأة ينكشف أمامنا سر : كل الذين كانوا أصدقاءنا أو تجمعنا بهم الألفة، — كلهم قد ادعوا تفوقهم علينا ويشعرون الآن بأننا أسأنا إليهم. أفضلهم يتسامحون معنا وينتظرون منا أن نعود إلى «الطريق المستقيم» — الذي يعرفونه جيدا ! الآخرون يسخرون منا ويتظاهرون بالاعتقاد أننا أصبنا بجنون عابر، أو يعينون من سيغرينا. أما أخبصهم فيعلنون أننا مجانين ويسعون لتجريم بواعث تصرفنا؛ وأسوأهم جميعا يرى فينا عدوه الدود الذي جعلته التبعية التي عانى منها مدة طويلة متعطشا للانتقام، — فيخاف منا. ماذا علينا أن نفعل إذن؟ ما يلي : أن نبدأ عهدنا أن نضمن مسبقا ولمدة عام عفوا شاملا عن أصدقائنا وكل ما اقترفوه من آثام.

485

آفاق بعيدة. — أ : لماذا أنت وحيد؟ — ب : إنني لم أخاصم أحدا. أعتقد أنني حين أكون وحيدا أرى أصدقائي بشكل أفضل، أراهم في جو ملائم خلافا لما أراهم عليه حين أكون قريبا منهم، ويوم كنت أحب الموسيقى أكثر، حين كان لي إحساس دقيق بها، كنت أحيا بعيدا عنها. يبدو أنني أحتاج لآفاق بعيدة لكي أظن بالأشياء خيرا.

486

الذهب والجوع. — نلتقي هنا وهناك رجلا يحول كل ما يلمسه إلى ذهب. ذات يوم سيكتشف أن هاته اللعبة ستؤدي به إلى الموت جوعا. كل ما يحيط به

براق، وبهي، ومثالي، ومنيع، وهاهو الآن يطمح للعثور على أشياء يكون من المستحيل عليه تحويلها إلى ذهب – وما أكبر طموحه لذلك ! كملهوف على الطعام ! – فعلى أي شيء سيضع يده؟

487

عار. – ها هو فرس السباق يضرب بحوافره الأرض ويصهل، إنه يتشوق للسباق ويحب الفارس الذي اعتاد امتطاءه، – ولكن، ياللعار ! الفارس لا يستطيع ركوب الفرس، إنه متعب. – ذلك هو عار المفكر المتعب أمام فلسفته.

488

ضد الإسراف في الحب. – ألسنا نخجل حين نفاجئ أنفسنا متلبسين ببغض شديد؟ علينا كذلك أن نخجل من ودنا العنيف بسبب الظلم الذي ينطوي عليه. الأكثر من ذلك أن هناك أناسا يحزنون ويشعرون بالضيق حين نخصهم – بودنا هم وحدهم بل نخصص منه جزءا لغيرهم. حين يفهمون من لحن القول أنهم هم الذين يتم اختيارهم، تفضيلهم ! مع الأسف ! لا أعترف بهذا النوع من الاختيار، أتنبه إلى أنني أكره الذي يريد تمييزي بهذا الشكل : لا يجب أن يحبني على حساب الآخرين ! أجد عناء في تمالك نفسي ! غالبا ما يطفح قلبي وأجد لدي دوافع حيوية مفرطة – الذي يمتلك كل هذا لا يجب أن نعطيه ما يحتاجه الناس بشكل ملح !

489

الصديق وقت الضيق. – يحدث أحيانا أن نلاحظ أن صديقنا يتفاهم مع شخص آخر أكثر مما يتفاهم معنا، بأن رقته تتعذب من جراء هذا الاختيار وبأن أنانيته ليست في مستوى ذلك القرار : آنذاك يكون علينا أن نسهل عليه مفارقتنا ونهينه لنبعده عنا. – يكون ذلك ضروريا حين نمر إلى طريقة في التفكير ستكون

وخيمة عليه : يجب أن يدفعنا عطفنا عليه، بظلم نتحمل مسؤوليته، لجعله يشعر براحة الضمير ليفارقنا.

490

الحقائق الصغيرة. — «تعرفون كل هذا، ولكنكم لم تعيشوه أبدا، — لا أقبل شهادتكم. هاته "الحقائق الصغيرة" — تبدو لكم صغيرة لأنكم لم تدفعوا دمكم ثمنا لها!» — «فهل تكون كبيرة فقط لأننا دفعنا مقابلها ثمنا باهظا؟ والدم يكون دائما ثمنا أكثر مما ينبغي!» — «تظن ذلك؟... ما أشد بخلك بدمك!»

491

بسبب هذا كذلك أفضل الوحدة. — أ : تريد العودة على صحرائك؟ ب : لست رشيقا، يجب أنة أعول على نفسي، — يتأخر الوقت أحيانا قبل أن تصعد مياه بئر أناي لتصبح ظاهرة، وغالبا ما يكون علي أن أعاني من الجوع أكثر مما أطيقه. لهذا أختار الوحدة، — لكي لا أشرب من الصهاريج الموضوعة ها ليشرب منها عامة الناس. وسط الناس أعيش كالناس ولا أفكر كما أفكر؛ وبعد برهة من الزمن أشعر أنهم يريدون نفيي بعيدا عن نفسي وسرقة روحي مني — فأحقد على كل الناس وأخشاهم جميعا. آنذاك أكون في حادة على الصحراء لكي أعود طيبا.

492

رياح الجنوب. — أ : لم أعد أسمع صوتي ! البارحة أيضا كنت أشعر بالعاصفة في داخلي، شيئا ساخنا ومشمسا وشديد الصفاء. واليوم ! ها قد أصبح كل شيء هادئا، وشاسعا، وسوداويا وقاتما كالبحيرة الشاطئية في البندقية : — لا أريد شيئا وأتنفس الصعداء، ولكنني مغتاظ خفية من كوني «لا اريد شيئا» : — هكذا تتلاطم الأمواج هنا وهناك في بحيرة سوداويتي. — ب : إنك تصف هنا مرضا بسيطا وممتعا. والريح التي ستهب في المرة المقبلة من الشمال الشرقي ستخلصك منه !
— أ : لمَ إذن!

493

على شجرتنا الخاصة. — أ : «لا أجد في فكرة أي مفكر من المتعة قدر ما أجده في أفكاري أنا : صحيح أن هذا لا يخدمها في شيء، ولكنني سأرتكب حماقة إن حرمت نفسي من ثمار لذيذة لمجرد كون هاته الثمار تنمو صدفة على شجرتي أنا ! وقد سبق لي أن ارتكبت هاته الحماقة.» — ب : «العكس هو ما يحدث لدى آخرين : ولا يقدح هذا بتاتا في قيمة أفكارهم ولا في قيمتهم هم.»

494

آخر حجج الشجاع. — «في هذا الدغل توجد أفاعي. — حسنا، سأدخل هذا الدغل وأقتلها. — ولكن ربما كنت ضحيتها قل أن تقتلها ! — ما أهميتي !»

495

أساتذتنا. — في شبابنا نتخذ أساتذتنا من الحاضر ومن الدوائر التي تضعنا فيها الصدفة : تكون لدينا قناعة راسخة بأننا سنجد في الحاضر أساتذة سيخدموننا أكثر من سوانا، وأنه علينا أن نجدهم دون أن نبحث عنهم. ولاحقا نعاني كثيرا بسبب ذلك التصرف الصبياني : يجب أن نكفر نحن عما ارتكبه أساتذتنا. آنذاك قد نجوب العالم كله، حاضرا وماضيا، بحثا عن المرشدين الحقيقيين، — وربما يكون الأوان قد فات. وفي أسوأ الحالات نكتشف أنهم قد عاشوا يوم كنا شبابا — وبأننا قد أخطأنا آنذاك.

496

المبدأ السيئ. — لقد بين أفلاطون بشكل رائع أن المفكر الفيلسوف سيعتبر حتما، في كل مجتمع قائم الذات، نموذج كل شر : لأنه بانتقاده للأخلاق يكون نقيض الإنسان الأخلاقي، وإذا لم يصبح هو مشرع الأخلاق الجديدة فإن الناس

سيذْكرونه تحت اسم «المبدأ السيئ». من خلال هذا يمكننا أن نخمن ما فعلته أثينا، المتحررة والمجدِّدة، بسمعة أفلاطون وهو حي : ما المدهش إن كان هذا الذي يمتلك «الغريزة السياسية» في بطنه، كما يقول — قد حاول القيام بالإصلاح ثلاث مرات في صقلية حيث كانت دولة متوسطية تجمع كل الإغريق تحاول تنظيم نفسها على ما يبدو؟ في هاته الدولة ومن خلالها كان أفلاطون يفكر في أن يصنع للإغريق ما صنعه محمد للعرب لاحقا في مكة : تحديد العادات الصغيرة والكبيرة وخاصة طريقة الحياة اليومية لكل فرد. كان تحقيق أفكاره ممكنا كما تحققت أفكار محمد : ألم يتبين أن أفكارا غريبة، هي أفكار المسيحية، ممكنة التحقيق؟ — لو لم تعترضها بعض الصدف هنا، وحالفتها بعض الصدف هناك — لشهد العالم جنوب المتوسط الأوربي يتحول على عالم يعيش على أفكار أفلاطون : ولو أن تلك الظروف دامت لربما كنا نبجل اليوم في أفلاطون «المبدأ الخيِّر». ولكن النجاح لم يكن حليفه : وبذلك ظل معروفا بكونه حالما وطوباويا، — أما الصفات الأكثر قسوة فقد اختفت باختفاء أثينا القديمة.

497

النظرة المطهِّرة. — من الأفضل أن نتحدث عن «العبقرية» لدى رجال مثل أفلاطون، وسبينوزا، وغوته، الذين يبدو أن العقل لا يرتبط لديهم بالطبع والمزاج إلا بشكل ضعيف، ككائن مجنح ينفصل عنهما بسهولة ويستطيع عندها التحليق فوقهما عاليا. وعلى العكس نجد الذين تزينوا بإصرار ب«عبقريت»هِم هُم أولئك الذين لم يتمكنوا أبدا من التخلص من مزاجهم وعرفوا كيف يضفون عليه دلالة روحانية كبيرة وشاملة، دلالة كونية، حتى في بعض الظروف (شوبنهاور مثلا). هؤلاء العباقرة لم يستطيعوا التحليق بعيدا عن أنفسهم، ولكنهم ظنوا أنهم يجدون أنفسهم، أو يجدونها من جديد، حيثما حلقوا، — تلك هي «عظمت»هم، وقد يكون ذلك عظمة ! — الآخرون الذي يوصفون بالعظمة لهم نظرة طاهرة ومطهِّرة يبدو أنها لا تمت بصلة إلى مزاجهم وطبعهم، ولكنها حين تكون متحررة منهم، وفي تناقض لطيف معهم في الغالب، تتأمل العالم كما لو كان إلها، إلها تحبه.

وهاته النظرة لم يكتسبوها دفعة واحدة. بل جاءت بعد تهييء وتعلم لفن الرؤية، والمحظوظ الحقيقي يجد في الوقت المناسب أستاذا يعلمه النظرة الطاهرة.

498

عدم التطلب. — لا تعرفونه ! صحيح أنه يخضع بسهولة للناس وللأشياء، وطيب مع كل هؤلاء — كل ما يطلبه هو أن يدعوه وشأنه — ولكن فقط ما دام الناس والأشياء لا يطالبونه بالخضوع . التطلب يجعله فخورا، جفولا ومحبا للقتال.

499

الشرير. — «الوحيد هو وحده الشرير»، قال ديدرو : وهو ما جعل روسو يشعر بأنه هو المقصود ورأى في ذلك إهانة بالغة. مما يدل على اعترافه بأن ديدرو على صواب. صحيح أن كل غريزة خبيثة تجد نفسها مضطرة لأن تلزم نفسها، في المجتمع والعلاقات الاجتماعية، بمثل هذا الإكراه، مضطرة لوضع العديد من الأقنعة، والتمدد في سرير بروكست الفضيلة، بحيث يمكننا الحديث بالفعل الحديث عن عذاب الإنسان الشرير. في الوحدة يختفي كل هذا. الشرير هو الذي يكون وحيدا أكثر من سواه : وكذلك أفضل من سواه — والذي لا ترى عينه في كل مكان إلا مشهدا تراه هنا بشكل أفضل وأكمل.

500

في الاتجاه المعاكس. — قد يجبر مفكر نفسه طيلة عدة سنوات على التفكير في الاتجاه المعاكس : أي ألا يتبع الأفكار التي تأتيه، نابعة من داخله، بل تلك التي يجبره على اتباعها على ما يبدو عمل ما، أو توقيت محدد، أو طريقة اعتباطية في الاجتهاد. وفي الأخير يصاب بالمرض : لأن هذا الإكراه الأخلاقي الظاهر يدمر قوته العصبية تماما كما قد يدمرها الفجور لو اتخذه قاعدة.

501

أرواح فانية. — أهم فتح مفيد تم من وجهة نظر المعرفة هو العدول عن الإيمان بالروح الخالدة. الآن أصبح بوسع الإنسانية أن تنتظر، لم تعد في حاجة للاستعجال وقبول أفكار لم يتم التأكد منها جيدا، كما كان عليها أن تفعل فيما مضى. لأن خلاص «الروح الخالدة» المسكينة آنذاك كان يتوقف على ما اكتسبته من معارف خلال حياة قصيرة، كان عليها أن تقرر ما بين اليوم والغد، — كانت لـ«المعرفة» أهمية مرعبة ! لقد استرجعنا شجاعة التيه، والمحاولة، والأخذ المؤقت — كل هذا ليست له أهمية كبيرة ! — وهذا هو ما يجعل أفرادا، بل وأجيالا بكاملها، تأخذ على عاتقها القيام بمهام عظيمة إل حد كانت تبدو معه فيما مضى كالجنون وكلعبة زندقة يلعبها صاحبها مع الجنة والجحيم ! لنا الحق في إجراء تجارب مع أنفسنا ! بل الإنسانية كلها لها الحق في ذلك ! إننا لم نقم بعد بتضحيات كبيرة من أجل المعرفة، — أجل، فمجرد الاشتباه في أفكار مثل هاته التي تسبق أفعالنا كان سيعتبر انتهاكا للحرمات وعزوفا عن الخلاص الأبدي.

502

كلمة واحدة لثلاث حالات مختلفة. — يفجر العشق في هذا شهواته الحيوانية المرعبة والتي لا تطاق؛ وذاك يسمو به إلى علو، ورحابة وبهاء في الموقف يجعلون حياته اليومية تبدو حقيرة. وثالث، فيه كل خصال النبل، يظل نبيلا في اندفاعه ويمثل، في هاته الحالة، الطبيعة المتوحشة والجميلة، التي هي أدنى بدرجة واحدة من الطبيعة الكبيرة الجميلة التي تمثلها عادة؛ ولكن الناس يفهمونه أكثر حين يكون عاشقا ويبجلونه أكثر بسبب تلك اللحظات، — آنذاك يكون أقرب منهم وأشبه بهم. يبتهجون بذلك المظهر ويصابون بالرعب منه ويسمونه في تلك اللحظة بالذات : ربانيا.

503

صداقة. — الاعتراض على الحياة الفلسفية بحجة أنها تصير المرء غير نافع لأصدقائه لا يمكن أن تخطر على بال إنسان معاصر : إنها قديمة. فالعصور القديمة عرفت مفهوم الصداقة بقوة وعمق، بل كادت تأخذه معها إلى القبر. تلك ميزتها علينا : ويمكننا أن نقابله بالحب الجنسي المؤمثَل. كل الأشياء العظيمة التي حققتها الإنسانية في تلك العصور تستمد قوتها من كون الرجل يعضد الرجل وعدم قدرة أية امرأة على الزعم بأنها هي موضوع حب الرجل الأقرب والأسمى، أو حتى موضوعه الوحيد، — مثلما يعلمنا العشق. ربما يكون ما يمنع أشجارنا من بلوغ هذا العلو هو التفاف اللبلاب والدالية عليها.

504

توفيق. — هل تكون مهمة الفلسفة هي أن توفق بين ما تعلمه الطفل وما تعرف عليه الرجل؟ هل تكون الفلسفة هي مهمة الشباب، بما أنهم يقعون ما بين الطفل والرجل ووسائلهم متوسطة؟ يبدو أن الأمر على هذا النحو تقريبا إذا اعتبرنا السن التي اعتاد الفلاسفة أن يكونوا فيها تصوراتهم : وقت يكون فيه قد فات أوان الإيمان ولم يحن أوان المعرفة بعد.

505

العمليون. — نحن المفكرون هم من لنا حق تحديد الذوق السليم بخصوص مل الأشياء والإعلان عنه إذا لزم الأمر. العمليون يستعيرونه منا ويظلون يعتمدون علينا بشكل كبير؛ هذا هو المشهد الأكثر إثارة للسخرية، وإن كانوا يريدون تجاهل اعتمادهم علينا ويحبون وصفنا، بكبرياء، بمن لا يملكون الحس العملي : ولو أننا احتقرنا حياتهم العملية لذهبوا إلى حد احتقارها : وهو ما ستدفعنا غليه من حين لآخر رغبة صغيرة في الانتقام.

506

التجفيف الضروري لكل ما جيد. ـكيف ! يجب أن نفهم عملا كما فهمه العصر الذي أنتج فيه؟ ولكننا أكثر فرحا، واندهاشا، ونتعلم أكثر إن نحن لم نقم لها أي اعتبار أيضا ! ألم تلاحظوا أنه كلما ظل عمل جيد وجديد معرضا لجو عصره الرطب كلما اكتسب أدنى قيمة فيه، لأنه يحتفظ بين ثناياه برائحة الساحة العمومية، ورائحة الجدل، والآراء الحديثة والسريع الزوال الذي يفنى بين عشية وضحاها؟ لاحقا يجفف «راهنيته»، تزول عنه فينجلي بريقه العميق وتتضوع رائحته، وكذا نظرته الهادئة نحو الخلود إن كان الخلود قدره.

507

ضد طغيان الحقيقي. — حتى إذا اعتبرنا كل آرائنا حقيقية بسبب حمقنا فإننا لن نرغب مع ذلك في أن توجد وحدها — : لست أدري لماذا يجب أن نرغب في قوة وطغيان الحقيقة : يكفيني أن أعرف أن للحقيقة قوة كبيرة. ولكن يجب أن تتمكن من المصارعة، وأن تكون لها معارضة، وأن نتمكن من حين لآخر من الاستراحة منها في اللاحقيقي، — وإلا لصارت بالنسبة لنا مملة، وعديمة الذوق وخائرة ولصيرتنا كذلك نحن أيضا.

508

احذروا إثارة الشفقة. — لا يجب أن ننتظر الثناء من الآخرين، ولا أن نثني على أنفسنا مقابل ما نقوم به لمصلحتنا؛ ولا مقابل ما نفعله لنستمتع بأنفسنا. احذروا، في هاته الحالة، أن تتناولوا الأشياء بطريقة مثيرة للشفقة وامتنعوا عن إثارة للشجن، هذه هي النغمة الجيدة لدى الرجال الراقين : والذي اعتاد عليها يستعيد موهبة السذاجة.

509

العين الثالثة. – كيف ! لا زلت محتاجا للمسرح ! ألا تزال شابا؟ تعقل وابحث عن المأساة والملهاة هناك حيث يتم تمثيلهما بشكل جيد ! حيث يتم تمثيلهما بشكل مهم ومهتم ! صحيح أنه يصعب أن تظل هناك مجرد مشاهد، – ولكن عليك أن تتعلم فعل ذلك ! وفي كل الأوضاع التي ستبدو لك صعبة وشاقة ستجد ملاذا ومخرجا يؤدي إلى الفرحة، حتى حين تنقض عليك أهواؤك. افتح عين المسرح لديك، العين الثالثة الكبيرة التي ترى العالم من خلال العينين الأخريين.

510

إفلاتك من فضائلك. – ما أهمية مفكر لا يعرف كيف يفلت من فضائله عند الضرورة ! إذ لا يجب أن يكون «مجرد كائن أخلاقي» !

511

المغرية. – الاستقامة أكبر مغرية للمتعصبين. ما كان يبدو أنه يدنو من لوثر متخذا مظهر شيطان أو امرأة جميلة، والذي قاومه بطريقة فظة، كان ولا شك هو الاستقامة أو ربما الحقيقة، في الحالات الأكثر خطورة.

512

شجاع أمام الأشياء. ـالذي يقيم، وفقا لطبيعته، اعتبارات كثيرة للأشخاص الآخرين ويخشاهم، ولكنه يظل شجاعا أمام الأشياء، يخشى العلاقات والصداقات الجديدة ويحد من القديمة، وذلك ليتم الخلط بين تَخَفيه وراديكاليته في الحقيقة.

513

العراقيل والجمال. — هل تبحث عن رجال لهم ثقافة جميلة؟ عليك إذن أن تقبل وجهات نظر وآفاق محدودة، كما حين تبحث عن بقاع جميلة. — هناك أيضا رجال بانوراميون، وهم مثقفون ومذهلون : ولكنهم بغير جمال.

514

للأقوياء. — أيتها المفكرون الأقوياء والأباة، نطلب منكم شيئا واحدا فقط : لا تضيفوا ثقلا جديدا إلى أثقالنا، ولكن احملوا عنا جزءا من عبئنا، فأنتم الأقوياء ! ولكنكم تحبون العكس : لأنكم تريدون التحليق، لذلك يجب أن نضيف عبئكم إلى عبئنا : أي يجب أن نزحف!

515

ازدياد الجمال. — لماذا يزداد الجمال مع الحضارة؟ لأن موجبات القبح نادرا ما تظهر عند المتحضرين : الأهواء المتوحشة في المقام الأول، والمجهود البدني في أقصى حدوده في المقام الثاني، وفي المقام الثالث ضرورة أن يكون المظهر موحيا بالخوف، هاته الضرورة التي تكون أكبر ومتكررة في الدرجات الدنيا وغير المكينة من الثقافة إلى حد تحدد أنها المواقف والاحتفالات وتجعل من القبح واجبا.

516

لا تدخل شيطانك في القريب. — دعونا لا نذهب في الوقت الحاضر أبعد من الرأي القائل بأن البر والإحسان يشكلان الإنسان الطيب؛ ولكن دعونا نضيف ما يلي : «شريطة أن يعرف كيف يخدم نفس بذلك البر وذلك الإحسان!» لأنه لو فعل خلاف ذلك — لو تهرب من نفسه، أو — حكره نفسه وأساء إليها — فلن يكون إنسانا طيبا بكل تأكيد. وآنذاك سيجعل من الآخرين ملاذا يفر

إليه من نفسه : ليحذر الآخرون ألا يصيبهم منه أي مكروه، رغم الخيرِ الذي يبدو أنه يريده لهم ! والمرء الذي يكره نفسه ويهرب منها، ويعيش في الآخرين ومن أجلهم — هو من سميناه حتى الآن، بنفس القدر من الحماقة واليقين، «محبا للغير»، وبالتالي «طيبا».

517

الحض على الحب. — يجب أن نخشى الذي يكره نفسه، لأننا سنكون ضحايا غضبه وانتقامِه. فلنحضه على الحب.

518

استسلام. — ما هو الاستسلام؟ هو الوضع الملائم لمريض عانى كثيرا ليصل إليه، ولما هده التعب — وجده!

519

أن تكون مخدوعا. — بمجرد ما يكون عليك أن تقوم بالفعل أغلق أبواب الشك، — قال أحد العمليين. — ألا تخشى أن تكون بذلك مخدوعا؟ — رد عليه أحد التأمليين.

520

المأتم الأبدي. — لو استمتعنا للتاريخ كله لخلنا أنفسنا نسمع تأبينا : لقد دفن الإنسان ولا يزال يدفن أغلى ما لديه، أفكارا وآمالا، ومقابلها تلقى ويتلقى الكبرياء، المجد العالمي، أي فخامة المأتم. من المفروض أن يصلح هذا كل شيء! والذي يلقي الكلمة التأبينية يظل على الدوام هو أكبر المحسنين على رؤوس الأشهاد.

521

غرور استثنائي. — يمتلك هذا المرء ميزة رفيعة تواسيه : تحتقر عينه باقي كيانه — ويكاد جسده كله يشكل هذا الباقي ! ولكنه يستريح من نفسه حين يدنو بهذا الشكل من المكان المقدس؛ أصبحت الطريق المؤدية إلى هناك تبدو له كالصعود على مرقاة عريضة وناعمة : — وتريدين، أيها القساة، أن تسموه عديم الجدوى بسبب ذلك!

522

حكمة بلا أذنين. — سماع ما يقوله الناس عنا كل يوم، أو السعي لاكتشاف ما يعتقدونه بشأننا، — هذا ما ينتهي بإنهاك الإنسان الأقوى. لهذا يدعنا الآخرون نعيش، ليكونوا كل يوم على صواب ضدنا ! لو كنا على صواب ضدهم لما تحملونا، ولن يتحملونا بتاتا لو قصدنا أن نكون على صواب ! إجمالا، لنقدم هاته التضحية من أجل التفاهم العام، يجب ألا نسمع حين يتحدث الناس عنا، حين يثنون علينا أو يذموننا، حين يعبرون عن رغباتهم بخصوصنا نحن، بل ألا نفكر في ذلك البتة.

523

سؤال ماكر. — يمكننا أن نسال بخصوص كل يظهره إنسان ما : ما الذي يريد إخفاءه؟ عن أي شيء يريد أن يصرف الأنظار؟ أي حكم مسبق يريد استحضاره؟ بل كذلك : إلى أي مدى تذهب دقة هذا الإخفاء؟ وما هو الحد الذي يبلغه احتقاره؟

524

غيرة المتوحدين. — بين الناس الاجتماعيين والمتوحدين هناك هذا الفرق (إذا سلمنا بأنهم جميعا من العقلاء) : يرضى الاجتماعيون، أو يكادون يرضون،

بشيء ما، أيا كان، بمجرد ما يجدون في عقلهم بخصوصها شكلا سعيدا يمكن التعبير عنه، — وهو ما يصالحهم مع الشيطان نفسه ! أما المتوحدون فيستمتعون بشيء ما في صمت أو يتألمون بسببه في صمت، يكرهون العرض الروحي والبراق لمشاكلهم الداخلية، كما يكرهون تبرج حبيبتهم تبرجا متكلّفا : ينظرون إليها بكآبة ويشتبهون في كونها تريد إثارة إعجاب الآخرين. تلك هي غيرة كل المفكرين المتوحدين، والحالمين العاشقين، على العقل.

525

تأثير الثناء. — الثناء الكبير يخجل بعض الناس، ويجعل البعض الآخر وقحين.

526

لا نريد أن نكون رموزا. — أشفق على الأمراء : لا يسمح لهم بالظهور بمظهر الناس العاديين وسط المجتمع، وبذلك لا يتعلمون أن يعرفوا الناس إلا في أوضاع مزعجة والتخفي باستمرار؛ إكراههم المستمر على أن يكونوا رموزا يجعل منهم في نهاية المطاف أشخاصا عديمي الأهلية قطعا. — وسيكون الأمر كذلك بالنسبة لكل الذين يرون أنه من واجبهم أن يكونوا رموزا.

527

المختبئون. — ألم تصادفوا بعد بعضا من أولئك الناس الذين يوقفون حماس قلوبهم ويخفونه مفضلين أن يصابوا بالخرس عوض أن يفقدوا حياء الاعتدال؟ — ألم تصادفوا كذلك أولئك الناس المزعجين الذين غالبا ما يكونون طيبين، الذين لا يريدون أن يتعرف عليهم أحد فيقومون على الدوام بمسح ما يخلفونه من آثار على الرمال، الذين يذهبون على حد ارتكاب الخطأ، هم والآخرون، ليظلوا مختبئين!

528

تعفف نادر. — من علامات الإنسانية البالغة الأهمية لدى المرء أن يرفض الحكم على شخص ما أو إبداء ملاحظات عنه.

529

كيف يصبح للناس والشعوب بريق. — كم من الأعمال الفردية نمتنع عن القيام بها لمجرد أننا نتنبه، قبل القيام بها، إلى أن الناس سيسيئون فهمها أو نخشى أن يسيئوا فهمها ! — وتلك هي الأعمال التي لها قيمة حقيقية، في الخير أو في الشر. كلما قدر عصر ما، أو شعب ما، الأفراد ومنحهم الحقوق ورجح كفتهم، كلما جازفت أعمال هذا النوع بالظهور في وضح النهار، وبذلك يسطع بريق من الاستقامة، والصراحة، في الخير وفي الشر، على عدة عصور، وشعوب برمتها، بحيث يستمرون، كما هو حال الإغريق، في إرسال أنوارهم، كبعض النجوم، بعد آلاف السنين من اندثارهم.

530

لفة المفكر. — تكون مسيرة الفكر لدى بعض الناس صارمة وجريئة لا تلين لها قناة، بل تقسو حتى على نفسها أحيانا، ومع ذلك فسمة هؤلاء الناس هي اللطف والليونة؛ يدورون حول شيء ما عشر مرات في حيرة رفيقة، وفي نهاية المطاف يتبعون طريقهم الصارم. إنهم أنهار كثيرة المنعرجات وصوامعها معزولة؛ فيها أماكن تلعب فيها مياهها لعبة التخبئة مع نفسها وتغازل أثناء مرورها الجزر الصغيرة، والأشجار، والمغارات، والشلالات : ثم تمضي في مجراها، بمحاذاة الصخور شاقة طريقها عبر الصخور الصلبة.

531

إحساس مغاير أمام الفن. — بمجرد ما يشرع الإنسان في العيش متوحدا، ملتهما وملتهَما، دون رفيق سوى الأفكار العميقة والخصبة، يرفض أن يعرف أي شيء عن الفن، أو يطالبه بشيء مغاير تمام لما كان يطالبه به في الماضي، — أي أنه يغير ذوقه. ففي الماضي كان يريد أن يلج للحظة ما، عن طريق الفن، ذلك العنصر الذي يعيش فيه باستمرار؛ وكان آنذاك يستحضر في الحلم بهجة الامتلاك، أما الآن فهو يمتلك بالفعل. والآن قد يدخل عليه السرور عند الاقتضاء تخليه عما يملك، وتخيله أنه فقير، وطفل، ومتسول ومجنون.

532

«الحب يحقق المساواة». — يريد الحب أن يوفر على الذي يحب الشعور بالغرابة، فهو بالتالي مفعم بالإخفاء والتمثل، يضللنا باستمرار ويوهمنا بوجود مساواة لا وجود لها في الواقع. يتم ذلك غريزيا بحيث أن بعض النساء المحبات ينفين ذلك الإخفاء والخداع اللطيف والمستمر ويزعمن في جرأة أن الحب يحقق المساواة (وهو ما يعني أنه يصنع معجزة!) — تكون تلك الظاهرة بسيطة حين يكون شخص ما هو المحبوب، ولا يرى التظاهر ضروريا، تاركا ذلك لمحبه: والملهاة الأكثر تشوشا وتعقيدا هي حين يمتلك المحبوب والمحب بعضهما تماما وبالتالي يتحلى كل واحد منهما بنكران الذات ويسوي بينه وبين الآخر، ساعيا إلي فعل مثله في كل مكان: آنذاك لا يعرف أي منهما ما سيقلد، ما سيتظاهر به، ولأي شيء سيعطي نفسه. الجنون الجميل الذي في هذا المشهد أجمل من أن نجده في هذا العالم ودقيق جدا لكي تراه عين الإنسان.

533

نحن المبتدئون! — كم من الأمور يخمنها الكوميدي ويراها عندما يرى كوميديا آخر يمثل! يعرف حين ترفض إحدى العضلات القيام بحركة ما، يعزل

على حدة تلك التفاصيل المتكلّفة الصغيرة التي تم التدرب عليها منفصلة أمام المرآة بهدوء والتي لا تريد الانسجام مع مجموع الحركات؛ يعرف حين يفاجأ الممثل على الخشبة من طرف ابتكاره فيفسد تأثير ذلك الابتكار في خضم المفاجأة. — كم تكون نظرة الرسام إلى الإنسان الذي يتحرك أمامه مختلفة ! يرى على الخصوص أمورا أكثر من الموجودة في الواقع، وذلك ليتمكن من تكميل ما هو حاضر أمامه ويعطيه تأثيره الكامل؛ يجرب في عقله إضاءات كثيرة لنفس الشيء، ويقسم التأثير الشامل على التناقض المضاف. — ليتنا كنا نملك عين هذا الكوميدي وهذا الفنان لنرى بها مملكة الروح الإنسانية !

534

المقادير الصغيرة. — إذا كان على تحول ما أن يمتد ما أمكنه ذلك، في الأعماق، فيجب أن نعطي العلاج على شكل مقادير صغيرة، ولكن متواصلة، على مدى زمني واسع ! ما الذي يمكننا أن نبدعه كبيرا دفعة واحدة؟ سنحرص إذن على ألا نبادل الظروف الأخلاقية التي ألفناها، مبادلة متعجلة وعنيفة، بتقييم جديد للأشياء، — بل نريد على العكس أن نستمر في العيش فيها أمدا طويلا، — إلى أن نتنبه، ربما في وقت متأخر، إلى أن التقييم الجديد أصبح هو الغالب فينا، وأن المقادير الصغيرة التي علينا أن نعتاد عليها من الآن فصاعدا قد خلقت فينا تقييما جديدا. — نبدأ كذلك في التنبه إلى أن المحاولة الأخيرة التي تمت لتغيير التقييمات — التقييمات التي تهم الأمور السياسية — أعني «الثورة الكبرى»، — لم تكن سوى تدجيل دام ومثير للشفقة عرف، من خلال أزمات مفاجئة، كيف يزرع في أوربا الساذجة الأمل في شفاء مفاجئ — جاعلا كل المرضى السياسيين حتى اليوم فاقدين للصبر وخطرين.

535

حاجة الحقيقة للقوة. — ليست الحقيقة وحدها قوة، — مهما يقل عنها الفاعلون العقلانيون ! — عليها أن تجذب القوة إلى جانبها، أو أن تنحاز إلى القوة، وإن لم تفعل فستهلك من جديد ! لقد تمت البرهنة على هذا أكثر من اللازم !

536

إبهاميات. — يثير سخطنا ما نراه من قسوة في محاولة كل من يمتلك بعض الفضائل الشخصية جعل الذين لا يملكونها، بالصدفة، يدفعون ثمنها؛ نرى كيف يعذبهم بتلك الفضائل. لكن إنسانيين، نحن كذلك، مع «حس الصدق»، مهما نكن واثقين من أننا نمتلك فيه إبهاميات نعذب بها تعذيبا دمويا كل هؤلاء الانانيين الكبار الذين يريدون أن يفرضوا إيمانهم على العالم كله: وقد جربنا تلك الإبهاميات على أنفسنا!

537

الإتقان. — نبلغ درجة الإتقان حين لا نخطئ ولا نتردد أثناء الممارسة.

538

الاستلاب الأخلاقي للعبقري. — قد نشاهد لدى صنف من المفكرين الكبار مشهدا شاقا، بل مرعبا أحيانا: يبدو أن لحظاتهم الأكثر خصوبة، وتحليقهم إلى الأعالي ونحو الأماكن البعيدة لا ينسجمان مع بنيتهم، وتتجاوز قوة هاته البنية بطريقة أو بأخرى بحيث يظل فيها على الدوام نقص ينتج عنه عيب في الآلة، عيب يظهر عند أشخاص آخرين من ذوي التفكير الراقي عبر مختلف الاعراض الأخلاقية والفكرية بانتظام أكثر مما يظهر عبر حالات ضيق جسدية. هاته الجوانب غير المفهومة من طبيعتهم، ما فيهم من خوف، وغرور، وحقد، وحسد، وضيق ومُضيِّق، والذي يظهر لديهم فجأة، الشيء الشخصي للغاية والمرغَم عند أشخاص كروسو وشوبنهاور، قد يكون ناتجا عن مرض يصيب القلب بشكل دوري: وهو بدوره ناتج عن مرض يصيب الأعصاب، الناتج هو الآخر عن... مادامت العبقرية تسكننا فإن الإقدام هو مطيتنا، نحن كالمجانين ولا نعبأ كثيرا بالصحة، أو بالحياة والشرف، نعبر يوم تحليقنا بحرية تفوق حرية النسر، وفي الدجى نشعر بالأمان أكثر من البوم. ولكن العبقرية تغادرنا فجأة فيغمرنا شك عميق: نكف عن فهم أنفسنا، نعاني من كل ما عشناه زمن

كل ما لم نعشه، كما لو كنا وسط الصخور عراة نواجه العاصفة، وفي نفس الوقت نكون كأرواح أطفال مثيرين للشفقة يصبها الذعر إذا سمعت حفيفا أو أبصرت ظلا.
– ثلاثة أرباع الشر الذي يرتكب على ظهر الأرض ترتكب بدافع الجبن، وهذه ظاهرة فسلجية بالدرجة الاولى.

539

هل تعرفون ما تريدون؟ – هل تعذبتم يوما من خشية عدم القدرة على التعرف على ما هو حقيقي؟ خشية أن يصاب حسكم بالوهن الشديد ويكون نفاذ بصركم غير دقيق؟ لو أنكم تلاحظون الإرادة المهيمنة وراء رؤيتكم! كيف على سبيل المثال أردتم البارحة أن تروا أكثر من غيركم، واليوم تريدون أن تروا بطريقة مغايرة لطريقته، أو كيف تطمحون منذ البداية لرؤية شيء يكون مطابقا أو معارضا لما اعتقد الناس أنهم لاحظوه حتى الآن! يا للرغبات المخجلة! ما أشد ما تترصدون الأثر العنيف، أو ما يهدئ، – ثم ها أنتم متعَبون! أنتم دائما مفعمون بشعور مسبق خفي حول ما ستكون عليه الحقيقة لتتمكنوا، أنتم بالضبط، من قبولها! أم هل تعتقدون اليوم، بما أنكم متجمدون وجافون كصباح صاف من صباحات الشتاء وبما أنه لاشيء يهمكم، أن عيونكم أفضل؟ ألا يلزمنا شيء من الحرارة والحماس لننصف أمرا من أمور الفكر؟ – وهو ما نسميه أن نرى! كما لو كنتم قادرين على أن تربطوا مع أمور العقل علاقات مختلفة عن علاقاتكم مع الناس! نجد في هاته العلاقات نفس الأخلاقية، نفس الشرف، نفس الفكرة المبطنة، نفس الجبن، نفس الخوف، – أناكم اللطيف والبغيض كله! ضعفكم الجسدي ستصبغ الأشياء بألوان كئيبة، وستجعل منها حُمّاكم أشباحا! ألا يضيء صباحكم الأشياء بخلاف ما يضيئها مساؤكم؟ ألا تخشون أن تجدوا في كهف المعرفة شبحكم، الستار الذي تغطي به الحقيقة نفسها لتتنكر أماكم؟ أليست كوميديا مرعبة تلك التي تريدون أن تمثلوا فيها دوركم بخفة؟

540

التعلم. — كان مايكل أنجلو يرى في رافائيل الدراسة، وفي نفسه يرى الطبيعة: هناك الفن الذي تم تعلمه، وهنا الموهبة الطبيعية. هذا تنطع، نقول هذا دون أن نقلل من احترامنا للمتنطع الكبير. ما الموهبة إن لم تكن الاسم الذي نطلقه على دراسة سابقة، أو تجربة، أو تمرين، أو موافقة، أو تمثل، دراسة ربما تعود إلى عهد أبائنا، أو ما قبله! ثم إن الذي يتعلم يخلق مواهبه الخاصة به، — ومع ذلك فالتعلم ليس سهلا ولا يكفي معه حسن النية؛ يجب أن تكون لنا القدرة على التعلم. لدى الفنان تكون الغيرة هي ما يعارض التعلم في الغالب، أو ذلك الزهو الذي يتأهب للدفاع على الفور، بمجرد ما ينتاب الفنان الإحساس بالغريب، عوض أن يهب للاستقبال. لم تكن لدى رافائيل لا تلك الغيرة ولا ذلك الزهو، مثله في ذلك مثل غوته، لذلك كانا متدربين كبيرين، وليس فقط مستكشفين للمناجم التي أبرزتها الهزات الأرضية وسلسلة أسلافهما. أرى أن رافائيل يختفي حين يتعلم، يكون مشغولا بتمثل ما يسميه خصمه الكبير «طبيعت»ه: كان ذلك اللص النبيل يقتطع منها في كل يوم جزءا؛ وقبل أن يحمل مايكل أنجلو إلى بيته كاملا مات — والسلسلة الأخيرة من أعماله، التي تشكل بداية تصميم جديد للدراسة، أقل كمالا وجودة: لأن الموت أربك هذا المتدرب الكبير وأثر على إنجازه لمهمته الأصعب، فاختفى مع اختفائه الهدف الأخير المبرِّر الذي كان يروم تحقيقه.

541

كيف نتحجر. — أن نتصلب، ببطء، ببطء، كحجر كريم — وفي الأخير نظل هناك في هدوء، من أجل فرحة الخلود.

542

الفيلسوف والشيخوخة. — نخطئ بسماحنا للمساء بأن يحكم على اليوم، لأن ذلك غالبا ما يجعل من الضعف قاضي القوة، والنجاح والنية الحسنة. كما

يجب أن نلزم أقصى درجات الحذر تجاه الشيخوخة وحكمها على الحياة، بما أن الشيخوخة، كالمساء، تحب ارتداء قناع أخلاقية جديدة ومغرية وتعرف كيف تهين النهار بحمرة غروبها، وغسقها، وصمتها الهادئ أو المفعم بالحنين إلى الماضي. الإجلال الذي نكنه للشيخ، خاصة حين يكون مفكرا أو حكيما، لا يدعنا نرى شيخوخة عقله، ويكون من الضروري دائما أن نسلط الضوء على أعراض تلك الشيخوخة وذلك التعب، أي إبراز الظاهرة الفسلجية الكامنة وراء الحكم والحكم المسبق الأخلاقي، لكي لا ننخدع بالإجلال ولا نلحق الضرر بالمعرفة. ذلك لأنه ليس من النادر أن يستحوذ على الشيخ وهم تجديد أخلاقي كبير ووهم جيل وبالتالي يصدر على عمله وعلى تطور حياته أحكاما يكون القصد منها إفهامنا أنه قد أصبح الآن بعيد النظر : والتعب، وليست الحكمة، هو ما يلهمه هاته الراحة وهذا الحكم اليقيني. أخطر علامات هذا التعب هي الإيمان بالعبقرية التي لا تأتي عموما لعظماء الفكر وأنصاف عظماء الفكر إلا في هاته السن : الإيمان بوضع استثنائي وحقوق استثنائية. المفكر الذي تأتيه العبقرية يعتقد أنه أصبح مسموحا له بعدم الاكتراث بالأشياء، وبأن يعلن عن أكثر مما يبرهن عليه؛ وربما تكون الحاجة إلى التخفيف التي يبديها تعب العقل هي أصل هذا الإيمان، سواء أتت قبله زمنيا أو بدا الأمر بخلاف ذلك. في هاته السن يريد المرء علاوة على ذلك أن يستمتع بفكره، طبقا للحاجة إلى المتعة التي يشعر بها كل المتعبين وكل الشيوخ؛ عوض أن يتفحص من جديد ما توصل إليه من نتائج ويشرع في زرعها مرة أخرى يحتاج للقيام بذلك إلى إعدادها لتلائم ذوقا جديدا وتصبح صالحة للأكل، إلى تخليصها من جفافها وبرودتها وفقدانها للطعم : وهو ما يجعل المفكر الشيخ يبدو كأنه يسمو على عمله، والحالة أنه يفسده بما يضيفه إليه من حماس، وعذوبة، وتوابل، وضباب شعري وأنوار صوفية. هذا ما وقع لأفلاطون، ولذلك الفرنسي العظيم والصادق، الذي لن يجد ألمان وإنجليز هذا القرن من يواجهونه به — مفكر يكون مثله قد فهم العالم الصارم وروَّضه، — أعني أوغست كونط. العارض الثالث من أعراض التعب : الطموح الذي كان يعتمل في صدر المفكر الكبير يوم كان شابا دون أن تتم تلبيته، هذا الطموح أصبح عجوزا هو كذلك؛ وكمن لم يعد لديه ما يفقده يستحوذ على ما قد يلبيه من وسائل فظة وفورية، أي وسائل الطباع النشيطة، والمهيمِنة، والقوية، والجذابة : ومنذ تلك اللحظة يريد

المفكر أن يقيم مؤسسات تحمل اسمه عوض أن يشيد صروح الأفكار. ما أهمية الانتصارات والعزة الأثيرية الآن في مملكة البرهنة والدحض ! ما أهمية الخلود الذي يأتيه من وراء كتبه، والبهجة التي تهز روح قارئه ! أما المؤسسة فمعبد، — هو يعرف هذا جيدا، ومعبد من حجر، بني ليدوم، ويجعل إلهه يحيا بيقين أكثر من التضحيات التي تقدمها الأرواح الرقيقة والنادرة. ربما يعرف لأول مرة، في هاته المرحلة من العمر، ذلك الحب الذي يملأ إلها وليس إنسانا، فيلين كيانه كله ويرتخي تحت أشعة شمس هذا الحب كثمار الخريف. أجل، يصبح الشيخ أجمل وربانيا أكثر — والسن والتعب هما اللذان يجعلانه ينضج بهذا الشكل، ويصبح صموتا ويستريح في دلال امرأة منير. لقد قضي على رغبته القديمة في أن يكون له مريدون حقيقيون، رغبة تفوق أناه نفسها، مريدون يحققون لفكره الاستمرارية، أي خصوم : كانت تلك الرغبة تستمد نفسها من قوة بكر، من الكبرياء الواعي واليقين بأنه قد يصبح هو كذلك، في أية لحظة، خصما وعدوا لمذهبه، — إنه يحتاج الآن إلى أنصار معلنين، ورفاق عديمي الذمة، وقوات مساعدة، ونذيري الحرب، وحاشية سمتها الأبهة. لم يعد الآن قادرا على تحمل العزلة الفظيعة التي يعيشها كل عقل حلق إلى الأمام قبل الآخرين، يحيط بها حينه من يبجلونه، ويتقربون إليه، ويعطفون عليه ويحبونه، يريد أن تكون له نفس المزايا التي لرجال الدين ويحتفل بالأمور التي يبجلها داخل الجماعة؛ بل قد يذهب إلى حد ابتكار ديانة جديدة لتكون له تلك الجماعة. هكذا يعيش الحكيم العجوز، وفي النهاية تصبح له خفية جيرة شديدة الغم الكهنوتي والشعري بحيث لا يكاد يتذكر شبابه يوم كان حيكا وصارما، وصلابة أخلاقيته العقلية آنذاك، ورعبه الحازم، وإشراقاته المفاجئة وهذيانه. حين كان يقارن نفسه مع مفكرين أقدم منه كان يفعل ذلك ليقيس بجدية ضعفه بقوتهم وليصبح أكثر برودة وحرية مع نفسه : أما الآن فيقوم بهاته المقارنة لينتشي بوهمه. فيما مضى كان يفكر بثقة في المفكرين المستقبليين، بل كان يرى نفسه يختفي وهو سعيد في نورهم المتوهج : أما الآن فتعذبه فكرة ألا يكون هو الأخير، يفكر في وسيلة يفرض بها على الناس، مع الإرث الذي سيتركه لهم، تحديدا لفكرهم السَّنِي، يخشى كبرياء العقول الفردية وتعطشها للحرية ويفتري عليهما؛ — لا يجب لأي أحد بعده أن يدع فكره يحكم بحرية؛

يريد أن يظل إلى الأبد هو السد الذي تصب فيه باستمرار أمواج الفكر، — هاته هي رغباته الخفية والمعلنة أحيانا ! الحدث العنيف الذي يقف وراء هاته الرغبات هو كونه توقف أمام مذهبه، فوضع لنفسه حدا، نقطة كيلومترية لا يجب أن يتجاوزها. وبتقديسه لنفسه وقع شهادة وفاته : لم يعد لعقه منذ تلك اللحظة الحق في التطور، لقد فات الأوان بالنسبة له، وتوقف عقرب الساعة. حين يريد مفكر كبير أن يجعل من نفسه مؤسسة، مقيدا الإنسانية المستقبلية، يمكننا القول بكل يقين أنه قد تجاوز ذروة قوته، أنه قد تعب وأن نهايته قد حانت. —

543

لا تجعلوا من الغضب حجة لصالح الحقيقة. — أيها المتعصبون الطيبون، المتعصبون النبلاء، إنني أعرفكم ! تريدون أن تكونوا على حق أمامنا، وقبل ذلك أمام أنفسكم ! — وتأنيب الضمير، وهو دقيق وسريع الانفعال، يدفعكم لتقفوا ضد تعصبكم ! آنذاك تصبحون أذكياء جدا لتخدعوا هذا التأنيب ! كم تكرهون الصادقين، البسطاء والأنقياء ! كم تتفادون عيونهم البريئة ! واليقين الذي يمثلونه والذي تسمعون في داخلكم صوته الذي يشك في إيمانكم، — كم تسعون لجعله مشبوها، تحت اسم العادة السيئة، ومرض العصر، وإهمال أو نقل العدوى إلى صحتكم ! بل تذهبون إلى حد كره النقد، والعلم، والعقل ! يجب أن تزوروا التاريخ ليشهد لصالحكم، وأن تنكروا الفضائل لكي لا تلقي بظلالها على فضائل أصنامكم ومثلكم الأعلى ! تلزمكم صور ملونة هناك حيث يجب أن تكون حجج العقل ! والحدة والقوة في التعبير ! والضباب الفضي ! وليالي الطعام الشهي ! إنكم بارعون في الإضاءة والتعتيم، التعتيم بالضوء ! والحقيقة هي أنكم حين تستشيطون غضبا تأتي عليكم لحظة تقولون فيها لأنفسكم : الآن سيطرت على راحة الضمير، الآن أنا شهم، وشجاع، — ومترفع، ومهيب، الآن أنا صادق ! كم تتعطشون لتلك اللحظات التي يعطيكم فيها غضبكم حقا كاملا ومطلقا على أنفسكم، يعطيكم البراءة إن صح القول، لحظات الصراع، أو النشوة، أو الشجاعة، أو الأمل التي تكونون فيها خارج أنفسكم وفوق كل

الشكوك، وتعلنون : «الذي لا يخرج من نفسه مثلنا لن يعرف أبدا ما هي الحقيقة، ولا أين تكمن!» كم تتعطشون للعثور على أناس يؤمنون بنفس ما تؤمنون به ويكونون في حالة إفساد للعقل فتوقدوا ناركم من حريقهم ! الويل لعذابكم ! الويل لانتصاركم الذي هو انتصار للكذب وقد قدستموه ! هل من الضروري أن تسيئوا لأنفسكم طل هاته الإساءة؟ هل هو ضروري؟

544

كيف ننتج الفلسفة اليوم. — ألاحظ أن الشبان، والفنانين والنساء الذين يريدون أن يتفلسفوا الآن يطلبون من الفلسفة أن تقدم لهم تحديدا نقيض ما كان الإغريق يحصلون عليه منها ! الذي لا يسمع البهجة التي يتردد صداها في كل مقولة وجواب في فلسفة أفلاطون، البهجة الناتجة عن الابتكار الجديد للفكر العقلي، ماذا سيفهم من أفلاطون، ومن الفلسفة القديمة؟ كانت النفوس في ذلك العصر تمتلئ مرحا، حين يمارس الناس ألعابا صارمة ومتزنة هي ألعاب الأفكار، والتعميمات، والدحض — بذلك المرح الذي ربما عرفه كذلك أساتذة الطباق الصارم والمتزن. كان لا يزال سائدا عند الإغريق في هذا الوقت ذوق قديم كان فيما مضى قويا : كان الذوق الجديد يبدو إلى جانب ذلك الذوق ساحرا للغاية بحيث يشرع الناس في التغني بالبدايات الأولى للجدل، «الفن الرباني»، كأنما أسكرتهم نشوة الحب. الذوق القديم هو الفكر المستعبد من طرف الأخلاق التي لم تكن تعرف أحكاما ثابتة، أو أحداثا معينة أو حججا أخرى غير حجج السلطة : بحيث أن التفكير كان عبارة عن تكرار، وأن متعة الخطاب والحوار لم تكن تقوم إلا على الشكل. (حيثما يتم اعتبار الجوهر خالدا وحقيقيا، بشكل عام، لا نجد سوى سحر واحد كبير : سحر الشكل الذي يتغير، أي سحر الأسلوب. حتى لدى الشعراء، منذ هوميروس حتى النحاتين الذين أتوا لاحقا، لم يكن الإغريق يتذوقون الأصالة لا عكسها.) سقراط هو من ابتكر السحر المضاد لهذا، سحر العلة والمعلول، سحر السبب والنتيجة : ونحن المعاصرون قد تعودنا كثيرا على ضرورة المنطق ومضينا بعيدا في فكرة هاته الضرورة حتى أصبحت تبدو لنا هي الذوق العادي، وباعتبارها

كذلك فهي تثير اشمئزاز طالبي اللذة والمزهوين. كل ما يخالف الذوق العادي يفتنهم! وطموحهم الدقيق يسعى جاهدا للإيمان بأن نفسهم استثنائية، بأنهم ليسوا كائنات جدلية وعقلية، بل... «كائنات حدسية» مزودة ب«حاسة داخلية» أو ب«حدس فكري». ولكنهم يريدون أن يكونوا «فنانين» قبل كل شيء، بعبقري في الرأس وشيكان في الجسد، وتكون لهم بالتالي حقوق استثنائية في هاته الدنيا وفي العالم الآخر، وخاصة تلك الميزة الربانية التي هي أن يكونوا غير مفهومين. — كل هذا يشكل الآن فلسفة ! أخشى أن يتنبهوا يوما أنهم قد أخطأوا، — فالدين هو ما يريدونه!

545

لا نصدقكم. — تريدون اعتبار أنفسكم عارفين بالناس، لن يمكنكم ذلك من الإفلات منا ! كيف لا نتنبه إلى أنكم تقدمون أنفسكم لنا على أنكم أكثر تجربة، وعمقا، وفطنة مما أنتم في الحقيقة؟ كما نشعر بأن هذا الفنان مزهو من طريقة استخدامه للريشة : ونعرف أن هذا الموسيقي يريد أن يجعل موضوعه، من خلال الطريقة التي يقدمه بها، يبدو أسمى مما هو. هل عشتم التاريخ في أعماقكم، هل عشتم صدمات وهزات، وأحزانا طويلة ورحبة، وصعقات الفرح؟ هل عشتم الجنون مع مجانين صغار وكبار؟ هل تحملتم بالفعل وهم وألم الناس الطيبين؟ وكذلك ألم الخبثاء ونوع سعادتهم؟ حدثوني إذن عن الاخلاق، وإلا فاصمتوا!

546

العبد والمثالي. — لا شك أن إنسان إبكطيط لن يعجب الذين يطمحون الآن إلى المثل الأعلى. توتر كيانه المستمر، نظرته نحو الداخل من غير ملل، ما في عينه من حزم، وحذر، وتحفظ إذا حدث أن وجه أنظاره نحو العالم الخارجي، وكذلك صمته وكلامه القليل : كل هذه علامات شجاعة صارمة، — كيف سينظر إليها مثاليونا المتعطشون إلى البوح بأسرارهم قبل كل شيء ! إنه ليس متعصبا، وهو

يكره تصنع وتباهي مثاليينا : وكبرياؤه، مهما كان كبيرا، لا يريد إزعاج الآخرين: يقبل بنوع من التقارب المتسامح مع الآخرين ولا يريد إفساد المزاج الرائق لدى أي كان، — بل يعرف الابتسامة كذلك ! نجد في هذا المثال كثيرا من مزايا الإنسانية الإغريقية ! والأجمل فيه هو أنه لا يعرف خشية الإله، وأنه يؤمن بالعقل أشد الإيمان، ولا يحض على التوبة. كان إبكطيط عبدا : وإنسانه المثالي لا ينتمي لأية طبقة ويمكن أن يوجد في كل الأوضاع الاجتماعية، ولكننا سنبحث عنه في الطبقات الدنيا حيث سيكون ذلك الإنسان الصامت المكتفي بذاته، في خضم استعباد عام، لا يفتأ يدافع عن نفسه ضد الخارج محافظا على شجاعة رفيعة. يتميز عن المسيحي بكون هذا الأخير يعيش على أمل «الحصول على نعم لا يصفها لسان»، ويتقبل الهدايا، وينتظر أفضل ما يمكنه أن يملك ويتلقاه من العناية والمحبة الربانيتين : بينما إبكطيط لا يأمل أي شيء ولا يقبل أن يُعطاه أفضل ما يملك، — فهو يملكه مسبقا، يمسكه بين يديه بشجاعة وسيدافع عنه ضد العالم كله لو أراد أخذه منه. جاءت المسيحية لنوع آخر من العبيد القدماء، ضعاف الإرادة والعقل، أي لأكبر عدد من العبيد.

547

طغاة العقل. — لم تعد مسيرة العلم معرقلة، كما كانت من قبل أمدا طويلا، بالأمر الطارئ الذي هو كون الإنسان يعيش حوالي سبعين سنة. فيما مضى كان الناس يريدون الوصول إلى نهاية المعرفة خلال هاته المدة الزمنية، وكانوا يقيمون طرق المعرفة حسب هاته الرغبة العالمية. كانت المسائل الصغيرة والتجارب الخاصة تعتبر حقيرة، كانوا يريدون أن يسلكوا أقصر السبل، كانوا يعتقدون، بما أن كل شيء في هاته الحياة الدنيا يبدو معدا على مقاس الإنسان، أن الإدراك الحسي للأشياء معد هو كذلك وفق مقياس إنساني للزمن. كانت رغبتهم الخفية هي أن يحلوا كل المسائل دفعة واحدة : كانوا يتمثلون المسألة من وجهة نظر العقدة الغوردية أو بيضة كولومب؛ كانوا على يقين أنه يمكنهم بلوغ الهدف، في ميدان المعرفة، على طريقة الإسكندر أو على طريقة كولومب، ويوضحوا كل المسائل

بجواب واحد. «هناك لغز يجب حله» : هكذا كان الفيلسوف يرى الحياة؛ يجب العثور عل اللغز أولا ثم صياغة مشكل العالم كله في صيغة بسيطة. كان الطموح اللامحدود والفرحة بأن يكون هو «من يفك ألغاز العالم» يملآن أحلام المفكر؛ ما كان يبدو له أنه يستحق العناء دون سواه هو العثور على وسيلة لينجح في مسعاه ! هكذا كانت الفلسفة نوعا من الصراع من أجل طغيان العقل، — لم يشك أحد في أن طغيان العقل سيُخَص به إنسان سعيد، وثاقب الفكر، ولبيب، وشجاع وقوي — إنسان واحد فقط ! — وقد اعتقد كثيرون، من بينهم شوبنهاور، أنهم هم ذلك الواحد الفريد. نخلص من هذا إلى أن العلم قد ظل إلى الآن، على العموم، متأخرا بسبب ضيق الأفق الأخلاقي لمريديه، وأنه عليهم أن يكرسوا له أنفسهم منذ الآن بفكرة رئيسية أسمى وأكثر شجاعة. «ما أهميتي أنا!» — هذا ما هو مكتوب على باب مفكري المستقبل.

548

الانتصار على القوة. — إذا نظرنا إلى كل ما تم إجلاله حتى الآن تحت اسم «العقل الإنساني»، و«العبقرية»، فسنصل إلى الخلاصة المحزنة بأن العقلانية الإنسانية، في مجملها، كانت متدنية وفقيرة : يكفي القليل من العقل ليشعر المرء أنه متفوق عليها كثيرا ! ما الانتصار السهل الذي قد تحققه «العبقرية»؟ نبلغ عرشها سريعا ! وإجلالها أصبح عادة ! نقدس القوة بجثونا على ركبتينا — وفق عادة العبيد القديمة — ومع ذلك فحين نريد تحديد درجة الوقار فإن درجة العقل في القوة تكون هي المحدد الوحيد : يجب تقييم إلى أي حد تك تجاوز القوة من طرف شيء أسمى منها، فأصبحت خاضعة له كأداة ووسيلة ! ولكننا لا نجد الكثير من العيون التي تستطيع القيام بهذا التقييم، بل نذهب إلى حد اعتبار تقييم العبقرية تدنيسا للمقدسات. وهكذا يحدث أجمل ما هنالك في الظلام، ولا يكاد يولد حتى يبتلعه ليل سرمدي — أقصد مشهد القوة التي تستخدمها العبقرية، ليس للقيام بأعمال، بل لتطوير نفسها باعتبارها عملا، أي في السيطرة على نفسها، في تطهير خيالها، في الأمر والاختيار في ما يحدث من إلهام ومهام. الشيء

العظيم، والذي يثير الإعجاب لدى الرجل العظيم يظل دائما خفيا، كنجمة بعيدة: وانتصاره على القوة لا يشهده أحد وبالتالي لا يتم تمجيده أو الافتخار به. إننا لم نحدد بعد التراتبية في مجال العظمة بالنسبة للإنسانية الماضية كلها.

549

هروب المرء من نفسه. — هؤلاء الرجال الذين يصابون بتشنجات عقلية، المعتمون الذين لا يطيقون صبرا على أنفسهم، كبايرون وألفريد دو موسي A. de Musset، الذين يشبهون في كل ما يفعلونه أحصنة جامحة، الذين لا يشعرون أما ما ينتجونه من أعمال سوى بمتعة قصيرة وحدة تكاد تتفجر منها العروق، يلي ذلك العقم الشديد وخيبة الأمل: — كيف سيطيق هؤلاء الرجال أن يعمقوا أنفسهم بأنفسهم؟ إنهم متعطشون لإفناء أنفسهم في شيء «خارج الذات»؛ المسيحي المتعطش بهذا الشكل سيروم إفناء نفسه في الرب، والتماهي معه؛ الذي مثل شكسبير سيكتفي بإفناء نفسه في صور العشق؛ والذي مثل بايرون سيتعطش للأفعال لأنها تبعدنا عن أنفسنا أكثر مما تفعل الأفكار، والمشاعر والأعمال. ألا تكون الحاجة للأفعال بذلك سوى هروب للمرء من نفسه؟ — هكذا سيتساءل باسكال. والحقيقة هي أن أنبل الممثلين للحاجة إلى الفعل سيبرهنون على هذا الإثبات: يكفينا، بمساعدة العلم وتجربة طبيب عقلي طبعا — أن نتأمل كون الرجال الأربعة الذين كانوا الأكثر تعطشا للفعل، في تاريخ البشرية كله، كانوا يصابون بالصرع (الإسكندر الأكبر، قيصر، محمد ونابوليون): بايرون كذلك كان مصابا بهذا الداء.

550

المعرفة والجمال. — إذا كان الناس يخصصون إعجابهم وشعورهم بالسعادة لأعمال الخيال وأعمال الفكرة فلا يجب أن نندهش إذا أظهروا اللامبالاة والانزعاج أمام نقيض الخيال والفكرة. الابتهاج الذي نشعر به عند أبسط خطوة، واثقة ونهائية، نقوم بها في ميدان المعرفة، عند نقطة التقدم التي بلغها العلم حاليا،

يتكرر كثيرا ويكاد يكون عالميا — ولكنه يثير الريبة مؤقتا في نفوس الذين اعتادوا ألا يفرحوا إلا إذا خرجوا من الواقع وقفزوا إلى أعماق الظاهر. يعتقدون أن الواقع قبيح : ولا يتخيلون أن معرفة الواقع القبيح نفسه جميلة، وأن الذي يعرف كثيرا وفي أغلب الأحيان لا يرى في نهاية المطاف قبيحا ذلك الواقع الذي طالما جعله سعيدا. فهل هناك إذن شيء «جميل في ذاته»؟ سعادة العارفين تزيد من جمال العالم وتضيء كل الموجودات؛ لا تقوم المعرفة فقط بتغليف الأشياء بجمالها، بل تدخله إلى أعماقها بشكل دائم؛ — لعل الإنسانية تشهد على هذا في المستقبل! وفي انتظار ذلك دعونا نتذكر تجربة قديمة : اتفق رجلان شديدا الاختلاف، هما أرسطو وأفلاطون، على ما يشكل السعادة القصوى، ليس بالنسبة لهما وللناس فحسب، بل السعادة في ذاتها بالنسبة لآلهة الغبطة القصوى : وجداه في المعرفة، في نشاط عقل متمرس على العثور والابتكار (وليس في «الحدس»، كما فعل اللاهوتيون وأنصاف اللاهوتيين الألمان، وليس في الرؤيا، كما فعل الصوفيون، وليس في العمل، كما فعل العمليون.) ولديكارت وسبينوزا نفس الحكم : كم استمتعا كليهما بالمعرفة ! وما أشد الخطر الذي أحدق بصدقهما إذ صارا مادحين للأشياء !

551

فضائل المستقبل. — كلما أصبح العالم معقولا كلما قل إجلاله، فإلى أي شيء يعود هذا؟ هل لأن الخوف غالبا ما كان هو العنصر الأساسي في ذلك الإجلال الذي يستبد بنا أمام كل ما يبدو لنا مجهولا، وغامضا، ويجعلنا نسجد أمام غير المفهوم ونسترحمه؟ ألا يكون العالم نفسه قد فقد شيئا من سحره بالنسبة لنا لكوننا أصبحنا أقل خوفا؟ ألا يكون ميلنا للخوف، وكرامتنا، ومهابتنا، وقدرتنا على بث الرعب قد نقصوا؟ ربما يكون تقديرنا للعالم ولأنفسنا قد قل منذ أن أصبحت لنا عن العالم وعن أنفسنا أفكار سمتها الشجاعة؟ ربما يحين في المستقبل وقت تكون فيه شجاعة المفكر هاته قد أصبحت كبيرة للغاية بحيث يدفعه كبرياؤه الشديد للإحساس أنه أسمى من الناس والأشياء، — ويرى فيه

الحكيم، وهو الأكثر شجاعة، نفسَه والعالمَ كله أدنى منه؟ — هذا النوع من الشجاعة القريب من الشهامة شيء لم تعرفه الإنسانية حتى الآن. آه ! كم يتمنى الشعراء أن يعودوا كما كانوا فيما مضى : رائين يقولون لنا شيئا عن الممكن ! الآن وقد أصبح الواقع والماضي يسلب منهم، ويجب أن يسلب منهم أكثر فأكثر، — لأن عصر التزوير البريء قد انتهى ! — عليهم أن يقولوا لنا شيئا عن فضائل المستقبل ! أو عن الفضائل التي لن تظهر على وجه الأرض أبدا، وإن كانت قد توجد في مكان ما في العالم، — المجرات الأرجوانية ودروب تبانة الجمال الكبرى ! أينكم يا فلكيي المثل الأعلى؟

552

الأناني المثالي. — هل هناك حالة أكثر قداسة من حالة الحمل؟ أن نفعل كل ما نفعله، بهاته الطريقة أو تلك، — ونحن مقتنعون في قرارة نفوسنا أن ذلك سيعود بالنفع على الذي ينمو في داخلنا ! أن ذلك سيزيد من قيمته السرية، التي نفكر فيها مبتهجين بالسر الخفي الذي نحمله فينا. آنذاك نتجنب الكثير من الأشياء دون أن نكون مجبرين على إكراه أنفسنا بقوة ! نكتم كلاما عنيفا، ونمد أيدينا للمصالحة : يجب أو يولد الطفل لطيفا وأفضل ما يكون. يرعبنا عنفنا وفظاظتنا، وكأنهما تسكبان قطرة بلية في كأس العزيز المجهول. كل شيء غامض، ومفعم بالاستشعارات، لا نعرف كيف يحدث ذلك، ننتظر ونحاول أن نكون جاهزين. وفي نفس الوقت يسيطر علينا إحساس طاهر ومطهِّر باللامسؤولية التامة، إحساس كالذي يشعر به المتفرج عندما الستار المسدل، — ما بداخلنا يكبر، ويقترب يوم ولادته، ولا نملك شيئا نحدد به قيمته أو ساعة ولادته. نقتصر كليا على التأثيرات غير المباشرة النافعة والدفاعية. «ها هنا شيء يكبر، شيء أكبر منا»، — هذا هو أكبر أمل خفي لدينا : نعد كل شيء لولادته ورفاهيته : نعد النافع والزائد عن الحاجة، مسليات نفسنا وأكاليلها. — في هذه الأجواء المقدسة يجب أن نعيش ! يمكننا أن نعيش ! وسواء كنا في انتظار ولادة فكرة أو فعل ، — أمام كل إنجاز أساسي لا يمكننا

أن نتصرف إلا كما نتصرف في حالة الحمل، ويجب أن نبعد تماما تلك الخطابات الدعية التي تتحدث عن «الإرادة» و«الإبداع» ! هذه هي الأنانية المثالية الحقيقية التي تقتضي أن نعتني دائما، أن نسهر على راحة النفس، لتؤتي خصوبتنا ثمارها بنجاح. هكذا نسهر ونعتني، بطريقة غير مباشرة، لمصلحة الكل؛ والحالق العقلية التي نعيشها، وهي حالة متعاظمة ولطيفة، زيت ينتشر بعيدا حولنا، ويمس حتى النفوس القلقة. — وكلن النساء الحوامل غريبات الأطوار ! فلنكن غريبي الأطوار مثلهن ولا نلوم الآخرين على كونهم كذلك ! وحتى إن سار ذلك نحو الأسوأ وأصبح خطيرا : يجب أن لا نتوقف، في خضم تبجيلنا لكل ما هو في حالة صيرورة، عند العدالة الأرضية التي لا تسمح لقاض أو جلاد بلمس المرأة الحامل!

553

منعطفات. — إلى أين تريد الفلسفة أن تصل بكل هاته المنعطفات؟ هل تفعل أكثر من نقلها إلى إطار العقل، إن صح القول، لغريزة مثابرة وقوية تبحث عن شمس نافعة، لجو نير ومضطرب، ونباتات جنوبية، وهواء البحر، وطعام خفيف مكون من لحم، وبيض وفواكه، وماء ساخن للشرب، وتجوال صامت يستغرق عدة أيام، وحوار غير شائع، وقراءات قليلة متأنية، ومسكن معزول، وعادات الحفاظ على النظافة، البسيطة والتي تكاد تكون عسكرية، باختصار كل الأشياء التي تناسب ذوقي، وصحتي؟ فلسفة هي في الحقيقة غريزة نظام شخصي؟ غريزة تبحث عن أجوائي، وحالتي، وحرارتي، والصحة التي تلزمني، من خلال عقلي؟ هناك الكثير من أشكال رفعة الفلسفة وكذلك كثير من أشكال الرفعة الأسمى — وليست كلها أكثر قتامة وتطلبا من فلسفتي، — وربما تكون كلها عبارة عن انعطافات عقلية لمثل تلك الغرائز الشخصية؟ — بينما أنا مستغرق في التفكير في هذا أرى بعين جديدة فراشة تحلق وحيدة تحليقا تكتنفه الأسرار، عاليا هناك قرب الجرف المطل على البحيرة، حيث تنمو كثير من النباتات الجيدة : تطير من هنا

– وهناك، غير مكترثة بكون حياتها لن تدوم سوى يوم واحد وبكون الليل سيكون قارسا بالنسبة لرهافتها. قد نعثر لها هي الأخرى على فلسفة، وإن كان يبدو لي من الصعب أن تكون فلسفتي.

554

خطوة إلى الأمام. – حين نتباهى بالمجد فإننا نتباهى بالحركة وبالذين يمنعوننا من البقاء في نفس المكان، – وفي بعض الحالات يكون ذلك شيئا كثيرا، خاصة حين نعيش وسط المصريين. أما في أوربا المتحركة، حيث تحدث الحركة «بشكل طبيعي»، (كما يقال) – مع الأسف ! إن كنا نفهم معناها! – فإنني أثني على الخطوة إلى الأمام والذين يسيرون إلى الأمام، أي أولئك الذين يسبقون أنفسهم باستمرار، ولا يفكرون أبدا في ما إن كان أحد ما يستطيع السير وراءهم. «حيثما توقفت أجد نفسي وحيدا : فلماذا سأتوقف! الصحراء شاسعة جدا!» – هذا ما يشعر هؤلاء الرجال الذين يمضون إلى الأمام.

555

يكفينا الضعفاء. – يجب أن نتجنب الأحداث حين نعلم أنة الضعفاء يؤثرون علينا تأثيرا قويا – ولا يمكننا الإفلات منهم. – يجب أن يمتلك الفنان داخليا لائحة تقريبية بكل الأمور التي يريد أن يعيشها.

556

الفضائل الأربعة. – أن نصدق مع أنفسنا ومع من لا يزال صديقا لنا؛ أن نتحلى بالشجاعة أمام العدو؛ أن نحلم على المهزوم؛ أن نلتزم الأدب – دائما : هكذا تريدنا الفضائل الرئيسية الأربعة.

557

قبالة العدو. — كم يكون للموسيقى الرديئة والحجج الرديئة وقع حسن حين نمشي قبالة العدو.

558

لا تخفوا فضائلكم ! — أحب الشفافين شفافية الماء والذين، كما يقول پوپ، «يدعوننا نرى القذارة التي في قاع مياههم». حتى هؤلاء لهم خيلاؤهم، وإن كانت نادرة ورائعة : بعضهم يريدنا أن نرى القذارة فقط وألا نلتفت لشفافية الماء التي تمكننا من رؤية ذلك. وقد تخيل بوذا نفسه خيلاء هؤلاء الرجال القليلين وصاغها في العبارة التالية : «أظهروا للناس خطاياكم واخفوا عنهم فضائلكم!» ولكنهم بذلك سيقدمون للناس عرضا قبيحا، — إنه انعدام الذوق.

559

«لا شيء أكثر!» — كثيرا ما ينصح الفرد بأن يضع لنفسه هدفا يتجاوز قواه ولا يستطيع تحقيقه، وذلك لكي يبلغ على الأقل ما تستطيع قواه أن تحققه تحت وطأة ضغط شديد ! — ولكن هل هذا أمر مرغوب كثيرا؟ ألا يبدو أفضل الرجال الذين يعيشون وفق هذا المبدأ وأفضلُ الأفعال مبالغا فيهم ومتلوين، لأنهم يتعرضون لتوتر شديد؟ ألا يغلف العالم غطاء قاتم من الفشل بسبب كوننا نرى على الدوام رياضيين يتصارعون، وحركات هائلة ولكننا لا نرى في أي مكان منتصرا واحدا متوجا وسعيدا بنصره؟

560

المباح لنا. — يمكننا أن نفعل بغرائزنا كما يفعل البستاني، وما لا يعرفه إلا القليل من الناس هو أنه يمكننا أن نزرع بذور الغضب، والشفقة، واللطافة، والغرور،

بحيث نجعلها خصبة ومنتجة كفاكهة التعريشة؛ يمكننا أن نشرع في ذلك بالذوق الجيد أو الرديء للبستاني، على الطريقة الفرنسية، أو الإنجليزية، أو الهولندية، أو الصينية؛ ويمكننا كذلك أن نترك الطبيعة تفعل فعلها ونعمل فقط على الحفاظ على النظافة هنا وهناك؛ ويمكننا أخير، بعيدا عن العلم وعن أي سبب موجِّه، أن ندع النباتات تنمو بمزاياها وتواجه العوائق الطبيعية ونتركها تتصارع فيما بينها، — بل قد نتلذذ بتلك الفوضى، ونسعى لتلك اللذة رغم الملل الذي يصيبنا بسببها. كل هذا مباح لنا : ولكن كم منا يعرفون ذلك؟ ألا يؤمن كل الناس تقريبا بأنفسهم، كما يؤمنون بالأمر الواقع، حين يصبحون ناضجين؟ ألم يطبع بعض الفلاسفة هذا الحكم المسبق بخاتمه حين تحدث عن ثبات الطبع ؟

561

إضاءة السعادة. — فكما يضطر الفنانون الذين لا يستطيعون محاكاة درجة الضوء في لون السماء، كما هو في الطبيعة، إلى استخدام كل الألوان التي يحتاجونها لرسم مشاهدهم بدرجات أقل من التي نجدها في الطبيعة: وكما يتمكنون بواسطة تلك الحيلة من تحقيق تشابه في الضوء وانسجام في الدرجات يطابقان ما في الطبيعة : كذلك يجب على الشعراء والفلاسفة الذين لا يستطيعون بلوغ بريق السعادة النير أن يعرفوا كيف يحلون تلك المشكلة بالتحايل. بجعلهم ألق الألوان في كل الأشياء أكثر قتامة قليلا مما هو عليه في الطبيعة، والضوء الذي يعرفونه يشبه ضوء النهار ويكون له نفس التأثير الذي لنور الشمس تقريبا. المتشائم، الذي يلون كل الأشياء بأشد الألوان سوادا وقتامة، لا يستخدم إلا اللهيب والبرق، والأمجاد السرمدية وكل ما له قوة ضوئية شديدة ويجعل العين مترددة؛ إنه لا يستخدم الوضوح إلا ليرفع من حدة الرعب ولجعل الناس يشتبهون في أن الرعب الذي في الأشياء أكثر من الذي في الواقع .

562

المقيمون والأحرار. – الجحيم هو المكان الوحيد الذي يتم إطلاعنا فيه على تلك الخلفية القاتمة لسعادة المغامر التي يعيش في أجوائها عوليس وأمثاله، وكأنها سعادة مشرقة أبدا، – تلك الخلفية التي لا نستطيع نسيانها : فأم عوليس ماتت من شدة الحزن والرغبة في رؤية ابنها ! الواحد مضطر للتنقل من مكان إلى مكان، والآخر، الحنون والمقيم، يحطم الحزن قلبه بسبب هذا ! يحطم الأسى قلب الذين يرون الذي يحبون يتخلى عن أفكاره وإيمانه، – هذا كله يدخل ضمن التراجيديا التي تكون وراءها العقول الحرة – وهي تراجيديا يعرفونها أحيانا ! وبالتالي يضطرون، مثل عوليس، للنزول إلى الأموات ليمسحوا عنهم حزنهم ويهدئوا حنانهم.

563

وهم التنظيم الأخلاقي للعالم. – ليست هناك ضرورة سرمدية تقضي بوجوب التكفير عن كل ذنب والتعويض عنه، – لقد كان الإيمان بهاته الضرورة وهما تكاد لا تكون له فائدة : – كما أن الاعتقاد بأن كل ما يعتبر إثما هو إثم في الواقع وهم هو كذلك. ليست الأشياء هي التي أثارت البلبلة في عقول الناس بل الآراء التي يكونها الناس عن أشياء لا وجود لها.

564

مباشرة بعد التجربة. – حتى المفكرون لا يتوفرون إلا على تجربة بعرض خمسة أصابع، – مباشرة بعدها ينتهي تفكيرهم وفراغهم اللامتناهي، وتبدأ حماقتهم.

565

الوقار إلى جانب الجهل. – حيثما نَفهم نصبح محبوبين، وسعداء، ومبتكرين، وحيثما نكون قد تعلمنا بما فيه الكفاية، وتعلمنا فيه كيف نرى ونسمع ،

يُظهر عقلنا مزيدا من الليونة والكياسة. ولكننا لا نفهم الكثير من الأشياء ومعلوماتنا قليلة للغاية، بحيث يكون من النادر جدا أن نفهم شيئا ما ونجعل من أنفسنا في ذات الوقت أناسا جديرين بالحب: وبدل ذلك نظهر جفافا وبرودة في العاطفة ونحن نعبر المدينة، والطبيعة والتاريخ مزهوين بتلك الحالة وتلك البرودة، وكأنهما من آثار التفوق. بل إن جهلنا وتعطشنا الضعيف للمعرفة يتقنان التنكر وراء قناع الكرامة والمزاج.

566

العيش بكلفة اقل. — طرقت العيش القليلة الكلفة واللامبالية هي طريقة عيش المفكر: ذلك أنه يحتاج، لكي يقول على لنا الفور ما هو الشيء الأهم، إلى كل الأشياء التي يزدها الآخرون ويتخلون عنها. — يستمتع بالبقايا ولا يعرف الملذات الباهظة الثمن؛ عمله ليس قاسيا، بل جنوبيا إن صح القول؛ لا يفسد الندم لياليه وأيامه، يتحرك، ويأكل، يشرب وينام حسب ما يناسب عقله، ليصير هذا العقل أكثر هدوءا، وقوة وصفاء: يستمتع بجسده ولا يرى داعيا للخوف منه؛ لا يحتاج لمعاشرة الناس إلا من حين لآخر ليعود بعد ذلك لمعانقة وحدته بمزيد من الحنان؛ يستعيض بالأموات عن الأحياء ويعوض حتى أصدقاءه بتذكره، من بين الأموات، لأفضل من عاشوا على الإطلاق. — لنتساءل مرة واحدة عما إذا لم تكن الرغبات والعادات المخالفة هي التي تجعل حياة الناس باهظة الثمن، وبالتالي شاقة وغير مطاقة في أغلب الأحيان. — وإذا نظرنا إلى حياة المفكر من زاوية أخرى وجدناها هي المكلفة أكثر، — لا يجد في الحياة شيئا جيدا جدا؛ وحرمانه من الأفضل سيكون بالنسبة له أمرا لا يطاق.

567

في إطار الحملة. — «يجب أن نتعامل مع الأشياء بفرح أكثر مما تستحق؛ فقد أخذناها مأخذ الجد أكثر مما تستحق.» — هكذا يتكلم جنود المعرفة الشجعان.

568

الشاعر والعصفور. — أرى طائر الفينيق الشاعر ملفوفا ملتهبا يتفحم وقال له : «لا تخف، فهذا عملك ! إنه عمل لا نجد فيه روح العصر ولا حتى روح الذين يناقضون هذا العصر : لهذا يجب حرقه. وهاته إشارة جيدة : فالفجر يتخذ أشكالا عدة.»

569

للمتوحدين. — إذا لم نراع شرف الآخرين في مناجاتنا لنفوسنا كما نراعيه أمام الملأ فإننا غير شرفاء.

570

خسائر. — بعض الخسائر تبث في الروح سموا يجعلها تمتنع عن الشكوى وتمشي في صمت، كأشجار السرو السوداء السامقة.

571

الصيدلية العسكرية للروح. — ما هو الشيء الفعال؟ — الانتصار.

572

على الحياة أن تهدئنا. — إذا كنا، كالمفكر قد ألفنا العيش وسط تيار الأفكار والمشاعر الكبير، وكانت حتى أحلامنا أثناء الليل تتبع هذا التيار، فإننا نطلب من الحياة الهدوء والصمت، — بينما آخرون يريدون أن يستريحوا من الحياة بإقبالهم على التأمل.

573

تغيير الجلد. — تموت الأفعى حين لا تستطيع تغيير جلدها. والعقول التي تمنعها من تغيير آرائها تكون تلك نهايته كعقول.

574

لا تنسوا. – كلما ارتفعنا كلما بدونا صغارا في نظر الذين لا يعرفون التحليق.

575

نحن ملاحي مناطيد العقل. – كل هاته الطيور التي تطير نحو فضاءات بعيدة، – سيأتي عليها ولا شك يوم لن تستطيع فيه الذهاب أبعد من نلك الفضاءات، وستحط على صاري سفينة أو على رصيف صخري قاحل – سعيدا بالعثور على ذلك المنفى البئيس ! ولكن من سيكون له الحق في الاستنتاج أبنه لم يعد هناك أمامهم طريق سالك لا نهاية وبأنهم قد حلقوا إلى أبعد نقطة يمكن الطيران إليها ؟ ومع ذلك فكل الطليعيين والرواد الذين سبقونا توقفوا في نهاية المطاف، وحين يتوقف التعب فإن وقفاته لا تكون نبيلة وظريفة : هذا ما سيحدث لي ولك ! ولكن ما أهميتنا أنا وأنت ! ستحلق عصافير أخرى أبعد من ذلك ! هذا الفكر، هذا الإيمان الذي يحركنا، يأخذ انطلاقته، ينافسهم، ويطير دائما أبعد منهم، وأعلى منهم، ينطلق مستقيما في الهواء، فوق رأسنا وفوق عجز هاته الرأس، ومن عليائه في السماء يبصر ما في الفضاءات البعيدة، يبصر جماعات من الطيور أقوى منا ستنطلق في نفس الاتجاه الذي ننطلق فيه، حيث لا يوجد إلا البحر، البحر، ولا شيء غير البحر ! – إلى أين نريد الذهاب؟ هل نريد عبور البحر؟ إلى أين يأخذنا هذا العشق الذي لا يضاهيه لدينا أي عشق؟ لماذا هذا التحليق المتيم في هذا الاتجاه، نحو النقطة التي افلت عندها كل الشموس انطفأت؟ هل سيقال عنا يوما، نحن كذلك، أننا كنا نتمنى بإبحارنا نحو الغرب أن نبلغ بلاد هند مجهولة، – وأن مصيرنا كان هو الفشل أمام المطلق؟ أو، يا إخواني، أو؟ –

فهرس

حصاد العقل - متحرر من الشك - متحرر من الشك - لنمض -الحب والحقيقة -لا يمكن تفاديه -المانيان -اختيار من نعاشر - التقزز من الإنسان -طريقنا - افاق بعيدة -الذهب والجوع - عار -ضد الإسراف في الحب -الصديق وقت الضيق -الحقائق الصغيرة - بسبب هذا كذلك إفضل الوحدة -رياح الجنوب -على شجرتنا الخاصة - اخر حجج الشجاع -اساتذتنا -المبدا السيئ -النظرة المطهرة - عدم التطلب -الشرير - في الاتجاه المعاكس - ارواح فانية - كلمة واحدة لثلاث حالات مختلفة - صداقة - توفيق -العمليون -التجفيف الضروري لكل ما جيد -ضد طغيان الحقيقي - احذروا إثارة الشفقة. - العين الثالثة -إفلاتك من فضائلك - المغرية - شجاع أمام الاشياء -العراقيل والجمال - للاقوياء - ازدياد الجمال - لا تدخل شيطانك في القريب - الحض على الحب - استسلام - ان تكون مخدوعا - المأتم الابدي - غرور إستثنائي -حكمة بلا أذنين -سؤال ماكر -غيرة المتوحدين - تاثير الثناء - لا نريد أن نكون رموزا -المختبئون -تعفف نادر -كيف يصبح للناس والشعوب بريق - لفة المفكر - إحساس مغاير أمام الفن - «الحب يحقق المساواة» -نحن المبتدئون ! - المقادير الصغيرة - حاجة الحقيقة للقوة -حاجة الحقيقة للقوة -إبهاميات -الإتقان -الاستلاب الاخلاقي للعبقري - هل تعرفون ما تريدون؟ - التعلم - كيف نتحجر - الفيلسوف والشيخوخة - لا تجعلوا من الغضب حجة لصالح الحقيقة - كيف ننتج الفلسفة اليوم - لا نصدقكم -العبد والمثالي -طغاة العقل - الإنتصار على القوة - هروب المرء من نفسه - المعرفة والجمال -فضائل المستقبل -الاناني المثالي - منعطفات -خطوة إلى الامام -يكفينا الضعفاء - الفضائل الاربعة -قبالة العدو -لا تخفوا فضائلكم ! - «لا شيء أكثر !» - المباح لنا -إضاءة السعادة -المقيمون والاحرار -وهم التنظيم الاخلاقي للعالم -مباشرة بعد التجربة - الوقار إلى جانب الجهل -العيش بكلفة اقل - في إطار الحملة - الشاعر والعصفو - للمتوحدين - خسائر - الصيدلية العسكرية للروح - على الحياة ان تهدئنا - تغيير الجلد -لا تنسوا -نحن ملاحي مناطيد العقل

تم الطبع بمطابع أفريقيا الشرق 2013
159 مكرر ، شارع يعقوب المنصور ، الدار البيضاء
الهاتف : 04 95 25 0522 / 13 98 25 0522
الفاكس : 20 29 25 0522 / 80 00 44 0522
مكتب التصفيف الفني : 54 / 53 67 29 0522
الدار البيضاء


مكتبة
التنوير

NIETZSCHE

فريدريك نيتشه





تتشكل أمامنا الآن، ومن عدة جوانب، ثقافة مجتمع تعتبر التجارة هي روحها كما كانت المبارزة هي روح الثقافة عند الإغريق، والحرب والانتصار والقانون روح الثقافة لدى الرومان. الذي يمارس التجارة يتقن تحديد سعر كل شيء دون أن ينتجه، أن يحدد سعره حسب حاجة المستهلك وليس حسب حاجته هو؛ أهم شيء لديه هو أن يعرف «من هم الأشخاص الذين يستهلكون هذا المنتوج وكم عددهم؟» ومنذ أن يعرف الجواب يقوم، بشكل غريزي ودون انقطاع، بتحديد تسعيرة لكل شيء، أي حتى بالنسبة لمنتجات الفنون والعلوم، وما ينتجه المفكرون، والعلماء، والفنانون، ورجال الدولة، والشعوب، والأحزاب، بل وعصور بأكملها: يجمع المعلومات عن كل ما يتم ابتكاره، عن العرض والطلب، ليتمكن من تحديد قيمة الشيء. هذا هو ما سيكون، بعد أن تم وضعه كمبدأ لثقافة بأكملها، وتمت دراسته من أقصاه إلى أقصاه وفرضه على كل أصناف الإرادة والمعرفة، مفخرتكم يا رجال القرن القادم: إذا رأى أنبياء طبقة التجار أنه من الصواب وضعه بين أيديكم! ولكنني لا أثق في أولئك الأنبياء.

ISBN 9981-25-870-9
9 789981 258709



Patrick Heron. n Leeds (GB), 1920.
m Zennor (GB), 1999.
Manganèse en violet foncé. 1967.